

قِرَاءَةُ سِّيَاسَتِهَا لِلسِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ

تَأَلَّفَ
الْأَسْتَاذُ الدُّكْتُورُ
مُحَمَّدُ رَوَّاسُ قَلَمِهِ جِي

دار النفاثس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ



دار الفخار
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بنايه الصباح
وصفي الدين - ص.ب. ٥١٥٢ / ١٤
فاكس: ٨٦١٣٦٧ - هاتف: ٨٠٣١٥٢
أو ٨١٠١٩٤ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

مقدمة

الحمد لله الذي بعث محمداً ﷺ فأضاء لنا جوانب الطريق، وأشاع في نفوسنا نور اليقين، وهدانا إلى أقوم سبل الحياة.

وبعد: لقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن مسودات كتبها عام ١٣٩٩ هـ الموافق لعام ١٩٧٩ م باسم «التفسير السياسي للسيرة النبوية»، فلم أكن راضياً عنه كل الرضى، إلا أن الناس استقبلوه بالترحاب وتلقوه بالقبول جملة، لما فيه من آراء وتحليلات استحسوها. ولما وجدت شيئاً من الوقت أعدت النظر فيه، فزدت فيه كثيراً، وأنقصت منه كثيراً، وعدلت فيه كثيراً، ولذلك آثرت تغيير اسمه منعاً للالتباس، وقد آثرت أن أسميه (قراءة جديدة للسيرة النبوية).

ومحمد ﷺ ليس كبقية الزعماء والمصلحين، لأن هؤلاء إن ظهرت براعة أحدهم في التخطيط السياسي، أو الإصلاح الاجتماعي، أو أي جانب من جوانب الحياة، فإنه لا يخلو من الخلل في جوانب أخرى من الحياة، أو لا يخلو من التناقض بين نظرياته وسلوكه. ومحمد ﷺ صورة صادقة للتعالم التي أتى بها، ولذلك كان للإسلام مظهران: مظهر نظري يتمثل في آيات كتاب الله تعالى وما نطق به الرسول الكريم من أحاديث، ومظهر عملي، ويتجلى في سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وهما لا يفترقان أبداً، ولذلك كان محمد ﷺ القدوة ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾^(١). والسيرة النبوية قد تناولها الباحثون من الناحية التاريخية، فدرسوها دراسة دقيقة، ليس بعدها زيادة لمستزيد، ولكنها لم تدرس تحليلياً الدراسة الكافية.

نعم قدم لنا الكاتب الإسلامي اللواء الركن محمود شيت خطاب تفسيراً عسكرياً للسيرة النبوية، فسدّ - جزاء الله خيراً - ثغرة كانت موجودة في مكتبة السيرة النبوية، فكان - حفظه الله - أحسن من بذل جهداً في هذا الميدان. ولكن أحداً لم يقدم لنا تفسيراً تربوياً

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

للسيرة النبوية، مع أن رسول الله كان مريباً من الطراز الأول، ولا أدل على ذلك من تكوينه جيلاً قاد الدنيا فكرياً، وروحاً، ونظاماً. وكذلك لم يقدم لنا باحث - حتى الآن - تفسيراً سياسياً للسيرة النبوية، مع أن رسول الله ﷺ كان أبرز عبقرى سياسي شهده العالم... ألم يبدأ وحيداً، ثم انتهى رئيساً لدولة رائدة ملكت القلوب، وحطمت العروش الطاغية الظالمة. والتفسير السياسي للسيرة النبوية ليس بالأمر السهل، لأن الأمور السياسية يحوطها الكثير من الغموض، لأن السياسيين لا يعلنون مخططاتهم السياسية، بل وفي أغلب الأحيان يضعون مخططاتهم ويعلنون غيره، لأن الكثير من المخططات السياسية يجب أن تحاط بكثير من الكتمان، لأن الإعلان عنها قد يؤدي بمستقبل الدولة.

ومن هنا كان على الذي يريد أن يدرس وضعاً سياسياً ألا يقرأ ما كُتب في السطور، ولا ما نطق به السياسيون من تصريحات، بل عليه أن يتلمس ما وراء السطور، ويدرس الخط البياني الذي ترسمه التصرفات، ومن دراسته تلك يستنتج المخطط الذي يرسمه السياسي. ولذلك كان لا بد وأن يكون هذا الدارس متمتعاً بحاسة غير الحواس الخمس، لأن المخططات السياسية لا تدرك بالحواس الخمس، ولكنها تدرك بالحدث، والمحاكمة، والاستنتاج، وهذا لا يتوفر في الإنسان العادي. وإني عندما عزمت على تقديم التفسير السياسي للسيرة النبوية قدرت هذه المصاعب كلها، وقدرت أنه سيخالفني في هذا التفسير بعض الناس، ولن أستطيع الدفاع عما قدمته بنص مقروء، بل باستنتاج أنزع فيه.

وقد قسمت الكتاب إلى سبعة أبواب:

١ - فتحدثت في الباب الأول عن تهيئة الجو لإنجاح قيام الدولة الإسلامية بقيادة محمد ﷺ بوضع العالم في حالة يكون أحوج ما يكون فيها إلى الدولة الإسلامية، وبإلقاء كثير من الأضواء على شخص محمد طفلاً وياقناً وشاباً وكهلاً.

٢ - وتحدثت في الباب الثاني عن تسلم محمد القيادة بعد أن تم إعداده لها، وعن بدئه العمل بتجميع القوى لإقامة دولة الإسلام، كما تناولت بالحديث محاولات الجهات المعادية لإيقاف المد الإسلامي الذي يقوده محمد.

٣ - وتحدثت في الباب الثالث عن بحث محمد عن أرض لإقامة الدولة الإسلامية التي تحمي العقيدة الإلهية وتقيم أحكام شريعة الله - وكيف تم إنجاح انتقال القيادة والعناصر الفاعلة إلى تلك الأرض الجديدة.

٤ - وتحديث في الباب الرابع عن إعلان قيام الدولة الإسلامية سياسياً، بصورة رسمية بعد أن تم الإعداد الكامل لهذا الإعلان .

٥ - وتحديث في الباب الخامس عن بدء الصراع بين الدولة الإسلامية وبين أعدائها، ووضع الدولة الإسلامية المخطط الدقيق لتصفية أعدائها سياسياً جماعةً بعد جماعة، بدءاً من اليهود فالوثنيين المشركين، فالجماعات السياسية الأخرى .

٦ - وتحديث في الباب السادس عن إعلان الدولة الإسلامية سيادتها على جميع أنحاء الجزيرة العربية، وانضواء الناس تحت هذه السيادة، واهتمامها بالإدارة والتعليم .

٧ - وختمت الكتاب بالباب السابع الذي تحدثت فيه عن مرض رسول الله ﷺ ووفاته، وتولية خليفة له يقوم بأمور المسلمين بعد وفاته عليه الصلاة والسلام .

وإني وإن كنت أعترف بأن ما في هذا الكتاب من الحوادث التاريخية قد ذكره أكثر كتّاب السيرة، فالتاريخ لا جديد فيه، ولكني أقول بكل تواضع أن تفسير الحوادث التاريخية، وقراءتها قراءة عصرية غير القراءة التي كان يقرؤها كتاب السيرة هو الجديد في هذا الكتاب .
أسأل الله تعالى التوفيق والسداد فإنه خير مسؤول .

أبو المنتصر

أ . د محمد رواس قلعه جي



الباب الأول

تهيئة الجوّ لإنجاح قيام الدّولة الإسلاميّة

بقيادة محمّد رسول الله ﷺ

ويشتمل فصلين :

الفصل الأول : سيادة الظلم والظلمات في العالم

الفصل الثاني : تسليط الأضواء على شخص محمد ﷺ

العالم قبل الإسلام سيادة الظلم والظلمات في العالم

إن من يلقي نظرة شاملة فاحصة على العالم قبل بعثة محمد ﷺ يجده عالمًا يَمُور بالفساد، عالمًا سيطر فيه الظلم، وانغمس في الظلمات.

ظلم سياسي: حيث احتكر الحكم جماعة معينة من الناس. وفرضوا سلطانهم على الشعوب، دون أن يكون لأحد حق إبداء الرأي في منهج الحاكم أو تصرفه، فما بالك بحقه في التطلع إلى احتلال مركز القيادة السياسية في البلاد. كان هذا هو الحال في دولة الروم، وفي دولة الفرس، وفي الدول التابعة لهما كالغساسنة والمناذرة، وتدمر، وغيرها من الدول القائمة آنذاك.

وظلم اجتماعي: حيث كانت الطبقة هي التي تسود المجتمعات، فالرومان يقسمون مجتمعهم إلى طبقتين، سادة وعبيد، أو رومان وشعوب، وكان لدى الدولة الرومانية قانونان، قانون تحكم به روما ويطبق على الرومان وهو القانون الروماني، وقانون تحكم به المستعمرات، وتُحكم به الشعوب وهو القانون البروتوري، وبين القانونين مفارقات كبيرة، مع أن الدولة الرومانية كانت في وقتها أكثر دول الأرض عناية بالتشريع. فما بالك بدولة فارس التي كانت قوانينها مستمدة من وثنياتها، وما بالك بالعرب الذين لا قانون لهم ولا شريعة، وإنما هي مجموعة من الأعراف التي تختلف من قبيلة إلى قبيلة؛ هذا إضافة إلى أن المجتمعات قبل البعثة النبوية قد فقدت الرابطة بين أفرادها، إلا رابطة القبيلة التي كانت تقوم على أساس من العصبية الجاهلية.

وظلم اقتصادي: إذ لم يفكر مجتمع من المجتمعات ولا دولة من الدول في إيجاد نظام يعنى بالتوزيع العادل للثروة بين الناس، ولذلك وجدت طبقة متخمة بالمال، وأخرى لا تملك شروى نكير، ومن الطبيعي أن يكون الحكم للطبقة الغنية، ولذلك فإنها كانت تبتدع من السبل ما تظن أنه يروي نهمها، ولكن ذلك لا يزيدها إلا نهمًا، ومن هنا كان التعامل بالربا منتشرًا، بل كان الإقراض بالربا، أضعافًا مضاعفًا، عرفًا لا ينكره منكر.

وظلمات في العقيدة: لا يستثنى منها دين ولا مجتمع، فالرومان النصارى كانوا يعتقدون أن الله ثالث ثلاثة، وأن عيسى هو ابن الله، وأن هناك لاهوتاً وناسوتاً، والفرس يعتقدون بوجود إلهين اثنين أحدهما للخير والآخر للشر، والعرب يعتقدون بالله الخالق كل شيء ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾^(١) وإلى جانبه آلهة متعددة، وإذا سألتهم فما بال هذه الأصنام قالوا: تقربنا إلى الله الذي في السماء، وكان يستتبع هذه الظلمات في العقيدة انحراف في العبادة وصل في كثير من الأحيان إلى حد يثير الضحك، فصلاة العرب الوثنيين مكاء وتصدية، خاليان من المعنى، ومجردان من الهدف، وحجهم يفرقون به بين أهل مكة والقادمين من الآفاق، فالمكي يطوف بالكعبة بشيابه، والآفاقي يطوف عارياً، والمكي يدخل خلال موسم الحج البيوت من أبوابها، والآفاقي يدخلها من ظهورها...

وظلمات في الفكر: حيث كبلت العقول بالأغلال، ووضعت عليها البراقع السوداء فلم تعد قادرة على الرؤيا الواضحة، ولا التفريق الدقيق بين الألوان، وأصبح الفكر عاجزاً عن إدراك أن أحجاراً لا تقرب إلى الله، ولكن الإخلاص والعمل الصالح هو الذي يقرب إلى الله، بل وصل الفكر إلى درجة فهم الحقائق معكوسة، فأصبح يفهم أن الظلم هو الوسيلة المثلى لحماية الحق^(٢).

ومن لم يَدُ عن حوضه بسلاحه يَهْدَمُ ومن لا يَظْلِمُ الناسَ يُظْلَمُ
وإذا كان العلم هو الأداة التي تزال بها تلك البراقع السوداء، فإن الحكام كانوا يحصرونه في الطبقة المئوية لهم، ولذلك ساد الجهل، وواكبته الخرافة.

وظلمات في النفس: لم تكن المجتمعات مبنية على أساس من الإخاء، وهذا ما أفقد نفوسهم الصفاء، بل كانت مبنية على أساسين اثنين:
الأول: هو القهر، فالقوي يقهر الضعيف، وهذا ما شحن النفوس بالحق الذي أظلمت به النفوس.

الثاني: الانتفاع، وهذا ما نمى الأنا في النفس، وأضعف الغيرية، وقد بدا ذلك واضحاً في المجتمعين الفارسي والروماني، حتى كان للدائن الروماني أن يتقاضى دينه من

(١) سورة لقمان، الآية ٢٥.

(٢) ذلك هو المنطق المكافيلي الذي شرحناه في كتابنا «أميرنا وأميرهم».

جسد مدينه، وخفف من هذا في بعض المجتمعات - كالمجتمعات القبلية في الجزيرة العربية - عيشها على نمط معين، جعلها مضطرة للتخلق بالغيرية في كثير من الأحوال، فأوجد فيها النجدة والكرم ونحوهما، ولم يكن ذلك النمط من العيش ليؤثر في بعض الأحوال الأخرى، حيث نمت فيها الأنا إلى حد يبعث على الإشفاق، وقد كان الدائن يطالب مدينه المعسر بدينه، فإن لم يكن قادراً على وفائه، أجله الدائن على أن يقضيه مضاعفاً.

إن هذا الوضع العالمي الذي شرحناه بإيجاز، كان يصرخ في ضمير الإنسانية مطالباً بالمنقذ، المنقذ الذي يرسل النور فتنجاب به الظلمات ولكن هذه الظلمات تحميها عروش ظالمة، فلا بد لهذا المنقذ من السيف الذي يحطم به تلك العروش الباغية الظالمة، ويرفع الظلم عن العباد، لئلا يرتطم النور بالحواجز العاتية التي تمنع انتشاره. فكان محمد رسول الله ﷺ مؤسس دولة الإسلام، حمل السيف فأزاح عن الحكم السلطة الظالمة، ورفع الكابوس عن الناس وأزال الحواجز التي تقف في وجه النور - الإسلام - الذي جاء به من عند الله لينقذ الناس من الظلمات.

الفصل الثاني

تسليط الأضواء على شخص محمد ﷺ

ألقى الله تعالى بتدبيره المحكم أضواء كاشفة على شخص محمد بن عبد الله في أيامه الأولى، حتى ليخيل للباحث أنه لم يبق ذو شأن في العرب إلا وقد وصله شيء عن محمد يقول: إن محمداً هو الرجل الذي يمكن أن تناط به في المستقبل مهمة قيادة هذه الأمة إلى شاطئ الأمان. ويتجلى لنا ذلك فيما يلي:

١ - نسبه الشريف:

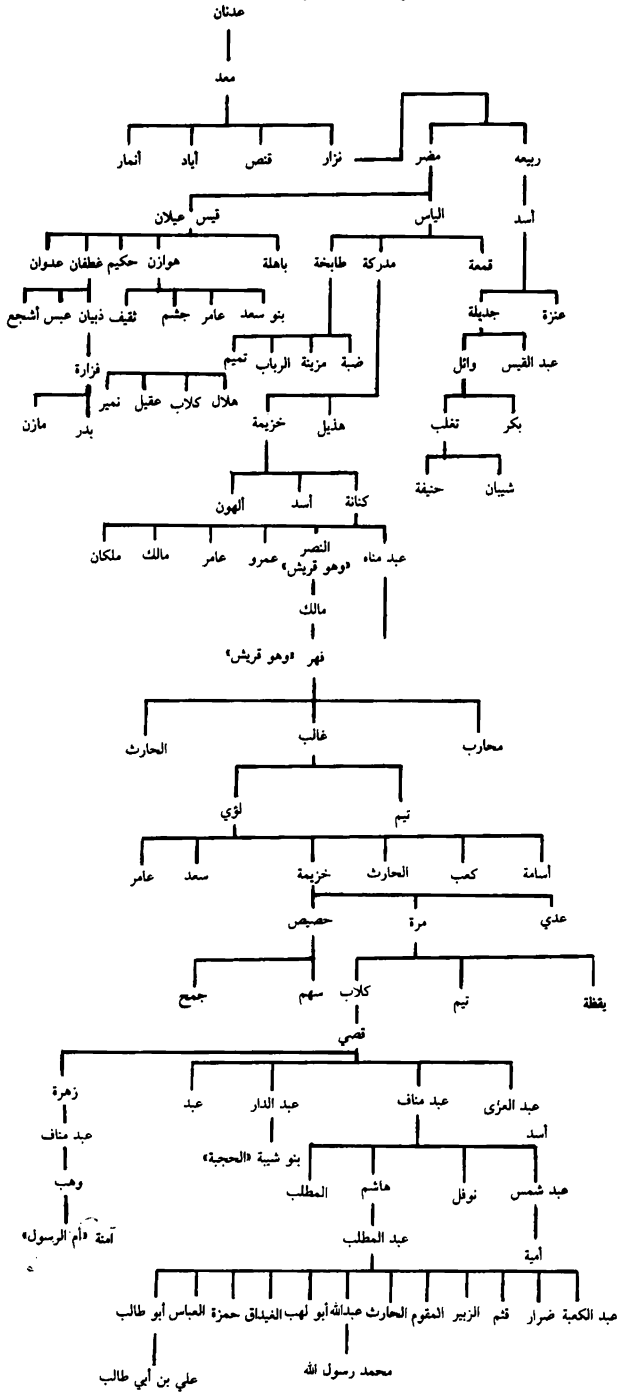
هو محمد بن عبد الله - واسم عبد الله: شية الحمد - بن عبد المطلب بن هاشم - واسم هاشم: عمرو العلي - بن عبد مناف - واسم عبد مناف: المغيرة - بن قصي - واسم قصي: زيد - بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

هذا هو الصحيح المجمع عليه من نسبه الشريف، وما فوق ذلك فهو مختلف فيه، ولا خلاف أن عدنان هو من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام. قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرصاً. هذا هو نسب رسول الله من جهة أبيه. أما نسبه من جهة أمه:

فأمه عليها السلام آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

فوالدا رسول الله أشرف ولد آدم حسباً، وأفضلهم نسباً. هذا النسب الكريم كان له أثره في رسول الله، وكان له أثره فيمن يبلغهم رسول الله شريعة الله. أما أثره في رسول الله: فقد شب عليه الصلاة والسلام مرفوع الرأس رغم يتمه، لا يعرف الذل ولا الخنوع، جريئاً في إعلان رأيه، تملأ الثقة بنفسه. أما أثره فيمن دعاهم رسول الله إلى الإيمان والانضواء تحت راية الإسلام: فإن أكبر شخصية في العرب لا تجد مطعناً على رسول الله في نسبه، ولا تجد غضاظة في الانضواء تحت رايته، وقبوله حاكماً، لأنه من أكبر بيوتات قريش وأعلاها نسباً،

شجرة العائلة العربية



ولذلك فإنهم لما اختلفوا معه في أمر العقيدة عرضوا عليه الملك عليهم، فأبى إلا أن تكون العقيدة قبل الملك، فهي إذن لا تنكر عليه الرئاسة ولا الملك.

وكذلك الحاكم في نظر الإسلام يجب أن يكون من أسرة عريقة جمعت أطراف الشرف ليساهم ذلك في صنع اطمئنان الناس إليه والتفافهم حوله، فلا يأنف الشريف من التعاون معه بله الوضيع، وبذلك يشارك الجميع في إعلاء راية الدولة، وتنعدم المعارضة، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «الخلافة في قريش»^(١) وكتب عمر بن الخطاب إلى بعض عماله «لا تستقضين إلا ذا مال وذا حسب، فإن ذا المال لا يرغب في أموال الناس، وإن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس»^(٢). بل اعتبر الرسول ارتقاء الصعاليك سدة الحكم من إمارات الساعة فقال: «أن تلد الأمة ربتها». وقد رأينا بأمرنا كيف تنهب أموال الناس، وتمزق الأمة، وتوقع الشقة بين الحاكم والمحكوم عندما يسود الصعاليك.

٢ - ابن الذبيحين:

لقد نزل الأمر من الله لإبراهيم عليه السلام بأن يذبح ولده إسماعيل، فسعى عليه السلام لتنفيذ أمر الله، ففداه الله بذبح عظيم، وإسماعيل هو الجد الذي ينحدر منه نسب رسول الله ﷺ. ولما أراد جد رسول الله عبد المطلب أن يكشف عن زمزم عارضته قريش في ذلك أشد المعارضة فنذر لئن ولد له عشرة نفر، ثم بلغوا معه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة، فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قِدْحاً ثم يكتب فيه اسمه، ثم اتنوني. ففعلوا ثم أتوه فدخل بهم على «هُبَل»^(٣)، وكان هبل على بثر في جوف الكعبة. وكانت تلك البثر هي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة.

فقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه. وأخبره بنذره الذي نذر، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه، وكان عبد الله بن عبد المطلب آنئذ أصغر بني أبيه. وكان أحب ولد عبد المطلب إليه فكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأ فقد أخطأ. فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب قام عبد المطلب عند هُبَل يدعو الله، ثم ضرب صاحب القداح فخرج القدح على عبد الله.

(١) رواه أحمد بن حنبل ٤، ١٨٥.

(٢) انظر كتابنا «موسوعة فقه عمر بن الخطاب» مادة: قضاء / ١ هـ ٩.

(٣) اسم صنم لقريش.

فأخذه عبد المطلب بيده، وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب؟ قال: أذبحه. فقالت له قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا! وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان ابن أخت القوم: والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه! وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل وانطلق به إلى الحجاز، فإن به عَرافة لها تابع، فسلها ثم أنت على رأس أمرك، إن أمرتك بذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته.

فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوها بخير، فركبوا حتى جاؤوا فسألوها، وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه، وما أراد به، ونذره فيه، فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله، فرجعوا من عندها، فلما خرجوا من عندها قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها فقالت لهم: قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم؟ قالوا عشرة من الإبل، قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه بالقدح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى بكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي بكم ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل، وعبد المطلب قائم عند هُبُل يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل عشرين، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل، وجعلوا - هكذا - كلما ضربوا خرج القدح على عبد الله فيزيدون ثم يضربون ثم يزيدون حتى بلغت الإبل مائة، فقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل، فقالت قريش ومن حضر: قد انتهى رضي ربك يا عبد المطلب، فقال عبد المطلب: لا والله حتى أضرب عليه ثلاث مرات فضربوا على عبد الله ثلاث مرات وعلى الإبل، وقام عبد المطلب يدعو، فخرج القدح على الإبل في المرات الثلاث، فتحرت ثم تركت لا يُصد عنها إنسان ولا يمنع. وحفظت قريش ذلك لعبد الله والد محمد - رسول الله فيما بعد - فكان هذا تمهيداً لقطع الحجة على الذين سيعارضون دعوة رسول الله وحقه في الرياسة والقيادة.

لقد نَجَّى الله والد محمد من الذبح، فكان منه محمد، وكانت تلك النجاة مفخرة لرسول الله وتدعيماً لموقفه تجاه العرب. وكانت الغاية من هذه الحادثة بكل ما فيها هي تبسيط الأضواء على شخص محمد ﷺ في وقت مبكر، واستنفار قريش لحمايته وعدم

التفريط فيه ، إذ ما كان لها أن تتخلى عن حماية من استنقذت أباه من الذبح وليداً بعد أن شب وترعرع وآتى ثماره يانعة طيبة .

٣ - تزويج عبد الله بآمنة :

نجا عبد الله من الذبح ، فترعرع وشب ، فكان أجمل رجل رئي في قريش ، حتى تمتته كثير من نساائها أن يكون لهن الزوج المنتظر ، حتى إن بعض النساء لم يتوانين في عرض أنفسهن عليه ، ولكنه لم يقبل ، فخطب له أبوه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة وهي يومئذ سيدة بني زهرة سناً وشرفاً وفروجه إياها ، وكان عمره حين زواجه ثمانية عشر عاماً .

٤ - الحمل برسول الله :

وحملت آمنة برسول الله فلم تجد له ثقلًا ، ولم يطرأ عليها ما يطرأ على النساء من الوحْم ، ويزعمون - فيما يتحدث الناس ، والله أعلم - أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدث : أنها أتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولِي : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ! ثم سميه محمداً ، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام .

٥ - وفاة والده :

وسافر عبد الله مع تجارة قريش إلى بلاد الشام ، وفيما هو قافل إلى مكة أدركته منيته في المدينة المنورة فتوفي فيها ، ودفن هناك عند أخواله من بني عدي بن النجار ، توفي عبد الله وترك محمداً حملاً في بطن أمه لم يمض على حمله سوى شهرين .

٦ - ولادة الرسول بغير آلام :

ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين ، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، عام الفيل . فلما وضعت أمه ﷺ أرسلت إلى جده عبد المطلب : أنه قد ولد لك غلام فأنظر إليه . فأتاه فنظر إليه ، وحدثته بما رأت حين حملت به ، وما قيل لها فيه ، وما أمرت به أن تسميه ، فسماه «محمداً» .

وقد حمى الله هذا الاسم من الشيوع والانتشار فلم يسمَّ به أحد حتى قرب مبعث النبي ، فسمي به ستة هم : محمد بن أبيصة ، ومحمد بن مسلمة ، ومحمد بن براء ،

ومحمد بن سفيان، ومحمد بن حمران، ومحمد بن خزاعة، ولا سابع لهم، لأن الكتب السماوية قد بشرت بأن النبي المنتظر سيكون اسمه «محمد»، فسمى آباء هؤلاء أبناءهم به رجاء أن يكون ابنه ذاك النبي، وقد حمى الله كل من سمي به أن يدعي النبوة أو يدعيها أحد له. وقد كان لهذا الاسم النادر «محمد» الذي سمي به مساهمة في إلقاء الأضواء وتوجيه الأنظار في وقت مبكر نحو هذا الإنسان الذي سيختاره الله تعالى لقيادة هذه الأمة، وإقامة صرح المثل الإنسانية الموحاة إليه من الله تعالى فيها.

أخذ عبد المطلب الوليد الجديد فدخل به الكعبة، فقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها والتمس له المراضع فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر، يقال لها حليلة بنت أبي ذؤيب.

٧ - بركة رضاع رسول الله في بني سعد :

كانت حليلة تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير اسمه عبد الله بن الحارث ترضعه، في نسوة من بني سعد، تلتمس الرضعاء، وذلك في سنة مجدبة لم تبق لهم شيئاً... تقول: فخرجتُ على أتان لي قمراء^(١) معنا شارف لنا^(٢). والله ما تبضُّ بقطرة^(٣)، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتانِي، فلقد أدْمْتُ^(٤) بالركب حتى شق عليهم ضعفاً وعَجْفاً^(٥) حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما معنا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده! فكنا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأة كانت معي إلا أخذت رضيعاً، غيري. فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي^(٦): والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذنه! قال: لا عليك أن تفعلِي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

(١) الأتان: الحمارة. القمراء: التي يميل لونها إلى الخضرة.

(٢) الشارف: الناقة المسنة.

(٣) ما تبض بقطرة: أي ليس فيها قطرة لبن.

(٤) أي أطلت الركوب عليهما بسبب بطء سيرهما وطول الطريق عليهما.

(٥) العجف: الهزال.

(٦) تعني زوجها الحارث بن عبد العزى.

قالت : فذهبتُ إليه فأخذته ، وما حملني على أخذه إلا أنني لم أجد غيره . فلما أخذته رجعت به إلى رحلي ، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجي إلى شارقنا تلك فإذا هي حافل ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً ، فبتنا بخير ليلة !

قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليلة ، لقد أخذت نسمة مباركة ! فقلت : والله إنني لأرجو ذلك . ثم خرجنا وركبت أنا أتانتي ، وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمهم ، حتى إن صواحي ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب . ويحك اربعي علينا^(١) أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟! فأقول لهن : بلى والله ، إنها لهي ! فيقلن والله إن لها لشأناً! . ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها ، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب . فتروح أغنامهم جياً عما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعاً لبناً .

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جَفْراً^(٢) ، فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بُنيّ عندي حتى يغلظ ، فإني أخاف عليه وباء مكة . فلم نزل بها حتى رده معنا . ونحن لا نشك في أن خبر محمد ﷺ وخبر ما حلّ في البيت الذي هو فيه من البركة قد انتشر في أنحاء البادية ، وسارت به الركبان ، ويؤكد لنا شيوخ هذا الخبر أن الناس يقولون لغلمانهم : ارعوا أنعامكم حيث ترعى أنعام حليلة ، ولما تعود أنعامهم كما ذهبت وتعود أنعام حليلة وقد امتلأت ، لا بد من أن يثور في نفوسهم ألف سؤال بحثاً عن السرّ ، ولا تغيير في أمر حليلة إلا دخول هذا الطفل «محمد» بيتها .

كل هذا كان له أثره في توجيه أنظار أهل البادية إلى محمد ﷺ في وقت مبكر ، ليكون

(١) أي انتظري .

(٢) الجفر : الغليظ الشديد .

مهوى القلوب، ومجمع الزنود المفتولة عندما يتسلم قيادة هذه الأمة، فيقول الناس: هذا الذي عرفنا ببركته صغيراً، فما الذي يمنعا أن نكون معه كبيراً، لعله يحقق لنا الخير الذي عجزنا عن تحقيقه.

٨ - شق صدره وإعادته إلى أهله :

لترك الحديث عن شق صدر «محمد» إلى حليلة السعدية لتحدثنا به، وهي أعلم الناس بذلك، تقول حليلة :

بعد أن رددت محمداً معي إلى البادية بعدة أشهر كان محمد مع أخيه - تعني ابنها - مع بهم^(١) لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجлан عليهما ثياب بيض، فأضجعه فشقا بطنه، فهما يسوطانه^(٢). فخرجت أنا وأبوه، فوجدته قائماً منتقماً وجهه، فالتزمت والتزمه أبوه، فقلنا: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض. فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو؟.

فرجعنا به إلى خبائنا وقال لي أبوه: يا حليلة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فالحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به. فاحتملناه فقدمنا به على أمه فقالت: ما أقدمك به يا حليلة وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت: قد بلغ الله بابني وقضيت الذي علي، وتخوفت الأحداث عليه، فأدبته إليك كما تحبين. قالت: ما هذا شأنك فاصدقيني خبرك، فلم تدعني حتى أخبرتها، قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم. قالت: كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبني لشأناً، أفلا أخبرك خبره؟ قلت: بلى. قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف علي ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء. دعيه عنك وانطلقني راشدة، وبذلك يكون قد أقام رسول الله عند حليلة مدة تربو على أربع سنوات عاد بعدها إلى أمه في مكة.

إن هذه الحادثة هي نوع من أنواع الإعداد الذي أعد الله تعالى به محمداً ﷺ ليكون نبياً وقائداً.

(١) البهم الصغار من الغنم، الواحدة بهمة.

(٢) يسوطانه يضربان بعضه ببعض ويحركانه.

لقد كان محمد معصوماً عن المعاصي ظاهراً وباطناً، فعصمته ظاهراً بأن لا يأتيها، وعصمته باطناً بتطهيره من الحقد والحسد من أمراض القلب، وعملية شق الصدر واستخراج القلب، كانت، لاستخراج السوء منه، وهو أمر ضروري لتحقيق العصمة الداخلية. ولكن ألا يمكن أن يتحقق ذلك كله من غير شق الصدر؟! ألم يكن بالإمكان أن يأمر الله الغل والحقد والحسد والسوء كله بالخروج من قلب محمد بغير شق صدره؟! فلماذا كان شق الصدر.

وهنا نقول: إن شق الصدر كان أيضاً لتسليط الأضواء على شخص محمد تمهيداً لتسليمه القيادة ليحفظ الناس أن محمداً ليس كبقية الناس، وهم يعرفون ذلك عنه منذ نومة أظفاره، منذ أن كان مسترضعاً عند حليلة.

٩- وفاة أمه وكفالة جده ثم عمّه :

وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه، ينبتة نباتاً حسناً، لما يريد به من كرامته. فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه بالأبواء، بين مكة والمدينة، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تُزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة.

وكان موت أبوي رسول الله - وهو عليه الصلاة والسلام ما زال صغيراً - أضياعاً أخرى سلطها رب العزة على شخص رسول الله قبل استلامه دفة القيادة. وبوفاة أم رسول الله، انضم عليه الصلاة والسلام إلى أسرة جده عبد المطلب، ولقي في بيت جده كل تكريم أثناء إقامته فيه، حتى إنه كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له. فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جَفَر^(١) حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لشأناً! ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع. فلما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين توفي عبد المطلب - وذلك بعد الفيل بثمانين سنين - وانتقل الطفل محمد إلى بيت عمه أبي طالب، فلقي فيه كل تكريم أيضاً. وهنا لا بد لنا أن نلاحظ أمرين ملفتين للنظر:

(١) الجفر: الغليظ الشديد.

أولهما: تكامل يتم رسول الله ﷺ بموت أبيه، ثم موت جده، وهذا أمر ملفت للأنظار لهذا اليتيم، مثير للشفقة عليه، فالناس في مكة لا يفتأون يذكرونه لا لأنه يتيم الأبوين فحسب، بل لأنه جمع إلى اليتيم الذكاء الوقاد، وحسن التصرف، وكريم الأخلاق، والمظهر الموحى بالعظمة، وقوة الشخصية. كل هذا مما ينبه الناس ويلفت أنظارهم إلى هذا الطفل.

ثانيهما: مبالغة جده عبد المطلب في إكرامه، حتى إنه ليلعب على فراشه الممدود في ظل الكعبة، وفي حضرة كبار رجالات العرب وزعمائها، مع أن المعروف عن عبد المطلب أنه كان لا يسمح لأحد، حتى ولا لأحد من أولاده بالجلوس على فراشه. إن هذا أمر ملفت للنظر، يرافق جده ويجلس معه على فراشه في ظل الكعبة، وهو ما زال حدثاً، على مرأى من رجال العرب الذين يقصدون مكة من كل حذب وصوب ويجلسون مع زعيمها عبد المطلب. ولا بدّ من أن يتحدث هؤلاء القادمون والمقيمون معاً عن هذا الطفل الذي يجلس على فراش عبد المطلب في ظل الكعبة، وتلوك الحديث عنه ألسنتهم، وفي ذلك نشر لذكر محمد بن عبد الله في وقت مبكر يساعده في المستقبل على قيادة العرب.

١٠ - سيما العظمة في شخصه :

لقد كان التكوين الجسمي والنفسي لرسول الله ﷺ موحياً بالعظمة، ولذلك فإنه ما رآه أحد إلا تنبأ له بالشأن العظيم، وقد جرى ذلك على لسان جده عبد المطلب كما تقدم، وعلى لسان عمه أبي طالب، وعلى لسان العائفين^(١) الخبراء بدراسة الشخصية، فابن إسحاق يحدثنا أن رجلاً من بني لهب عائفاً كان إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم، فاتاه أبو طالب بمحمد - وهو غلام - لينظر إليه، فنظر اللهيبي إلى رسول الله ثم شغله عنه شيء، فلما فرغ قال: عليّ بالغلام - محمد - فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه فجعل ذلك العائف اللهيبي يقول: ويلكم ردوا عليّ الغلام الذي رأيت أنفاً، فوالله ليكون له شأن.

١١ - سفره مع عمه إلى الشام، وقصة بحيرا:

ولما كان سن رسول الله ﷺ ثنتا عشرة سنة خرج أبو طالب في ركب تاجراً إلى الشام، فلما

(١) العائف: هو الذي يتفرس في خلقة الإنسان فيخبر بما تؤول إليه حاله.

تهيأ للرحيل وأجمع المسير تعلق به رسول الله ﷺ فرق له أبو طالب وقال والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً، فخرج به معه، ونزل الركب مدينة بصرى، وكان في بصرى صومعة لا تخلو من راهب يصير إليه علم النصرانية من كتاب فيها يتوارثونه كابراً عن كابر - فيما يزعمون - وكان راهبها في تلك الآونة هو «بحيرا» - وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً. وذلك لشيء رآه وهو في صومعته، وذلك الشيء هو أنه رأى رسول الله ﷺ وهو في الركب حين أقبلوا، وغمامة تظله من بين القوم، ولما نزلوا في ظل شجرة قريباً منه، وجد الغمامة قد أظلت الشجرة، وتدلت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها - والله أعلم - فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحرّمكم.

فقال له رجل منهم: والله يا بحيرا إن لك لشأناً اليوم؟ فما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً! فما شأنك اليوم؟ قال له بحيرا: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم. فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم، لحدائثه، في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرفها ويجدها عنده، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلف أحد منكم عن طعامي. قالوا له: يا بحيرا، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سنّاً فتخلف في رحالنا. فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. فقال رجل من قريش مع القوم: واللوات والعزى، إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا! ثم قام فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرني عما أسألك عنه - وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بها - فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: «لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما» فقال له بحيرا: فبالله إلا ما أخبرني عما أسألك عنه. فقال له: سلني ما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيبته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته. ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني ، قال له بحيرا : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً . قال : فإنه ابن أخي . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به . قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . فأسرع به إلى بلاده .

ومهما يكن من أمر قصة بحيرا فإنها لم تترك أثراً في نفس رسول الله ، ولم يذكرها في يوم من الأيام ، ولم يطمح أن يكون زعيماً في قومه حتى نزل عليه الوحي فأسلمه دفعة القيادة ، ولكنها وجهت الأنظار إليه ، في بلاد الشام وألقت الأضواء عليه ، فالتاس يذكرونها ولا ينسونها أبداً .

١٢ - اتجاره بمال خديجة ونبوءة نسطورا :

كانت خديجة بنت خويلد الأسدية امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال ليخرجوا بتجارتها إلى البلاد البعيدة وتعطيهم على ذلك نسبة معينة من الربح ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج مع غلامها «ميسرة» في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار ، فقبل رسول الله ﷺ منها وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها «ميسرة» حتى قدم الشام . فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له «نسطورا» فأطل الراهب على ميسرة فقال : من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم . فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ! .

ونحن لا نشك بأن نسطورا هذا لن يكتف هذا الخبر بعد أن كشفه ، وأكبر الظن أنه سيذيعه ، ومن سمعه منه سيذيعه أيضاً ، وهذه مساهمة جديدة في إلقاء الأضواء على محمد الذي سيتولى قيادة الأمة عما قريب .

وباع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشتري ، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ، فكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلاله من الشمس وهو يسير على بعيره ، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فربح المال ضعفه أو قريباً ، وأخبر ميسرة خديجة ما رآه من خلق محمد ونظافة مسلكه ، وبما رآه أيضاً من إطلال الملائكة له ، وبما سمعه من قول الراهب «نسطورا» فوقع ذلك في نفس خديجة موقعاً .

١٣ - نبوءة ورقة بن نوفل - نبوءة ورقة بن نوفل :

وحملت خديجة إلى ورقة بن نوفل - وكان ابن عمها . وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس - ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب نسطورا ، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلاله ، فقال ورقة : لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي يُنتظر ، هذا زمانه . وهذا ضوء جديد يسלט على محمد الذي سيتولى قيادة هذه الأمة عما قريب .

١٤ - زواج رسول الله محمد بخديجة :

وقع حديث ميسرة ونبوءة ورقة في نفس خديجة موقعه ، وكانت خديجة امرأة عاقلة حازمة لبية شريفة فطمحت أن تكون الزوجة المخلصة لذلك الرجل العظيم ، تشاطره شرف حمل الرسالة ، وتعينه عليها ، فاستدعته فقالت له : يا ابن عم ، إني قد رغبت فيك لقرابتك وسِطتك^(١) في قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك . ثم عرضت عليه نفسها ، وكانت خديجة يومئذ أشرف نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالاً ، وكان كل رجل من قومها حريصاً على الزواج منها لو يقدر عليه . ولم يكن عيباً عند العرب قبل الإسلام ، ولا في الإسلام ، أن تعرض المرأة نفسها أو يعرضها وليها على الرجل الكفء الصالح ليكون لها زوجاً ، فهذه خديجة وكثيرات من النساء عرضن أنفسهن على رسول الله ، وعرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر ثم على عثمان . وتلك عادة حسنة يا حبذا لو أخذ الناس بها اليوم ، بل نقول : لو عقل الناس اليوم لجدوا في خطبة الرجال الصالحين الأكفاء لبناتهم أكثر من جدهم في خطبة المرأة المناسبة لبنينهم ، لأن القومة في البيت للرجل ، فيلزم أن يكون القيم كفتاً صالحاً ليكون البيت سعيداً .

ولما عرضت خديجة على رسول الله ما عرضت من الزواج منها ذكر رسول الله ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمه « حمزة » حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه ، فتزوجها رسول الله ﷺ ، وكانت أول امرأة تزوجها ، وجعل صداقها عشرين ناقة ، وكان عمر خديجة آنذاك أربعين سنة ، وعمر رسول الله خمساً وعشرين سنة ، فولدت لرسول الله أولاده كلهم ذكورهم وإناثهم إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية .

(١) السطة : الشرف .

ولو أمعنا النظر في حكمة الله تعالى في هذا الزواج لوجدنا أن رجلاً سيخوض غمار حرب نفسية وجسدية شرسة ضد أعدائه لا بد من أن تكون بجانبه زوجة تشد أزره وتقوي عزيمته وتفسح الأمل بالمستقبل أمام ناظره، لا زوجة تشيع في نفسه الخور والضعف. ولم يتزوج رسول الله في حياة خديجة امرأة غيرها لأمرين اثنين:

الأول: تقديرًا منه صلوات الله وسلامه عليه لجهاد خديجة، ونفثها روح الصمود في نفسه.

الثاني: لم تكن هناك أية حاجة للدعوة الإسلامية لأن يعدد رسول الله الزوجات فالمرحلة التشريعية التي تقتضي تعليمها للناس والتي كان قسطاً كبيراً منها يطبقه رسول الله في بيته وأحسن مبلغ لها وناقل هم الزوجات اللاتي يعشن مع رسول الله في بيته ويعلمن أحوالها، هذه المرحلة لم تبدأ بعد، والعداء بين رسول الله وخصومه هو محصور في قريش لم يخرج عنها إلى غيرها من قبائل العرب بعد.

١٥ - الحكمة من تعدد زوجاته:

ولكن بعد وفاة خديجة وهجرة رسول الله من مكة إلى المدينة، بدأت مرحلة جديدة في حياة الدعوة، هذه المرحلة تطلبت أن يكون للرسول العديد من الزوجات، وبذلك يمكننا حصر الحكمة من تعدد رسول الله الزوجات - مع أنه عبء ثقيل على كل رجل لصعوبة التوفيق بينهن، وعلى رسول الله خاصة لما عرف عنه من الفقر وضيق ذات اليد - يمكننا حصر الحكمة من ذلك في ثلاثة أمور:

الأول: طالما أن حياة رسول الله الخاصة والعامة كلها مثال يجب على كل مسلم أن يحتذيه، فهي سنة لا يجوز التفريط بها عملاً بقوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾^(١) ولما كان أعلم الناس بحياة الرجل الخاصة هم زوجاته، تطلب هذا أن يكون لرسول الله من الزوجات ما يؤمن مصلحة نقل وتبليغ حياة رسول الله الخاصة للناس، والإشراف على تنظيم الدعوة بين صفوف النساء.

الثاني: إن المستقرىء لأوضاع زوجات رسول الله يجد أن كل واحدة منهن تفرق عن باقي الزوجات، فمنهن الصغيرة التي لا تزال تعكف على ألبابها، والعجوز الكبيرة، ومنهن

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

ابنة أعدى أعدائه، وأصدق أصدقائه، ومنهن من كانت هوايتها تربية الأيتام . . . إنهن نماذج لأفراد الإنسانية، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ قدم لأصحابه وللمسلمين تشريعاً رائعاً يعلمهم كيف يتم التعامل الناجح مع كل أنموذج من النماذج البشرية .

الثالث: إنه ما إن أعلن رسول الله ﷺ إقامة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة حتى ناصبته قبائل العرب العداء، ولم يعد أمر هذا العداء قاصراً على قريش كما كان الحال في مكة، بل أصبح عاماً أو شبه عام بين قبائل العرب، فرأى رسول الله ﷺ أن من الحكمة أن يجمد بعض أطراف العداء، ولما كان العرب يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن حماية من يتزوج منهم، كما تفيد ذلك لغتهم إذ يسمون أنفسهم بالأحماء - من الحماية - فقد سعى رسول الله ﷺ للزواج من قبائل شتى لتجميد أو تخفيف عدائها .

فزواج رسول الله ﷺ كان لمصلحة عليا تقتضيها مسيرة الدعوة وتوطيد أركان الدولة . وهكذا برهن رسول الله ﷺ أنه السياسي المحنك كما هو النبي الموحى إليه . ولكن لما كانت هذه المصلحة يمكن أن تستغل أسوأ استغلال نظراً لأن الأمور الجنسية تتبعها النفوس لاهثة، فقد جعل الله ﷻ ذلك خاصاً برسول الله ﷺ، وحُدَّ عدد الزوجات لغيره بأربع يجوز أن ينقصن ولا يجوز أن يزدن على ذلك إذا اجتمعن . ويحلوا لبعض المتأمرين على الإسلام أو الجهلة المغفلين الطعن على الإسلام لإباحته تعدد الزوجات . ونحن إجلاء للحقيقة نقول: إن الطعن على الإسلام لإباحته تعدد الزوجات هو جزء من مؤامرة طويلة عريضة التقت للتعاون على تنفيذها دولتان كبيرتان هما أمريكا وإنكلترا وأنشئت لذلك الجامعات، منها: الجامعة الأمريكية في بيروت وفي الإسكندرية، وأرسلت البعثات التعليمية التي لا تعد ولا تحصى تفتح المدارس في طول البلاد الإسلامية وعرضها، وتمر هذه المؤامرة بثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة التشكيك بصلاحيّة مبادئ الإسلام وقيمه، ومن ذلك نظام تعدد الزوجات، والطلاق، وتحريم الربا . . .

المرحلة الثانية: مرحلة النبذ لهذه القيم والمبادئ بعد أن يرسخ الإيمان بعدم صلاحيتها .

المرحلة الثالثة: مرحلة الطرح، حيث يطرح هؤلاء المتأمرين المبادئ والقيم البديلة عن قيم الإسلام ومبادئه .

وسبب هذه المؤامرة أنه تأكد لدى هذه الدول أنه لا يمكنها السيطرة على بلاد

المسلمين وخيراتهما ما دام المسلمون متمسكون بدينهم الذي يغرس فيهم العزة ورفض كل ولاية غريبة عنهم. يقول عليه الصلاة والسلام: «لا ولاية لكافر على مسلم». ولاحكام السيطرة على هذه البلاد لا بد من ردم قيم الإسلام وغرس قيم تخدم مصالحها مكانها. وتسهيلاً للوصول إلى هذا الهدف لا بد من تحقيق أمرين اثنين:

الأول: نشر الرذيلة بين صفوف المسلمين وعلى رأسها الجري وراء النساء ومعاقرة الخمرة، وفي ذلك يقول قائلهم: «كأس وغانية يفعلان في الأمة المحمدية ما لا يفعله ألف مدفع». ويسهم في انتشار الرذيلة إلى حد كبير وجود كثير من النساء اللاتي لا يجدن من يحصنهن بالحلال، ولما كان عدد النساء في العالم يفوق عدد الرجال فإن إقصاء نظام تعدد الزوجات عن الساحة سينتج عنه جيش من النساء اللاتي لا يجدن من يحصنهن وبذلك تنتشر الرذيلة وتحقق أهداف المتأمرين.

الثاني: وضع حد لهذا الانفجار السكاني في العالم الإسلامي، إذ أن سكان العالم الإسلامي يزدادون بنسبة مقلقة، بينما يعاني الغرب عموماً من نقص السكان، وازدياد السكان يعني تفجير طاقات أكبر في المجتمع، وهذا أمر مخيف لهم، فإذا ما جمد عدد من النساء عن الإنتاج - أعني عن الإنجاب - لأنهن لا رجال لهن، أمكن التخفيف من حدة هذا الانفجار، وإقصاء نظام تعدد الزوجات عن الساحة يحقق ذلك.

١٦ - بروز رسول الله في بناء الكعبة :

كانت الكعبة حجارة منصودة من غير ملاط بينها، وكانت العرب تهاب هدمها لإعادة بنائها، وبقيت كذلك إلى أن حدث سيل عظيم أتى فوق الردم الذي صنعوا، فخربه، وخافوا أن يدخلها الماء، فعزموا على هدمها، وبنائها من جديد. وحدث في تلك الآونة أن البحر قد رمى بسفينة لرجل من تجار الروم إلى جدة، فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبضي نجار، وبذلك تهيأت الأسباب لبنائها. فلما أجمعوا أمرهم لهدمها وبنائها قام «أبو وهب بن عمرو بن عائز بن عبد بن عمران بن مخزوم» فتناول من الكعبة حجراً - زعموا - أنه وثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً، ولا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

ومهما يكن من أمر ذلك فإن في هذه القصة روايب تصرخ بالإنسان: إن الفضيلة هي ملاذك فلذبها قبل فوات الأوان..

لما كان بناء الكعبة شرفاً ما بعده شرف ، فإن قريشاً أحبت ألا يستأثر بهذا الشرف أحد دون أحد ، ولذلك فإنها وزعت العمل في بناء الكعبة على الشكل التالي :

أن يكون بناء شق الباب لبني عبد مناف وبني زهرة ، وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبني جُمَح وسهم ، وشق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى ، ولبني عدي بن كعب .

ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبذركم في هدمها . فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : «اللهم لم نزع! اللهم لا نريد إلا الخير» ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا : ننظر ، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله صنعنا ، فهدمنا . فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس ، أساس إبراهيم عليه السلام ، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة أخذ بعضها بعضاً . ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الحجر الأسود ، فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوّزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، ولكنهم لم يلبثوا أن تصالحوا على تحكيم أول من يدخل من باب هذا المسجد ، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ : «هلم إليّ ثوباً» فأثني به ، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال : «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً» ، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ثم بنى عليه .

فتوجهت الأنظار إلى محمد ، ولهج الناس بذكره ، واعتبروا ذلك دليلاً على سعة مداركه وسرعة تصرفه بحكمة في الأزمات ، وهو ميدان أولي العقول الراجحة . فكان ذلك رصيذاً له يفيد في المستقبل عندما يدعو الناس إلى الله ويتسلم عصا القيادة في دولة الإسلام .

والجددير بالذكر أن قريشاً قصرت همتها عن بناء الكعبة على قواعد إبراهيم ، فقصروها من جهة حجر إسماعيل ، ولذلك فإن الطائف بالكعبة اليوم عليه أن يدخل حجر إسماعيل في طوافه لأنه من الكعبة . ولم يجد رسول الله ضرورة لهدم الكعبة من جديد - بعد أن تم له الأمر في مكة - لأن الكعبة لم تعد حسب التعاليم الإسلامية حَجَرًا وَطِينًا ، بل أصبحت رمزاً لوحدة المسلمين صقلاً وهدفاً .

١٧ - إخبار الأحبار والرهبان والكهان بقرب ظهوره :

كانت الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى كما تقدم في خبري بحيرا ونسطورا، والكهان من العرب، قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه نظراً لقرب زمان مبعث نبي، أما أخبار الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فسندها ما ورد في كتبهم المقدسة وشروحها من بيان اسم النبي المنتظر وصفته وزمان بعثته ومكان مبعثه^(١)، وقد تم هذا البيان لأن الله تعالى أخذ العهد على الأنبياء وأتباعهم أنهم إذا ما بُعث النبي المنتظر «محمد» ليؤمنن به ولينصرنه قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾^(٢) ولذلك كان لا بد من هذا البيان حتى لا يقصّر أتباع الأنبياء بواجبهم تجاه هذا النبي المنتظر. أما أخبار كهان العرب فسندها ما رده أحبار اليهود ورهبان النصارى، إضافة إلى ما حكوه من انقطاع الشياطين عن إمدادهم بالمعلومات بسبب رجمهم بالنجوم كلما حاولوا استراق السمع.

ولقد قوى ودعمه ما جرى لرسول الله من الحوادث التي أتينا على ذكر طائفة منها، والتي كانت بشارات بنبوته عليه الصلاة والسلام.

(١) انظر إنجيل برنابا فصل ٣/٤٢ فما بعدها، وفصل ٢٥/٤٣ فما بعدها، وفصل ٢٧/٤١ فما بعدها. وانظر إنجيل متى ١٧/٤ بدلالة ٣١/١٣ وما بعدها: ودلالة الآية القرآنية: ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع﴾ [سورة الفتح، الآية ٢٩].

وانظر أيضاً إنجيل متى ٦١/٢٠ بدلالة قول الرسول ﷺ «نحن الآخرون السابقون». وانظر أيضاً إنجيل متى ٤٢/٢١ - ٤٤ بدلالة ما جاء في العهد القديم سفر المزامير ٢٢/١٨ - ٢٣ وبدلالة ما جاء في العهد القديم سفر التكوين ٢١ - ٩ - ٣١ وسفر التثنية ١٥/٨ - ٢٢. وانظر العهد القديم - التوراة - سفر دانيال ٣١/٢ - ٤٥ فإنه يحدد الزمن الذي يظهر فيه النبي محمد ﷺ.

وإن أحببت أن تطلع عليه مفصلاً وعلى بشارات الكتب السماوية برسالة سيدنا محمد ﷺ فارجع إلى كتابنا «من روح القرآن» ص ١٣٥ وما بعدها من الطبعة الأولى. وإلى كتابنا «محمد في الكتب المقدسة». وإلى كتابنا «العقيدة الإسلامية في مواجهة المذاهب الهدامة».

وإذا أردت معرفة أقوال الأحبار والرهبان والكهان في ذلك فارجع إلى كتاب دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، بتحقيقنا.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٨١.

الخلاصة

إن الله تعالى تكفل بنشر اسم محمد ﷺ وإلقاء الأضواء عليه منذ سن الطفولة كشخصية مؤهلة للقيادة، ففي مكة: ألقى الله تعالى عليه من الأضواء ما جعل الأنظار كلها تتوجه إليه وكان من هذه الأضواء: سهولة حمله وسهولة ولادته، وكونه ابن الذبيح عبد الله الذي فدته قريش بمائة من إبلها، ويتمه، وتصرفه الرشيد في تفادي الصدام بين قبائل العرب حينما اختلفوا في أي القبائل سيضع الحجر الأسود مكانه في جدار الكعبة. وغيرها.

وفي البادية: حينما صار حديث ظهور البركة والرخاء في بيت حليلة السعدية على كل لسان، وما كان من حادثة شق صدره عليه الصلاة والسلام.

وفي بلاد الشام: عندما صرح الراهب بحيرا والراهب نسطورا بما صرّحاه به.

وفي العرب قاطبة: بتسميته بهذا الاسم النادر «محمد» وبجلوسه على فراش جده عبد المطلب - سيد قريش - في ظل الكعبة بحضرة رجالات العرب وزعمائها، وبما توسم به ناظروه من الخير، كعائف بني لهب وغيره.

الباب الثاني

تسليم القيادة وبدء العمل لتجميع القوى

لإقامة دولة الإسلام

ويشتمل ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تسليم محمد القيادة

المبحث الأول : إعداد محمد لتسليم القيادة

المبحث الثاني : تسليم محمد القيادة

الفصل الثاني : تجميع القوى وإعداد القوى الشعبية

الفصل الثالث : العمل على إيقاف المد الإسلامي

تسلم محمد القيادة

ستكلم في هذا الفصل في مبشرين :
المبحث الأول : إعداد محمد لتسلم القيادة .
والمبحث الثاني : تسلم محمد القيادة .

المبحث الأول : إعداد محمد لتسلم القيادة

كان لا بد من إعداد محمد ﷺ إعداداً خاصاً - فضلاً عما فطره الله عليه من الخلال الحميدة - لاستكمال أهليته لتسلم القيادة بكل جدارة، ويتمثل هذا الإعداد في أمور منها :

١ - رعيه الغنم :

لقد عمل رسول الله ﷺ - عندما اشتد عوده - برعي الغنم، فكان يخرج بأغنامه إلى المرعى ويعيش في أحضان الطبيعة الجميلة الهادئة الموحية، فلا يقع بصره إلا على بديع خلق الله الذي لا أثر ليد الإنسان فيه، فيتأمل . . . ويفكر . . . فيكون مردود تأمله وتفكره صفاء في النفس، وشفافية بالروح، ومسحة صادقة من الإيمان . . . يعيش طيلة يومه مع أغنامه، فيرد الشارد منها إلى الجماعة، وليعلمها برفق الطاعة، ويحرسها من الذئب الطاغوي الظالم . . . يرتحل بها عن مواقع الجذب، ويوردها موارد الخير والرخاء . . . تماماً . . . تماماً . . . كما يفعل القائد البارّ بشعبه .

٢ - توسيع آفاقه بالسفر :

لقد سافر محمد ﷺ إلى بلاد الشام مع عمه أبي طالب، ثم سافر بتجارة خديجة إلى بلاد الشام أيضاً، وأقام في كل مرة مدة في تلك البلاد، اطلع فيها على أحوال العباد والبلاد، ورأى نماذج من الناس يختلفون عن الناس الذين يراهم في الحجاز .

وكان هذا التعرف أمراً لا بد منه ، لأن محمداً لن يكون قائداً لأهل الحجاز وحدهم ، بل سيكون قائداً لجميع الأمم ، فكان لا بد من أن يتعرف على نماذج منهم .

٣ - الرؤيا الصادقة :

وعندما قرب عهد تسلم محمد القيادة - البعثة - بدىء بمحمد بالرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى في نومه رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

والرؤيا الصادقة تزيد ثقة بنفسه ، خاصة في ذلك الوقت الذي كانت الرؤى فيه تلعب دوراً خطيراً في حياة الناس وتصرفاتهم ، فنحن لا نزال نذكر أن جدّ رسول الله لما رأى في منامه أن يحفر زمزم أقبل على تنفيذ ما رآه في منامه دون تردد .

٤ - تسليم الشجر والحجر عليه :

يذكر لنا ابن إسحاق أنه لما قرب عهد البعثة النبوية كان رسول الله إذا خرج إلى الفضاء أو إلى شعاب مكة وبطون أوديتها لا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، فالتفت الرسول حوله وعن يمينه وعن شماله وخلفه فلا يرى أحداً . وروى الإمام مسلم في صحيحه والترمذي في سننه عن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن بمكة حجراً كان يسلم عليّ ليالي بعثت ، إني لأعرفه الآن» .

٥ - الخلوة بنفسه :

كانت عبادة الحنيفيين من العرب خلوة بالنفس وتأمل بآلاء الله ، ولما قرب عهد تسلم رسول الله القيادة ، حُبب لرسول الله الخلوة بنفسه ، فكان يخرج إلى غار حراء - ذلك المكان المرتفع المشرف المنقطع عن الناس ، حيث الهدوء المساعد على التأمل ، والإشراف على الجبال والوديان ، فيخلو فيه في كل سنة شهراً يصفي نفسه من كل غل وحقد وحسد وضغينة ، ويسمو بروحه بعيداً عن الأصنام وجوّها الخائق ، ويعيداً عن صخب المدينة بكل ما فيها من تسلط الأقوياء على الضعفاء ، واحتيال الأذكياء على الأغبياء ، ونصب الشراك ليسقط فيها كل سليم القلب . . . ، فإذا ما انتهت خلوته نزل من غار حراء إلى الكعبة المشرفة ، فطاف فيها ما شاء الله له أن يطوف ، ثم ينصرف إلى بيته .

إن هذه الخلوة كان لا بد منها لرسول الله الذي سيستلم القيادة عما قليل، حيث تصبح القوة والسلطان بيده، قوله هو الفصل، وكلمته هي النافذة، ورجل هذا شأنه، كان تطهير قلبه من كل غل وحقد وضغينة أمر لا بد منه، ليكون أبعد ما يكون عن الحقد على شعبه، وليعامله بالرحمة أكثر من معاملته له بالسلطان، . . . ليقبل من المحسن منهم إحسانه، وليتجاوز عن المسيء، ولذلك أرشد الله رسوله إلى ممارسة هذه الرياضة الروحية قبل توليه القيادة، ليكون بالناس رؤوفاً رحيماً من اليوم الأول الذي يستلم فيه القيادة.

فهل يدرب حكام اليوم في الكليات الملكية بمثل هذه الرياضة، أم يعلمون كيف تُلبس مُسوحُ الحُمْلان لقلوبِ الذئاب؟؟

المبحث الثاني: تسلم محمد القيادة

ما إن تم إعداد محمد ﷺ لتسلم القيادة حتى سلمت إليه هذه القيادة، وكان المعدلُ، والمسلم إليه القيادة هو رب العزة جل جلاله، وهو سبحانه أعلم بالناس وبقدراتهم التي أوجدها فيهم ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾^(١).

ولم يكن تسليم محمد القيادة في حفل من الناس، بل كان في رأس جبل منعزل، لأن هذه القيادة لا يراد بها الجاه في الأرض بقدر ما يراد بها الرضوان من الله، ولا يبغي بها السيادة على الناس بقدر ما يبغي بها العبودية لله تعالى، ولا يلحظ فيها جانب الإشهاد بقدر ما يلحظ فيها جانب الإخلاص. ويمكننا أن نجمل الروايات التي وردت في كيفية تسلم محمد ﷺ القيادة بما يلي:

بينما كان رسول الله ﷺ بين النائم واليقظان في غار حراء إذ حضر عليه رجل معه كتاب ملفوف بقطعة من الديباج ففتحها وقال له: اقرأ فقال رسول الله ما أقرأ، فضمه إليه ضمة شديدة ثم تركه وقال له: اقرأ، فقال رسول الله ما أقرأ، فضمه إليه ضمة شديدة، ثم تركه فقال له: اقرأ، فقال له رسول الله: ماذا أقرأ؟ فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾^(٢).

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢٤.

(٢) سورة العلق، الآيات ١ - ٥. نلاحظ أن في هذه الآيات - وهي أول آيات نزلت - تنويهاً بالعلم وهنا لا بد لنا من أن نطرح على أنفسنا هذا السؤال: لماذا كان الإعداد النفسي والروحي =

فقرأها رسول الله ؛ وانصرف عنه الرجل ، وهب رسول الله ﷺ وكأنما نقضت في قلبه . وخرج رسول الله إلى خارج الغار فسمع صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فرفع بصره إلى السماء فإذا جبريل في صورة رجل . . . فرجع رسول الله إلى أهله ، ولاحظت زوجته خديجة آثار التغير على وجهه فسألته عما به ، فقص عليها القصة ، فقالت له : أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

قالت السيدة خديجة ذلك استناداً إلى ما ذكر من بشارة ابن عمها ورقة وإلى ما حدثها به غلامها ميسرة لما رآه من الإرهاصات أثناء رحلته مع رسول الله في تجارة خديجة إلى بلاد الشام . ثم قامت خديجة فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمها ، وكان ورقة تنصّر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قدّوس قدّوس ! والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدّقني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر^(١) الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقول لي فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة وعاد رسول الله إلى الغار ثانية ليمّ جواره فيه . فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف ، صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة ، فلقى ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة ، فقال : يا ابن أخي ، أخبرني بما رأيت وسمعت . فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال له ورقة : والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ، لقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، ولتكدّبته ، ولتؤذّيته ، ولتخرجنّه ،

= لرسول الله ﷺ سابقاً لإعلان الشعار الأول للعلم «اقرأ...»؟ أليس في ذلك إشعار بأن التربية يجب أن تسبق العلم ، وأن العلم إن لم تسر معه الأخلاق جنباً إلى جنب من أول خطوة انقلب إلى أداة تدمير وبلاد مستطير على الإنسانية كلها ، وها نحن اليوم نشاهد آثار ذلك في عصرنا عندما خبطت العلوم خطوة أوسع من خطوة الأخلاق ففارقتها ، فحمل العلم طائراته بالقنابل المدمرة لتلقى على شعب آمن لا أثر للعدوان في قلبه ، لا شيء إلا لأن في أرضه خيرات . ولذلك اقتضت حكمة الله أن تصفى نفس رسول الله بريضة روحية موجهة قبل أن تنزل عليه ﴿اقرأ﴾ وليكون هو ولتكون أمته من بعده العالم الباني الحاني ، لا العالم المدمر . وكان ذلك صوتاً يصرخ في المسؤولين عن وزارات التعليم : ليكن اهتمامكم بالأخلاق أكبر من اهتمامكم بالعلم ، لأن العلم لا يحمل رسالته الإنسانية إلا بالأخلاق .

(١) يريد به : جبريل عليه السلام .

وَلْتَقَاتَنَّ^(١)! ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرون الله نصراً يعلمه! ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

تلك سنة الله تعالى في أنبيائه والدعاة إليه، يسلط عليهم الأذى حتى لا يقتحم ميدان الدعوة دعي ولا كاذب، ولا يحمل لواءها إلا مخلص، ولو ترك الناس لدعاواهم لادعى النبوة، وحمل رسالة الأنبياء أناس ليسوا بمؤمنين، ولكنهم إن عرفوا أن طريق الدعوة محفوف بالمكاره لابتعدوا عنه، ولم يركبه إلا مخلص صادق.

فترة الوحي :

ثم انقطع الوحي عن رسول الله ﷺ حتى شق ذلك على رسول الله وأحزنه، وفيما هو يسير في الطريق رفع بصره إلى السماء وإذا جبريل على خلقته التي خلقه الله عليها على كرسي بين السماء والأرض، فخاف رسول الله وهرع إلى أهله، قائلاً زملوني دثروني، وما هي إلا برهة حتى أنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر *...﴾^(٢). ثم أنزل تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾^(٣)، فكانت هذه الآيات أمراً لرسول الله ﷺ بتجميع القوى وإعداد القواعد الشعبية المؤمنة لإقامة دولة الإسلام.

(١) الهاء في هذه الأفعال كلها هي: هاء السكت.

(٢) سورة المدثر، الآيات ١ - ٤.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

الفصل الثاني

تجميع القوى وإعداد القواعد الشعبية

ما إن نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ حتى انطلق رسول الله ﷺ إلى أقرب الناس إليه وألصقهم به يدعوهم إلى الله بسرّية تامة يكون القاعدة الشعبية المؤمنة للدولة الإسلامية المرتقبة، ويرسي في صدور هذه القاعدة الإيمان بالمبادئ والأهداف التي ستقوم من أجلها هذه الدولة. وتعتبر هذه السرية في التحرك بين الأفراد الذي فرضته هذه الآية فريضة أخرى لثلا يقهر الداعي والمدعوون قبل إدخالهم مبادئ الدعوة إلى الصدور، ولتعلن الدعوة يوم تعلن ومعها عشرات الأصوات مؤيدة لها ومنافحة عنها، فهي تعلن وقد سارت في مدارج القوة... ومستقبلها حين تعلن وقد سارت في مدارج القوة خير ألف مرة من أن تعلن وهي في مهد الضعف. جعل رسول الله يصطفي من يدعوهم إلى الإيمان، فما كانت الدعوة ومبادئها تمس أسمع هؤلاء الذين اصطفاهم رسول الله حتى يقبلوا عليها، ويأخذوا بها، وتصبح لهم أمّاً وأباً.

١ - دعوة الرسول أهل بيته:

أعلم الناس بالرجل أهل بيته، وهو إن استطاع أن يخفي عنهم الكثير فلن يستطيع أن يخفي عنهم سلوكه الشخصي والديني خاصة إذا كان حامل دعوة. وأكثر الناس عوناً للرجل وتبنيّاً لخطواته هم أهله، فإذا ما كانوا معه سار بثبات واطمئنان. ولذلك كان أول من اختاره رسول الله - بأمر من الله - للدعوة هم أهل بيته. فدعا رسول الله ﷺ زوجته خديجة فكانت أول من آمن به وآزره، وهوت عليه أمر الناس، وأعظمت له عمله في اقتلاع الأشواك من المجتمع الذي يموّر بالفساد ليزرع مكانها الورود والرياحين، فما أصابه أمر من أمر الدعوة فدخل إليها إلا خرج من عندها مطمئناً، وهو أمضى عزيمة وأفوى شكيمة، ولذلك استحقت أن يشرها الله تعالى في الجنة بيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب^(١).

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، والقصب: اللؤلؤ المنحوت.

وكان علي بن أبي طالب يعيش مع رسول الله في بيته، وذلك أن قريشاً كان قد أصابتهم شدة، وكان أبو طالب - والد علي بن أبي طالب وعم رسول الله ﷺ - كثير العيال، فقال رسول الله لعمة العباس - وكان رجلاً ميسور الحال - يا عم إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من الشدة فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله، فأخذ أنا رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفهما عنه، فقال العباس: نعم، فانطلقا إليه، فأخذ رسول الله علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرأ فضمه إليه، وهكذا عاش علي في بيت رسول الله، ولما بعث رسول الله بالرسالة وأمره الله أن ينذر عشيرته الأقربين، عرض رسول الله الإسلام على علي بن أبي طالب فأمن به وصدقه.

وكان زيد بن حارثة يعيش مع رسول الله في بيته، وذلك أن حكيم بن حزام قدم من الشام برقيق، فيهم زيد بن حارثة، فدخلت عليه عمته خديجة زوجة رسول الله ﷺ فقال لها: اختاري - يا عمة - أي هؤلاء الغلمان شئت، فهو لك، فاختارت زيدا، فأخذته فرآه رسول الله عندها، فاستوبه منها، فوهبته إياه، فأعتقه وتبناه، فلما بعث رسول الله بالرسالة دعاه إلى الإسلام، فأمن به زيد وصدقه.

وكانت الصلاة أول فريضة عملية فرضت على رسول الله ﷺ، فكان رسول الله يخرج ويخرج معه علي بن أبي طالب فيصليان خفية، فأبصر أبو طالب بهما - يوماً - وهما يصليان، فقال لرسول الله: ما هذا الدين الذي تدين به يا ابن أخي؟ فقال رسول الله: أي عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أنبياء إبراهيم، بعثني به الله رسولاً إلى العباد، وأنت يا عم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه، فقال أبو طالب: أي ابن أخي إنني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت.

٢ - دعوة الرسول لأصدقاءه المقربين :

كان أبو بكر الصديق من أخلص أصدقاء رسول الله ﷺ، وكان رجلاً وجيهاً مؤلفاً لقومه، محبباً، سهلاً، كريم الخلق والمعشر، وكان أعلم قريش بتاريخ قريش وأحوالها، وكان تاجراً، وكان قومه يأتونه ويجلسون إليه لعلمه وتجارته وحسن مجالسته. فدعاه رسول الله إلى الإسلام فأمن به وصدقه.

وإن نظرة فاحصة إلى الدعائم الأولى التي توجه إليها محمد بالدعوة أول ما توجه - وهم: أبو بكر: رجل سيد في قومه، وامرأة هي خديجة، ومولى هو زيد بن حارثة، وصبي هو علي بن أبي طالب - لتدلنا على أن هذا الإسلام قد جاء للناس كافة، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وسيدهم ومولاهم، وإن الجميع مدعوون لحمل رسالة الإسلام وإبلاغها الناس، وإن الدولة الإسلامية المرتقبة سَتُظِلُّ جميع الفئات بظل واحد ينعمون فيه بالعدل السماوي في الأرض.

ونشط هذا الرعيل الأول من المسلمين بالدعوة إلى الله، وتجميع الناس على كلمة التوحيد ليكونوا البناة الأول لدولة الإسلام، فأسلم بدعائهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله. ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن مظعون وأخوه قدامة وعبد الله، وعبيد بن الحارث وسعيد بن زيد بن عمرو، وامراته فاطمة أخت عمر بن الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر، وعائشة بنت أبي بكر وهي يومئذ صغيرة، وخَبَّاب بن الأَرْت، وعُمَيْر بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، ومسعود بن القاريء، وسَلِيط بن عمرو، وعَيَّاش بن أبي ربيعة، وأسماء بنت سلامة، وخُنَيْس بن حذافة، وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد، وجعفر بن أبي طالب، وامراته أسماء بنت عُميس، وحاطب بن الحارث، وامراته فاطمة بنت المجلل، وأخوه حطَّاب، وامراته فُكَيْهة بنت يسار، ومعمار بن الحارث، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطلَّب بن أزهري، وامراته رملة بنت أبي عوف، والنخام واسمه نعيم بن عبد الله، وعامر بن فُهَيْرَة، وخالد بن سعيد ابن العاص، وامراته أمينة بنت خلف، وحاطب بن عمرو، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وواقد بن عبد الله، وخالد وعامر وعافل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل، وعمار بن ياسر، وصُهَيْب بن سنان الرومي.

ثم دخل في الإسلام جماعات من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث بأمر محمد وبالمبادئ التي أتى بها الناس. فكانت هذه القاعدة الشعبية هي التي تشد أزر محمد، تؤمن بما جاء به، وتصدق به بما يقول، وتجادل عنه المشركين.

٢٠-١ العرب

٤ - دعوة رسول الله الناس جميعاً:

لما اجتمع هؤلاء الناس على رسول الله يصدقونه ويشدون أزره، وتكونت لديه هذه

القاعدة الصلبة بما قر في صدورهما من الإيمان وبما أضاء في عقولهما من نور الحق، أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يدعو الناس جميعاً إلى الإيمان به والانضواء تحت لوائه، وأنزل عليه قوله جل شأنه: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾^(١). فخرج رسول الله إلى الناس يدعوهم إلى التوحيد، ويبين لهم فساد عقائدهم وفساد ما هم عليه من الأعراف والنظم. وما كان لرسول الله ﷺ أن يسكت على انحرافهم، لأنه لا يجتمع في قلب واحد عقيدتان، فالمرء إما أن يكون مسلماً يدين بكل جزئية من جزئيات هذا الإسلام وينكر ما سواها، وإما أنه كافر وذلك حين يؤمن ببعض الإسلام ويكفر ببعضه، أو يؤمن به عقيدة وبغيره نظاماً.

وموقف رسول الله هذا يعطينا درساً في الدعوة هو: أنه لا يجوز أن يكتفى بعرض عقيدة الإسلام ونظامه فحسب، بل لا بد من بيان زيف العقائد والأنظمة المغايرة له.

ويعطينا درساً آخر أيضاً وهو: أن علينا أن نبدأ بالهجوم على العقائد والأنظمة الفاسدة، ولا يجوز لنا أن ننتظر حتى تهاجمنا لئلا نرد عليها، وهنا قد بدأ رسول الله ﷺ - وهو المعلم الأول - بالهجوم على عقائد الجاهلية غير منتظر حتى تهاجمه ليرد عليها، إذ علينا أن نعلم أن الهجوم يمنع الهجوم. وقد نجح رسول الله ﷺ بهذا، إذ أخذ عدد المسلمين يزداد يوماً بعد يوم رغم ما يتعرضون له من الأذى والاضطهاد.

(١) سورة الحجر، الآية ٩٤.

العمل على إيقاف المد الإسلامي

لقد راع قريشاً ذلك المد الإسلامي النشط، فقد كان الإسلام يمتد بين الناس سرعة امتداد النار في الهشيم، يحرق كفرهم ويزرع في رماذه ورود الإيمان، فعملوا جاهدين وبكل وسيلة لإيقاف هذا المد:

١ - المفاوضات غير المباشرة

(أ) توسط أبي طالب لإسكات محمد:

لقد كانت قريش تعلم أن رسول الله عند أبي طالب بمكان، وأبو طالب عند قريش بمكان أيضاً، فرأوا من الحكمة أن يوسطوا أبا طالب لعله ينجح في إيقاف هجوم محمد ﷺ على عقائد المشركين وبيان زيفها، فسعوا إلى أبي طالب وقالوا له: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه! فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه.

(ب) تهديد أبي طالب:

لا نشك في أن رسول الله قد علم بتوسط قريش عمه أبا طالب ليسكت صوته المدوي بالحق، ولكن متى كان الحق يخضع للوساطة خاصة إذا كان حامله شخصاً كمحمد ﷺ؟! .

لقد مضى محمد في دعوته يجمع الناس على مبادئ السماء، ويقودهم إلى العزة قيادة الحكيم البصير، مما زاد التوتر في صفوف قريش حتى فكر بعضهم بالنيل من محمد ﷺ، ولكن عقلاءهم رأوا من الحكمة أن يسعوا إلى أبي طالب مرة أخرى، ولكنهم سيحملون في ألسنتهم - في هذه المرة - من الحزم ما هو أشد وأقوى مما حملوه في المرة

الماضية، لقد حملوا في المرة الماضية الرجاء، أما الآن فلا بد من التهديد، لقد قالوا له: «يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على عيب آلهتنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين».

فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا - للذي كانوا قالوا له - فأبقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بدءٌ وأنه خاذله ومُسْلِمُهُ، وأنه قد ضعف عن نصرته، فقال رسول الله ﷺ: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته! كلمات انطلقت من فم رسول الله . . . بل هي بركان تفجّر، فإذا الجبال السماء كُثبان رمال، وإذا الإنسان المتعالي المتعظم يتلاشى في صفحة الوجود. . . فالنفس المؤمنة الكبيرة لا تقبل المساومة على المبدأ، إنها به تعيش، ومن أجله تموت. . . تلك هي نفس محمد.

ما كان هدف محمد مالا ولا متاعاً ولا ملكاً، ولكن تبليغ دعوة، وبناء دولة تحمل العدل والإنصاف للإنسان على أجنحة الإيمان. . . لقد أوضح محمد الطريق، وأبان الهدف. . . ولما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

(ج) بذل البديل لأبي طالب:

لما علمت قريش بأن أبا طالب لن يتخلى عن ابن أخيه محمد ﷺ، لأنه ربما يؤمل منه النصرة والخير، ففكروا بأنهم لو عوضوه عنه بشاب قوي قادر على نصرته فلربما استقام لهم ما أرادوا، فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أشد وأقوى وأجمل فتى في قريش، فخذ، واتخذه ولداً فهو لك، وسلّم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجلٌ برجلٍ! فقال: والله لبئس ما تسوموني^(١)! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكُم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبداً، فقال المطعّم بن عدي: والله يا أبا طالب

(١) أي تكلفوني.

لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً! فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك. فحقب الأمر^(١) وحميت الحرب، وتناذ القوم، وبأدى بعضهم بعضاً.

٢ - التعذيب البدني

لما رأت قريش أن جميع مساعيها الكلامية من رجاء وتهديد ووعود قد فشلت لجأت إلى أسلوب التعذيب البدني، فاتفق زعماءها فيما بينهم على أن يثب كل جماعة منهم على من أسلم منهم وانضوى تحت لواء محمد فيوسعوه تعذيباً وتكليلاً، حتى يعود عن موالة محمد ﷺ إلى موالة المشركين وبدأت عمليات التعذيب الوحشي للمسلمين، والمسلمون صابرون صامدون.

وهكذا كلما أفلس أصحاب الدعوات الباطلة من الحجة والبرهان وزلزلت الأرض من تحت أقدامهم بالمنطق السليم والحجة الساطعة لجأوا إلى البطش والإرهاب ليخرسوا الألسن الناطقة بالحق، ظانين بغياء أسود قاتم أنهم يستطيعون إطفاء نور الحق بحبسه، وما علموا أن ذلك يزيد نار الحق أواراً، ونوره في القلوب ضياءً.

إن هذا التعذيب الوحشي الذي أنزله المشركون بأصحاب محمد ﷺ أجلّ الرعب في قلب أبي طالب عم رسول الله، فوجد أنه لا بد من التحرك لجمع كلمة بني هاشم وبني المطلب على حماية محمد ﷺ، ونجح أبو طالب في مساعيه، واتفق بنو هاشم وبني المطلب على حماية رسول الله من بطش قريش إلا ما كان من عم رسول الله أبي لهب الذي أبى أن يضم يديه إلى أيديهم لغاية خبيثة في نفسه.

٣ - الحرب النفسية

لم تستطع قريش أن تمتد يدها بالتعذيب إلى محمد بعد هذا الاتفاق من بني هاشم وبني المطلب على حمايته . . . ولكن ماذا يفعلون ومحمد لا يسكت، وموسم الحج قد اقترب، وموسم الحج فرصة لا بد وأن يتنزهها محمد لنشر دعوته بين القادمين من العرب، إنه لا بد

(١) حقب أمرهم: فسد.

من توجيه حكيم - فيما يظنون - لما يقوله محمد . من أجل هذه الغاية اجتمع نفر من أولي الشأن من قريش إلى الوليد بن المغيرة حين حضر الموسم ، وكان ذا سن فيهم ، فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً .

فقالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع ؛ قالوا : نقول : كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة^(١) الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ، ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم^(٢) . قالوا : فما تقول أنت يا أبا عبد شمس . قال : والله إن لقوله لحلاوة . وإن أصله لعذق^(٣) ، وإن فرعه لجناة^(٤) . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ؛ وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته فوافقوه على رأيه وتفرقوا عنه بذلك . فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره . فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالا ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلاً إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾^(٥) . فجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها ، وخاصة بين الأوس والخزرج .

وبعد : لم يكن سكوت رسول الله ﷺ وتحمله أذى المشركين في هذه المرحلة من الدعوة عن خنوع أو ذل ، ولكنه سكوت خاضع لتخطيط دقيق وضعه قائد المسيرة محمد ﷺ ، أنه

(١) الزمزمة : كلام خفي لا يسمع .

(٢) كان الساحر يعقد خيطاً ثم ينث فيه .

(٣) العذق : النخلة .

(٤) الجناة : ما يجنى .

(٥) سورة المدثر ، الآيات ١١ - ١٦ .

س يبقى متحملاً للأذى، لا ييدي أية مقاومة حتى يصلب عوده، ويستكمل قوته، ويقيم دولته، وعندئذ يبدأ الصدام بقوة تمكنه من انتزاع النصر، بفضل الله. وقد تم تنفيذ هذا المخطط بكثير من الحرص، ولو أن أية مقاومة قد بدت من الرسول في فجر الدعوة، لكانت هذه المقاومة الشرارة التي تقع في برميل البارود، ولتفجر الموقف تفجراً عنيفاً، ولن يكون ذلك في صالح محمد ﷺ ولا صالح الدعوة، نظراً لقلّة أصحابه وضعفهم، وكثرة عدوه وقوته.

وتحمل رسول الله... وتحمل... وما أن حان التوقيت الذي وضعه هو للمعركة حتى شهر السيف، ونزل إلى الساح يبادل عدوه ضربة بضربة... وكان له النصر بإذن الله. وبفضل هذا المخطط بنيت دولة الإسلام، وخفقت راياته فوق الآفاق.

٤ - المفاوضات المباشرة

(أ) مفاوضات عتبة:

رأى المشركون أن أصحاب رسول الله يزيدون يوماً بعد يوم، وأن المفاوضات غير المباشرة وما رافقها من بطش وتعذيب لم يصد الناس عن الإيمان، فقرروا اللجوء إلى المفاوضات المباشرة - والمفاوضات المباشرة تعني الاعتراف الرسمي بمحمد وبكيان الدعوة الإسلامية - لعلهم يستطيعون بهذه المفاوضات إقناع الرسول بترك ما يدعو إليه من وجوب الكفر بالعقائد الزائفة المخالفة لعقيدة الإسلام والأخذ بما جاء من عند الله، وخاصة أن إسلام حمزة بن عبد المطلب قد شد من أزر الرسول ودعم موقفه.

واختار المشركون لمهمة مفاوضة الرسول رجلاً زعيماً عرف الناس عنه قوة الحجة وحسن العرض، هو عتبة بن ربيعة، فأتى عتبة رسول الله، وكلمه بمعسول الكلام وقال له: «يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة^(١) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها». فقال له رسول

(١) السطة: الشرف.

الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع». قال: «يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رتيّاً^(١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع^(٢) على الرجل حتى يداوى منه».

وأكبر ظني أن عتبة بن ربيعة لم يكن جاداً فيما يعرض على رسول الله من المال والملك . . . وإنما هو عرض سياسي من إنسان ذكي، حتى إذا ما رضي الرسول بواحد من بنود هذا العرض كانت الفضيحة بأن محمداً يبتغي فيما يدعو إليه الدنيا، ويكون بذلك القضاء على محمد وعلى ما يدعو إليه، وإن رفض تأكد لديه أن محمداً رجل دعوة وليس برجل دنيا.

وقد كان رسول الله أذكى من أن يقع في هذه المصيدة السياسية، بل كان عليه الصلاة والسلام أنبل هدفاً وأسمى مقصداً . . . إنه ماض لتنفيد أمر ربه في تبليغ ما عهد إليه بتبليغه، ولذلك فإنه ما إن فرغ عتبة من كلامه حتى قال له: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل. قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حَمَّ * تَنْزِيلَ مَنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابَ فُصِّلَتْ آيَاتِهِ قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾.

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها وهي قوله تعالى: ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾. فسجد رسول الله، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. وعندما أيقن عتبة بن ربيعة أن محمداً رسول الله للناس يحمل أعباء رسالة ويقوم بتبليغها، وما هو بطالب دنيا كغيره من الزعماء، رأى أن من واجبه أن يبلغ قومه قناعته بهذا الرجل، وينصحهم ما وسعه النصح.

فقام إلى أصحابه وقد انعكس باطنه على ظاهره فبدأ ذلك في محياه، فقال بعضهم

(١) الرئي: ما يترأى للإنسان من الجن.

(٢) التابع: صاحب من الجن.

لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال : ورأيي أنني سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تُصِبه العرب كفتيموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فمُلكُهُم مُلككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ! قالوا : سرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

والحق أن هذا الكلام هو كلام إنسان ذكي يحفظ خط الرجعة لنفسه ، لأنه لو نصحهم بالإيمان بمحمد لثاروا عليه ، وجهروا بعداوتهم له ، فأحب أن يشعرهم بأنه ما زال في صفهم ، وأنه لهم ناصح .

(ب) مفاوضة زعماء قريش مجتمعين :

ظن زعماء قريش أن عتبة بن ربيعة لم يوفق في قوة الحجة بما يستطيع به إقناع محمد بالتوقف عن بث أفكاره وجمع الناس إليه ، ولذلك عاد من عنده بخفي حنين ، وأمر محمد لا يحتمل السكوت عليه ، فالإسلام يزداد انتشاراً في بيوت مكة ، وأتباع محمد يزدادون في كل يوم ، وقريش لا تملك من الإمكانات ما يمكنها من ملاحقة جميع أصحاب محمد والبطش بهم ، هذا إن أفلح البطش ، فما بالك إذا أظهرت الأيام أن البطش لا يزيدهم إلا صلابة وصموداً؟! ولذلك اجتمع رأيهم على أن يجتمع بمحمد عليه الصلاة والسلام أشرف قريش من كل قبيلة ، وهم : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، وأبو البَخْتَرِي بن هشام ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ، والعاص بن وائل ونُبَيْه ومُنْبَه ابنا الحجاج ، وأميه بن خلف ، ليفاوضوه ؛ حتى إذا ما قصرت الحجة بأحدهم لقنها إياه صاحبه .

فاجتمعوا وبعثوا إلى محمد من يخبره ويقول له : إن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم . فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً ، وهو يظن أنه قد بدا لهم بما كلمهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصاً ، يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم ، فقالوا له : يا محمد ، إننا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإننا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ،

وفرت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا قد جثته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رتباً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك. فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل إلي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

وهذا شأن أصحاب المبادئ والدعوات، لا يقبلون المساومة فيها، ولا يبيعونها بعرض زائل من أعراض الدنيا. ولقائل أن يقول: لقد بعث الله محمداً ﷺ لتبليغ الرسالة وإقامة الدولة التي تطبق مبادئ هذه الرسالة وتسير السير الحثيث نحو أهدافها، وها إن قريشاً تعرض الملك ورئاسة الدولة على محمد، فلماذا لم يقبلها؟. وهنا لا بد لنا من إيضاح عدة نقاط سياسية هي على غاية من الأهمية:

أولها: إن أية دولة لا تقوم على قاعدة شعبية مؤمنة بها ومخلصة لها تنتهي حيث تبدأ ولن تتمكن من الوقوف منتصبة القامة، وهذه القاعدة لم تتوفر بعد للدولة التي يبتغيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك رفض رسول الله الملك.

ثانيها: إن الدولة بحاجة إلى أجهزة بشرية هي أشد ما تكون إيماناً وأكثر ما تكون إخلاصاً، وفي الوقت الذي عرض على رسول الله الملك لم يكن رسول الله قد أعد الأجهزة الكافية التي يطمئن إليها لإدارة هذه الدولة وتولي أمرها، ولا تقوم دولة بسواعد من لا يؤمن بها ولا يخلص لها.

ثالثها: إن قيام الدولة في وسط أعدائها وهي عاجزة عن بسط سلطانها عليهم هي مجازفة بسمعة هذه الدولة، وطالما أن رسول الله غير قادر في هذه المرحلة من بسط سلطانه على قريش فمن الخير أن يؤخر قيام الدولة حتى يصبح قادراً على ذلك.

رابعها: ثم إن رسول الله يريد لها دولة من صنعها هو، من صنع أبناء الإسلام، لا دولة صنيعة لأعداء الإسلام، ويريد لها رئاسة يصنع المسلمون له عرشها بأيديهم لا رئاسة يكون فيها أجيراً لأعداء الله ومحاربي مبادئه، لأن دولة هذا شأنها لا تستطيع ممارسة سيادتها على

الوجه الأكمل، وإقامة مبادئها على الوجه الذي تحب . ومن أجل هذا كله رفض رسول الله الملك الذي عرضه عليه المشركون .

(ج) نتائج هذه المفاوضات :

أولاً : شن الحرب النفسية :

لما رأى المؤتمرون من المشركين ما رأوه من صمود رسول الله على المبدأ، ورفضه جميع ما عرضه عليه من المغريات لأنها لا تنسجم مع مخططة المرسوم لإقامة الدولة الإسلامية، قرروا العودة إلى شن الحرب النفسية، لعلهم يتوصلون بذلك إلى تحطيمه نفسياً، وذلك بطرح بعض المطالب بأسلوب الساخر المستهزئ المشعر بضعف رسول الله ﷺ وعجزه عن تحقيق أي شيء، ويتمثل ذلك بما يلي :

طلبهم سعة العيش بلاكد ولا عمل :

قالوا : يا محمد، إن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدأً، ولا أقل ماءً، ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من ما مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول : أحق أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله، وإنه بعثك رسولاً كما تقول . فقال لهم رسول الله : ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغت ما أُرسلت به إليكم، فإن قبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم .

طلبهم نزول الملائكة :

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فسل لنفسك - ما نعرف به فضلك - سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جناحاً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة، يغنيك بها عما نراك تبتغي . فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم، وتلمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً فيما تزعم . فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله

بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم^(١).

طلبهم الإهلاك:

قالوا: فأسقط السماء علينا كِسفاً^(٢) كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإننا لا نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل».

تهديد ووعد:

ثم توج هؤلاء المؤتمرون من المشركين حربهم النفسية بإصدار الرسول بالتصفية الجسدية إن أصّر على موقفه فقالوا: يا محمد، أفما علم ربك أننا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تُرأِجِعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذ لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجلٌ باليَمَامَةِ يقال له «الرحمن»^(٣) وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرتنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركُك وما بلغت منا حتى نُهلكك أو تهلكنا!

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، وهو ابن عمته وكان كافراً فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم

(١) تأمل المستوى الفكري الذي يناقش به الرسول ﷺ. والمستوى الفكري الذي يناقش به المشركون. إن محمداً عرض عليهم المبادئ المنزلّة عليه من الله، وبين لهم وجه سموها على كل المبادئ التي عرفوها، فكان من المفروض أن يناقشوه في صلاحية تلك المبادئ، أو وجه صحتها، ولكنهم لم يفعلوا، بل طلبوا منه الإتيان بالمعجزات، وهذا اعتراف ضمني منهم أنهم عاجزون عن إيجاد ثغرة ينفذون منها إلى هذه المبادئ إن هم ناقشوها بل هو اعتراف منهم بانهمزاهم فكرياً أمام رسول الله.

أما المعجزات... فإنها لا تكون لأولي العقول الكبيرة، ولكن لمن دونهم من الناس، لأن أصحاب العقول الكبيرة يناقشون على مستوى المبادئ، وهذا ما لم يتوفر في المناقشين للرسول ﷺ.

(٢) جمع كسفة بالكسر، وهي القطعة من الشيء.

(٣) هو مسيلمة بن حبيب الحنفي، المعروف بمسيلمة الكذاب، كان قد تسمى بالرحمن في الجاهلية.

تفعل، ثم سألوكم أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، فوالله لا أو من بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنني أصدقك! . ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف عنه رسول الله إلى أهله حزينا أسفاً، لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباحدتهم إياه .

ثانياً: قرار قتل محمد ﷺ:

لم يكن محمد بالرجل العادي الذي تؤثر فيه وسائل الإضعاف النفسي فتحرفه عما قرر المضي فيه، لأن الله تعالى أعده إعداداً خاصاً لا تقاً بحمل الرسالة التي أنزلها عليه . وهو قادر على مواجهة الصعاب التي تواجهه دون أن تنال منه . وقد علم أعداء محمد في محمد هذا عندما جلس إليهم وناقشهم، لذلك وجدوا أن لا وسيلة للخلاص منه غير قتله، حيث قال أبو جهل لزعماء قريش: يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وستم آباءنا، وتسفيه أحلامنا، وستم آلهتنا، وإنني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم! . قالوا: والله لا نُسلمك لشيء أبداً، فامض لما تريد! . .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، وكان بمكة، وكانت القبلة إلى بيت المقدس بالشام، فكان إذا صلى، صلى بين الركنتين البرّاني والأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام. فقام يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً مُتَّقِعاً لونه مرعوباً، قد يبست يداه على حجره، حتى قُذِف الحجر من يده. وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قَصْرته^(١) ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني!

ثالثاً: طرح بديل عن القرآن:

لما أيقن المؤتمرون من المشركين أن محمداً لن تلين له قناة، ولن ينزع عما يدعو

(١) القصرة: أصل العنق.

إليه، وأنهم مع ذلك غير قادرين على اغتياله، وتجربة أبي جهل - وهو مُصدّق عندهم - أكبر شاهد على ذلك، فكروا ملياً، فوجدوا أن في تحويل أنظار الناس عن محمد ودعوته ما يحقق هدفهم، وتوجهت أنظارهم نحو القرآن الذي كان يفعل في النفوس فعل السحر وقرروا أن يطرحوا للناس بديلاً عن القرآن ليحولوا أنظارهم عنه، وهذا ما حدث، إذ قال النضر بن الحارث - أحد أعضاء المؤتمر: يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أنيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاء به قلتُم «ساحر» لا، والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفّثهم وعقّدهم. وقلتُم «كاهن» لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم. وقلتُم «شاعر» لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها: هزجَه ورجزَه. وقلتُم «مجنون» لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه. يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم!.

وكان النضر بن الحارث من أذكلاء قريش وعلمائها، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم إليّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه. ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني. وفشلت محاولة المؤتمرين من المشركين بطرح هذا البديل الرخيص، لأنه فشل في تفريق الناس عن القرآن واجتذابهم إليه. وقد غاب عن هؤلاء أنه مهما تعددت وسائل الصد والإيذاء فإن ذلك لا يزيد المؤمن إلا ثباتاً، ولا صاحب الدعوة إلا مضياً، لأن ذلك الأذى بالنسبة إليه كالمِسْن الذي يأكل الحديد، ليعود به السيف أكثر مضاً.

رابعاً: التعذيب الجسدي:

ولما فشلت هذه المحاولة أيضاً عاد المؤتمرون إلى قرار استئناف وسائل القمع المادية من قتل وتعذيب، فوثبت كل قبيلة على من استضعفوا فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ويرمضاء مكة إذا اشتد الحر، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يُقْتَن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يَصْلُبُ لهم ويعصمه الله منهم.

وكان من هؤلاء الذين نالهم التعذيب بلال بن رباح الحشبي، كان عبداً لبعض بني جُمَح، وكان أمية بن خلف الجمحي يخرج به في حر الظهيرة إلى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ويقول له: والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فلا يزيد بلال - وهو في هذا البلاء - على أن يقول: أأخذُ، فمرّ به أبو بكر الصديق وهو على هذه الحال، فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين... حتى متى هذا التعذيب؟ فقال أمية: أنت الذي أفسدته، فأنقذه إن شئت، فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أقوى منه وأجلد، على دينك، أعطيك به، فقال أمية: قد قبلت، فقال أبو بكر: هو لك، وأخذ أبو بكر بلالاً فأعتقه. وكان من هؤلاء الذين نالهم التعذيب زبيرة التي ذهب بصرها من كثرة ما نالها من الضرب على رأسها، وجارية بني مؤمل التي تولى تعذيبها عمر بن الخطاب قبل أن يجد الإيمان إلى قلبه طريقاً، حتى إذا تعب من تعذيبها قال لها مستهزئاً: إني أعتذر إليك، إني لم أترك تعذيبك إلا ملالة، وعمار بن ياسر وأمه وأبوه، فقد كان يُخرج بهم إلى رمضاء مكة ويعرضون على النار فيمر بهم رسول الله ﷺ وهم على هذه الحال فيقول: «صبراً آل ياسر، إن موعدكم الجنة» فيصبرون ويصبرون حتى ماتت سمية أم عمار بتعذيب المشركين.

تعذيب وحشي تنوء بحمله الجبال الراسيات، كان يتحملة أولو القوة، وكان يضعف عن احتماله البعض، لا لنقص فيهم أو لضعف في إيمانهم، ولكن لأنهم ما زالوا بشراً والبشر محدود الاحتمال، فكانوا إذا ما ضعف أحدهم عن احتمال التعذيب جارى معذبيه على ما يريدون وقلبه مطمئن بالإيمان، ليخفف عن جسده العذاب، حتى كان أحدهم ليتفوه بكلمة الكفر مضطراً وقلبه مطمئن بالإيمان، فعن سعيد بن جبير قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله، فيقول: نعم. حتى إن الجُعَل^(١) ليمر بهم فيقولون له: هذا الجُعَل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده. يا الله... قوم تحملوا كل هذا لبقى لهم إيمانهم في صدورهم، وليوصلوا هذا الإيمان الحار إلى أمم

(١) الجعل: دابة سوداء كالخنفساء من دواب الأرض.

الأرض، ولما وصل الإيمان إلى مسلمي اليوم مروياً بدماء الأبرار باعوه للشيطان بأبخس الأثمان. باعوه بالمنصب الزائل، والكلمة الجوفاء، والمال الحقير... تبا لها من صفة...!!

نتائج التعذيب الجسدي:

كان على رسول الله ﷺ أن يتخذ تدبيراً عاجلاً لإنفاذ جنود الدعوة بعد أن اشتد عليهم الطلب، واستبد بهم البطش، فأمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، وقال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه. واستجاب أصحاب رسول الله ﷺ لأمر الرسول فخرجوا إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وإبقاء على النفس، وفراراً بدينهم إلى الله، وكانت الهجرة إلى الحبشة أول هجرة في الإسلام. لم تأت الهجرة إلى الحبشة اعتباطاً، وإنما كانت بعد دراسة دقيقة للموقف قام بها رسول الله ﷺ، وفرض لها عدة حلول، ووجد أن الحل الأمثل هو أن يوجه أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لوجوه:

الوجه الأول: لأن في هجرة المسلمين إلى الحبشة إنفاذاً للدعوة من أن تجهض في أيامها الأولى، لأن هؤلاء المسلمين إن بقوا في مكة وهم يتزايدون يوماً بعد يوم فستشعر قريش بخطرهم عليها، وليس ببعيد أن تقوم بحرب استتصال لهم باسم حماية الآلهة، وسيؤيدها العرب كلهم في ذلك، ولكنهم إذا هاجروا فسيبقى محمد في مكة ضعيفاً لا يؤبه له - في نظرهم - وسترافق هذه النظرة الاستهانة به وبدعوته.

الوجه الثاني: انطلاق صوت الإسلام على أيدي دعاة مؤمنين إلى خارج الجزيرة العربية وهذا كسب لا يستهان به.

- وفي اختيار محمد ﷺ الحبشة بالذات لتكون مهاجراً أصحابه دليل على أن رسول الله قد درس الموقف جيداً، وعرف أحوال دول العالم آنذاك، وتبين له من دراسة الموقف أن أنسب مكان للهجرة حالياً هي الحبشة لأن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد. ولما دعا رسول الله ﷺ إلى الهجرة، وبذلك يظهر لنا أن رسول كان يفكر على مستوى دولة، ويعمل على مستوى دولة قبل أن تكون له دولة، بينما يظهر للناس مجرد محدث أفراد.

- وإذا كان كتاب السيرة قد أطلقوا على السنوات الثلاث الأولى من فجر الدعوة الإسلامية اسم «الدعوة السرية» فإن لنا أن نطلق على العهد المكي كله: دور التخطيط السري أو العمل السري لقيام الدولة الإسلامية.

كان أول من خرج من المسلمين إلى الحبشة عثمان بن عفان، ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، وأبو سبرة بن أبي رهم، وسهيل بن بيضاء. فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة. ولكن لم يستقر بهم المقام طويلاً في الحبشة حتى وردتهم أنباء تفيد أن أهل مكة قد أسلموا وانضووا تحت قيادة محمد ﷺ، مما جعل هؤلاء المهاجرين يسرعون إلى العودة لمكة ليكونوا عوناً لرسول الله ﷺ في المرحلة المقبلة، ولكن ما إن عادوا حتى وجدوا أهل مكة ما زالوا على كفرهم، وأن بطشهم للمسلمين لم يتوقف لحظة، فأمرهم رسول الله ﷺ بالعودة إلى الحبشة وأمر عليهم جعفر بن أبي طالب، لأنه لا يجوز أن يبقى المسلمون في أرض لا أمير لهم يجمع كلمتهم، ويوحد مساعيهم. خرجوا من مكة وخرج معهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه. وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه. فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً أو ولدوا بها ثلاثة وثمانين رجلاً. فأقاموا في الحبشة آمنين، يدعون إلى الله تعالى بلسان حالهم لتشهد الدنيا كلها أن الإسلام صنع منهم خلقاً آخر.

أرأيت يا أخي المسلم كيف هجر هؤلاء الأهل والأوطان، وتركوا المال والمتاع لتسلم العقيدة لأنها التعبير الصادق عن إنسانية هذا الإنسان، إنهم علموا الدنيا بأسرها أن هناك ما هو أسمى من المال ومن الزوجة، ومن المتاع، إنها العقيدة التي تُعمر الصدر باليقين الذي لا أحلى منه ولا أجمل. فروا من مكة دار الكفر التي تفتنت في تعذيبهم إلى الحبشة دار الكفر التي أملوا أن يجدوا فيها من الأمن والسلام ما يمكنهم من إقامة شعائر دينهم، ومن هنا أجاز الفقهاء التجاء المسلم إلى الكافر ليحميه من أذى كافر آخر، ما لم يكن في هذا الالتجاء مساومة على دينه.

طلب قريش تسليم المهاجرين:

فلما رأى المؤتمرون من قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا داراً وقراراً، قرروا أن يبعثوا منهم رجلين من قريش إلى النجاشي، ليخرج المسلمين من بلاده التي وجدوا فيها الأمن، ويردهم إليهم ليفتنوهم عن دينهم،

فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقتة ثم بعثوهما إليه.

ولندع أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ تحدثنا عن تفصيل ما جرى، قالت أم سلمة: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار، النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نُؤذِي ولا نسمع شيئاً نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشاً اتَّمتروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدلين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم. فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقتة بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبق من بطارقتة بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا^(١) وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه. ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي. فقالت بطارقتة حوله: صدقاً أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليردوهم إلى بلادهم وقومهم. فغضب النجاشي ثم قال: لاها الله^(٢)، إذا لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى أدعوه وأسالهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما. ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتم منهما وأحسن جوارهم ما

(١) هو أعلى به عينا: أي أبصر به.

(٢) أي لا والله.

جاوروني . ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن ، فلما جاؤوا ، وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟ .

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ، فقال له : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . قالت فعدد عليه أمور الإسلام . فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبداً لله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك ! . فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ ، فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشي : فاقرأه علي . فقرأ عليه صدرأ من «كهيعص» . قالت : فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته . وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ! ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ! انطلقا . فلا والله لا أسلمهم إليكما ، ولا يكادون ! .

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم^(١) ! فقال له عبد الله بن أبي ربيعة - وكان ألقى الرجلين فينا - : لا تفعل ، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا . قال : والله لأخبرته أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ! . ثم

(١) أي شجرتهم التي تفرعوا منها . وخضراء كل شيء أصله .

غدا عليه من الغد فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه . فأرسل إليهم ليسألهم عنه . قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط . فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وما جاء به نبينا ، كائنًا في ذلك ما هو كائن ! . فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟ فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ ، يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول^(١) . فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود^(٢) . فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيؤمٌ بأرضي^(٣) ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ! ما أحب أن لي دبراً^(٤) من ذهب وإني أذيت رجلاً منكم ! ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها .

قالت أم سلمة : فخرجا من عنده مقبوحين ، مردوداً عليهما ما جاء به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار حتى قدمنا على رسول الله ﷺ .

جهود مهاجرة الحبشة في الدعوة للإسلام:

وإذا كان مهاجرة الحبشة قد فروا بدينهم إلى الله امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ ، فإنهم لم يتوانوا هناك عن شرح مبادئ الإسلام بما تسمح لهم به ظروفهم مما جعل أهل الحبشة يرسلون وفدًا لرسول الله ﷺ للتأكد مما يقوله هؤلاء .

قال ابن إسحاق : ثم قدم على رسول الله وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه ، وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أُنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله عما أرادوا دعاهم رسول الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له ، وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمر ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقال لهم : خيكم الله من ركب ، بعثكم

(١) البتول : العذراء المنقطعة عن الزواج .

(٢) أي مقدار هذا العود .

(٣) ويروى : «سيوم» أي أنتم أحرار آمنون .

(٤) الدبر ، بلغة الحبشة : الجبل .

من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركباً أخرج منكم ، فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل من أنفسنا خيراً .
خامساً : مقاطعة الرسول ومناصريه من قومه :

لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أصابوا أمناً واطمئننا في الحبشة ، وأن مساعيهم في إعادتهم إلى مكة قد فشلت ، وأنهم لا يستطيعون إمعان الأذى برسول الله ﷺ بسبب حماية أهله من بني هاشم وبني المطلب له ، اتفق كافة زعمائها على مقاطعة رسول الله ومن ينصره من بني هاشم وبني المطلب ، فلا يبيعوهم ولا يشترون منهم ، ولا يزوجهم ولا يتزوجون منهم ، وكتبوا بذلك كتاباً في صحيفة علقوها في جوف الكعبة ، تأكيداً للعزم على الالتزام بها . وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة ، فدعا عليه رسول الله فشلت بعض أصابعه . ونفذت قريش المقاطعة ، والتزمت بما في الصحيفة ، وانضم إلى قريش أبو لهب عم رسول الله ﷺ . واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات ، أصاب الجهد فيها رسول الله وقومه إذ كان لا يصل إليهم من ضرورات الحياة غير ما يرسله إليهم بعض الأصحاب سراً . ولكن الناس دائماً يتعاطفون مع المظلوم حتى ولو كانت مصالحهم تملّي عليهم الوقوف في صف الظالم ، فترى أيديهم في وادٍ وقلوبهم في وادٍ آخر .

والضيق الذي أصاب بني هاشم وبني المطلب من جراء تلك المقاطعة الظالمة التي فرضها مؤتمر المشركين ، والأذى الذي أصاب رسول الله وقومه خلال السنوات الثلاث حرك بعض الضمائر فجعلها تتعاطف مع المظلومين رغم أنها لم تؤمن بما يدعو إليه رسول الله ﷺ ، فكان هشام بن عمرو يأتي بالبعر قد أقره طعاماً أو غيره مما يحتاجه الذين فرض عليهم الحصار فيدفعه إليهم . ولكن ذلك يبقى تدبيراً فردياً يتم في غفلة من عيون الظالمين ، ومثل هذا لا يمكن أن يحل المشكلة وإن كان يخفف من قسوتها ، ولا تحل المشكلة إلا بنقض قرار المقاطعة الظالمة ، ولذلك فإن هشام بن عمرو هذا مشى في ظلمة من الليل إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال : يا زهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت ، لا يُباعون ولا يُبتاع منهم ، ولا يُنكحون ولا يُنكح إليهم . أما إنني لأحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً ! قال : ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقضها حتى

أنقضها. قال: قد وجدت رجلاً. قال: فمن هو؟ قال: أنا. قال له زهير: أبغنا رجلاً ثالثاً. فذهب إلى المطعم بن عدي فقال له: يا مطعم، أقدر رضىت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه؟! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً. قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد. قال: قد وجدت ثانياً. قال: من هو؟ قال: أنا. قال: أبغنا ثالثاً. قال: قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية. قال: أبغنا رابعاً. فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي. فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك. قال: أبغنا خامساً. فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب، فكلّمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعونني إليه من أحد؟ قال نعم. ثم سمي له القوم.

فاتعدوا خَطْمَ الْحَجُونِ^(١) ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها. وقال زهير: أنا أبذؤكم فأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أناكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة! قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد -: كذبت والله لا تشق! قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضىنا كتابتها حيث كتبت. قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقرّ به. قال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها! وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تُشوّر فيه بغير هذا المكان. قال: وأبو طالب جالس في ناحية المسجد. فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم».

نتائج المقاطعة:

عجباً لتلك الأحداث كيف تنقلب ضد رغبة صانعيها... ولا عجب... إنه صنع العزيز الحكيم: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٢). صحيح أن المقاطعة التي

(١) خطم الحجون: موضع. والحجون: جبل بأعلى مكة.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٠.

فرضتها قريش بتلك الصحيفة الظالمة قد ألحقت أذى كبيراً برسول الله وبقومه، ولكنها جلبت للدعوة خيراً كثيراً، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالكافر عن غير قصد منه. فهي منعت ذوي الأغراض الدنيئة من الانتساب لهذا الدين، إذ ليس فيه مطمع دنيوي لطامع، فلم يقبل عليه إلا من كوى قلبه حُرُّ الإيمان فلم يطق صبراً على فراقه، ولو كان في فراقه الأمن والسلام، وكل دعوة يُتاح لذوي الأغراض الاندساس بين صفوفها فإن مآلها إلى البوار لا محالة، لأنهم لا يلبثون أن ينحرفوا بها عن أغراضها جرياً وراء مصالحهم، وتحقيقاً لأغراضهم، ضارين بأهدافها الأرض. وهذا العذاب الذي كان ينال رسول الله وأصحابه المؤمنين به كان الضمان الأكيد لنظافة المنتسبين للإسلام.

إن كثيراً من المشركين - وهم الأعداء التقليديون لمحمد ﷺ ولدينه - عندما رأوا ما أحاط بالرسول وبمن معه من الضيق والشدة في الشعب قد انقلبوا إلى صفه، وأصبحوا من المدافعين عنه، وهذا ما أدى إلى تمزيق الصحيفة الظالمة، وبذلك وجدت الخلخلة في صفوف المشركين، فلم تعد كلمتهم واحدة، وظهر لأول مرة من يرفع صوته معترضاً على مضايقة محمد وأصحابه وقومه، وهذا سيستتبع حتماً نقاشاً يمتد... ويمتد... حتى يتناول أمر العقيدة، وكل نقاش حول العقيدة ستخرج منه العقيدة الإسلامية ظافرة منتصرة ولا بد. هذه هي النتائج التي تمخضت عنها المقاطعة، فتأمل.

ساساً: العودة إلى المفاوضات ونتائجها:

شعرت قريش بضعف موقفها بعد أن ظهرت الخلخلة في صفوفها، وتعاطفت بعض زعمائها مع محمد ﷺ، وهذا نذير شؤم بالنسبة إليها، لأنها طلائع الفشل، خاصة وأن جهود هؤلاء المتعاطفين قد أثمرت ما يريدون من إنهاء المقاطعة وتمزيق الصحيفة.

خاصة وأن اثنين من كبار رجالاتها وأقوامهم وأشدهم شكيمة قد آمنوا بمحمد وأعلنوا ولاءهم له هم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب. وخاصة - أيضاً - أن أمر محمد قد فشا في القبائل كلها، ولم يعد بالإمكان التحكم بالمارد الجبار ومنعه من الانطلاق ولذلك رأى زعماء قريش أن من الحكمة مهادنة محمد ﷺ، فيكف عنهم ويكفون عنه، يعبد ربه بكل حرية، ويعبدون أصنامهم، لا يعيب عليهم عبادتهم ولا يعيرون عليه عبادته.

مشى القوم إلى أبي طالب - وكان مريضاً - فكلّموه في الأمر الذي اجتمعوا عليه وقالوا له: يا أبا طالب إنك منا حيث علمت، وقد حضرك ما ترى من المرض، وتخوّفنا عليك،

وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فَخُذْ لَهُ منا، وَخُذْ لَنَا منه، ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه. فبعث أبو طالب إلى رسول الله فجاءه، فقال: يا ابن أخي، هؤلاء أشرف قومك، قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك. فقال رسول الله ﷺ: نعم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم. فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات، قال: «تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه». فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن أمرك لعجيب؛ ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا، وأنزل الله سبحانه في ذلك: ﴿ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَعَلَى حِينٍ مَنَاصٍ * وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ * وَانْطَلِقِ الْمُلَأَمُومِينَ أَنْ يَمْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ^(١) إِنَّ هَذَا إِلَّا خِلْقَانٌ ^(٢)﴾.

ولكن أبا طالب لم يلبث أن توفي بعد مدة يسيرة، ثم توفيت خديجة زوج رسول الله ﷺ بعده بأيام، واشتد الحزن برسول الله ﷺ، واستطالت الأيدي والألسن عليه بعد ذهاب ناصره وحاميه أبي طالب، ونال المشركون من رسول الله ما لم يكونوا يستطيعونه في حياة عمه.

سابعاً: إيذاء رسول الله:

كان أبو طالب شخصية فذة، استطاعت أن تجمع كلمة بني هاشم والمطلب وتقف بهم سداً منيعاً يحمي رسول الله ﷺ من أن يناله المشركون بأذى يذكر، ولكن بعد وفاة أبي طالب تهدم ذلك الحاجز الذي أقامه لحماية محمد، وأصبح رسول الله في مواجهة مباشرة مع كفار قريش، ولذلك نالوا رسول الله بالوان من العذاب منها:

أذى أبي لهب وزوجته:

وكان أبو لهب - عم رسول الله - وامراته أم جميل بنت حرب بن أمية من أشد الناس أذى لرسول الله، فكانت أم جميل تحمل الأشواك وتطرحها في طريق رسول الله، بل وباعت

(١) يعنون بالملة الآخرة: دين النصرانية، الذي يقول المتدينون به: إن الله ثالث ثلاثة.

(٢) سورة ص، الآيات ١ - ٧.

عقدها الثمين لتتفق ثمنه في أذى محمد ﷺ، فأنزل الله تعالى فيها وفي زوجها: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾^(١). ولما سمعت أم جميل ما نزل من القرآن فيها وفي زوجها، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها حجر ملء الكف، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك فقد بلغني أنه يهجوني! والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه! ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني.

أذى أمية بن خلف:

أما أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمَح، كان إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه^(٢)، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَيْلٌ لَّكُلِّ هَمْزَةٍ لَمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يُحَسِّبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفْتَدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾^(٣).

أذى أبي جهل:

ولقي أبو جهل بن هشام رسول الله ﷺ فقال له: والله يا محمد لتتركن سب آلهمنا أو لنسبنَّ إلهك الذي تعبد! فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(٤). فكف رسول الله ﷺ عن سب آلهم وجعل يدعوهم إلى الله^(٥). ولما أنزل الله تعالى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْتُهَا الضَّالُّونَ الْمَكِيدُونَ * لَا تَكُلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ﴾^(٦)، قال أبو جهل: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزُّقُوم التي يخوفكم بها محمد؟

(١) سورة المسد.

(٢) الهمز: أن يشتم الرجل علانية ويكسر عينيه عليه، ويغمز به. واللمز: أن يعيبه سراً.

(٣) سورة الهزمة.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٠٨.

(٥) من هنا أخذ الفقهاء أصلاً عاماً سموه «سد الذرائع» وخلاصته: أن كل أمر مباح يُمنع إذا ترتب عليه نتائج محرمة، وعبروا عن ذلك بالقاعدة الفقهية «ما أودى إلى محرم فهو محرم».

(٦) سورة الواقعة، الآيتان ٥١ و٥٢.

قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزبد، والله لئن استمسكنا بها لتترقمنا - أي لنبتلعناها -
ترقماً، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمِهْلِ يُغْلِي فِي الْبُطُونِ *
كَغُلِيِّ الْحَمِيمِ﴾^(١)، أي إن شجرة الزقوم ليست كما يقول ذلك الطاغى، وإنما هي شأن آخر.

أذى الأخنس بن شريق:

أما الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي فإنه كان من أشرف القوم وممن
يستمع منه، فكان يصيب من رسول الله ﷺ ويرد عليه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تَطْعَ كُلَّ
حَلَّافٍ مِّمِّينَ * هَمَّازٌ مِّشَاءٌ بَنَمِيمٍ * مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مَعْتَدٌ أَثِيمٍ * عَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾^(٢).

أذى الوليد بن المغيرة:

أما الوليد بن المغيرة فإنه قال: أينزل الوحي على محمد وأترك، وأنا كبير قريش
وسيدها! ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيمي القريتين^(٣)
فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهَمُّ
يَقْسُمُونَ رَحِمْتَ رَبُّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبُّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٤).

أذى عقبة بن أبي معيط:

وكان أبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، متصافيين، حسناً ما بينهما، فكان عقبة قد
جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، فبلغ ذلك أبياً، فأتى عقبة فقال له: ألم يبلغني أنك
جالست محمداً وسمعت منه، وجهي من وجهك حرام أن أكلمك - واستغلظ من اليمين -
إن أنت جلست إليه أو سمعت منه، أو لم تأت فتتفل في وجهه! ففعل ذلك عدو الله عقبة بن
أبي معيط لعنه الله فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ
مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ
جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾^(٥). ووضع على رأسه مرة أمعاء جزور وهو ساجد.

4 Almal fann

elawen lepl melle

(١) سورة الدخان، الآيات ٤٣ - ٤٦.

(٢) سورة القلم، الآيات ١٠ - ١٣.

(٣) القريتان: مكة والطائف.

(٤) سورة الزخرف، الآيات ٣١ - ٣٣.

(٥) سورة الفرقان، الآيات ٢٧ - ٢٩.

أذى أبي بن خلف:

ومشى أبي بن خلف إلى رسول الله ﷺ بعظم بال قد بلي وتكسر فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم^(١)! ثم فته في يده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار، فأنزل الله تعالى: ﴿وَضَرْبَ لَنَا مِثْلًا﴾ ونسي خلقه قال من يُحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون^(٢).

أذى الجيران:

كان جيران رسول الله ﷺ جيران سوء من المشركين، أبو لهب والحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي وغيرهم، وكانوا لا يتوانون أن يوقعوا الأذى برسول الله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، كان أحدهم إذا رآه يصلي طرح عليه ما تصل إليه يده من النجاسات، وإذا ما أوقد ناراً تحت قدر لي طبخ ما يأكله طرحوا له في القدر الأقدار، بله^(٣) طرح الأقدار والنجاسات في داره عليه الصلاة والسلام، وكان كثيراً ما يُخرج تلك الأقدار من بيته، فيقف بها على بابه ويقول: يا بني عبد مناف، أي جوار هذا؟! ثم يلقيه في الطريق جانباً.

(١) أرم: بلي وصار رمة.

(٢) سورة يس، الآيات ٧٨ - ٨٠.

(٣) بله: مصدر بمعنى الترك، القاموس المحيط، مادة «أبله».

الباب الثالث

البحث عن أرض لإقامة الدولة التي تحمي العقيدة وتقيم الشريعة

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الخروج إلى الطائف

الفصل الثاني : الإسراء والمعراج

الفصل الثالث : الهجرة إلى المدينة المنورة

الخروج إلى الطائف

لقد ضاقت الدنيا برسول الله ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة، إذ كان للأول فضل دفع الأذى الجسماني عن رسول الله، وللثانية فضل تطيب نفس رسول الله وتفريج كروبه بما تبذله له من نور الكلام، وما تدخله قلبه من يقين الطمأنينة. وما تغرسه في ثنانيا إرادته من روح التصميم. فأصحابه قسم منهم هجر الأهل والوطن إلى بلاد الحبشة، والقسم الآخر يناله ما يناله من التنكيل على أيدي عتاتية قريش، حتى هو عليه الصلاة والسلام لم يسلم من قاذع الكلام وسيء التصرفات. لا شيء إلا لأنهم عبدوا إلهاً واحداً وكفروا بما عداه من الآلهة المزيفة. لقد كانت قريش تقبض على السلطة، وكان رسول الله يقبض على الإيمان، وبدا لرسول الله حتى الآن أنه لا ينفع في الدنيا إيمان ولا حق ما لم تدعمه السلطة. وفكر رسول الله ﷺ أنه لو استطاع أن يجد الأرض الآمنة التي تمكنه من جمع أصحابه وإقامة السلطة فيها لاستطاع أن يجد للعقيدة المناخ المناسب في ظل السلطة، وفيه تستطيع أن تنمو وترعرع. واستعرض رسول الله في مخيلته المناطق التي يمكنه أن يقيم سلطته فيها، فوجد أن الطائف هي أحسن مكان لذلك، لأسباب منها:

١ - أسباب بشرية:

إن في الطائف ثقيفاً وفيها بعض أخواله عليه الصلاة والسلام، وهم أقرب لأن يبذلوا له الحماية، ويحيطوه بالرعاية؛ ولأن هناك مصاهرة بين أحد زعماء الطائف وقريش - ومن عادة العرب رعاية هذه الصلة. فظن رسول الله أنه إذا ما خرج إلى الطائف ودعا أهلها إلى الإيمان به ونصرته على أساس الإسلام والقيام معه للوقوف في وجه من خالفه من قومه، فإن أهلها لن يترددوا في قبول ما جاءهم به، لأنه الحق، ويجب أن يكون الحق رائد الإنسان، ونصرته مطلباً من مطالبه.

٢ - أسباب اقتصادية :

إذ الطائف بلد زراعي، كثير الخيرات، ولو قدر الله له أن يحتضن الدعوة الإسلامية ويأوي أهلها، لوجد رسول الله وأصحابه بحوكة من العيش تساعد على نشر الدعوة، وإقامة الدولة التي ستحتاج إلى كثير من المال لتسليح جندها وإقامة مرافقها.

٣ - أسباب استراتيجية :

الطائف بلد في أعالي الجبال، والجبال تؤمن الحماية لمن يأوي إليها بما فيها من التضاريس، ولذلك رأينا الثورات كلها تلجأ إلى الجبال تحتمي بها إلى أن يصلب عودها. والطريق إلى الطائف طريق جبلي أيضاً كثير الالتواءات والتضاريس، يؤمن الحماية لسالكه، لأنه يستطيع أن يختفي بسهولة بين تضاريسه، وهذا مفيد لأصحاب رسول الله عندما يريدون الانسحاب من مكة إلى الطائف. والطائف بلد ذو حصون، ولذلك استخدم رسول الله عند حصاره المنجنيقات لتهديم حصونه، ولو قدر للدولة الإسلامية أن تقام في الطائف لما استطاع أعداؤها النيل منها، لما في المدينة من حصون ولما تمتاز به من موقع استراتيجي دفاعي يجعل من العسير إزلالها وقهرها. لهذه الأسباب توجهت أنظار رسول الله إلى الطائف دون غيرها.

وخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف بنفسه ليكلم سادة ثقيف، ولما انتهى إليها، عمد عليه الصلاة والسلام إلى ثلاثة إخوة هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافها: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير، وعند أحدهم امرأة من قریش من بني جُمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمزق ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول! لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك! فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد قال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكمثوا عني. وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه ذلك عنه لئلا تزداد جرأتهم عليه وأذاهم له. فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونهم ويصيحون به ويرمونهم بالحجارة حتى أدموا عقبه الشريفين، وألجأوه إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل شجرة عنب، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف. فلما اطمان رسول الله ﷺ قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على

الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني^(١)، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتي^(٢) حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»!

فلما رأى ابنا ربيعة: عتبة وشيبة ما برسول الله من الإرهاق، وما لقي من العنت تحركت له رحمهما، فدعو غلاماً لهما نصرانياً يقال له «عدّاس» فقالا له: خذ قطعاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق. ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه. ففعل عدّاس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال: «باسم الله». ثم أكل، فنظر «عدّاس» في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أي البلاد أنت يا عدّاس، وما دينك؟» قال: نصراني وأنا رجل من أهل نينوى^(٣). فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى». فقال عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متى. فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي! فأكب عدّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه. فقال أحد ابني ربيعة لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك! فلما جاءهما عدّاس قالوا له: ويلك يا عدّاس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي! قالوا له: ويحك يا عدّاس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه!!

إيمان جن نصيبين^(٤):

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف،

(١) يتجهمني: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه.

(٢) العتي: الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضي العاتب.

(٣) نينوى: قرية بالموصل، من العراق.

(٤) المقرر شرعاً أن هذا الدين للإنس والجن، وأن محمداً رسول الله للإنس والجن بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأَتْلُوهُ بِمَا يَشَاءُ﴾ [سورة الأنعام، الآية ١٩]. والقرآن قد بلغ الجن حتماً قال تعالى: ﴿قُلْ أَوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [سورة الجن، الآيتان ١ و ٢]. وقد ذكر رسول الله ﷺ تبليغهم رسالة الله والقرآن فيما رواه مسلم عن ابن مسعود قال: كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه=

حتى إذا كان بوادي نخلة قام من جوف الليل يصلي، فمرَّ به سبعة نفر من جن أهل نصيبين فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، وقد قص الله علينا خبرهم في القرآن، فقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرِمَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾^(١).

لقد كان إيمان الجن برسول الله بعد أن ناله ما ناله على أيدي ثقيف تسليية أنساه آلامه، وكان تأكيداً جديداً لرسول الله بأن الله تعالى لن يتركه، بل هو معه دائماً، يجعل له من الأحزان ضياءاً، ومن الآلام عزاء. فإيمان الجن تأكيد جديد لرسول الله بأن أهل الأرض إن تخلّوا عنه وآذوه ففي العوالم الأخرى من الجن والملائكة ما يشد أزره وينصره ويدعو بدعوته. وإيمان الجن أيضاً أمل جديد لرسول الله في تحول طائفة من العتاة الكافرين إلى الإيمان بالله وبرسوله، كما تحول الجن - وهم في أصلهم من شرار خلق الله، من نسل إبليس اللعين - إلى مؤمنين، بل إلى دعاة لهذا الدين الجديد الذي يدعو إليه رسول الله.

العودة إلى مكة:

وسار رسول الله أدراجه إلى مكة حتى وصل إلى حراء، المكان الذي وجد فيه الإشراق الروحي أول ما وجد، ونزلت عليه منه أول آيات القرآن الكريم، وأخذ يفكر، كيف يدخل مكة؟ إن زبانتها له بالمرصاد بعد أن علموا بنشاطه الجديد، وفشله الجديد، ولذلك رأى أنه لا يستطيع أن يدخل مكة دون أن يبذل له الحماية بعض أولي الشوكة فيها. فبعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال له معتذراً: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال له معتذراً: إن بني عامر لا تجير علي بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدي، فأجابه إلى ذلك، ثم تسلح المطعم وأهل بيته وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث لرسول الله: أن ادخل، فدخل رسول الله فطاف بالكعبة وصلى عندها، ثم انصرف إلى منزله لا يجرؤ أحد أن ينال منه.

= في الأودية والشعاب فقيل: استطير أو اغتيل؟! فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله فقدناك فظلمناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن...».

(١) سورة الأحقاف، الآيات ٢٩ - ٣١.

الفصل الثاني

الإسراء والمعراج

الإسراء والمعراج معجزتان :

بعد أن أصاب رسول الله ما أصابه من الأذى الجسدي بعد وفاة عمه أبي طالب الذي كان يدفع عنه الكثير من الأذى بما له من مكانة وشرف في مكة ، وبعد أن أصابه ما أصابه من التعب النفسي بعد وفاة زوجته خديجة التي كانت البلم الذي يداوي الجراح التي يصيبها المشركون من رسول الله ، وبعد أن أصابه ما أصابه من خيبة الأمل بعد خروجه إلى الطائف ، أراد الله أن يكرمه بهذه الرحلة المباركة - رحلة الإسراء والمعراج - وكأن الله عز وجل يقول له : يا محمد إن ضاقت بك الأرض فقد اتسعت لك السماء ، وإن عاداك أهل الأرض ، فإن أهل السماء يرحبون بك ، وإن أهانك أهل الأرض ، فإن مكانك عند الله عظيم .

وإن الذي علينا أن نذكره دائماً ولا ننساه هو أن حادثة الإسراء والمعراج معجزة وقعت لرسول الله ﷺ . وعندما نقول «معجزة» فإنما نعني بذلك تعطل القوانين الكونية ، وعندها تحترق كل الأسئلة والاستفسارات : كيف استطاع رسول الله أن يقطع تلك المسافة الشاسعة بين مكة وبيت المقدس في دقائق؟! وكيف احتمل جسمه الشريف تلك الحرارة الهائلة المتولدة من احتكاك جسمه بالهواء؟! وكيف استطاع التخلص من الجاذبية الأرضية والعروج إلى السماء بلا واسطة؟! وكيف عاش بلا هواء بعد تجاوزه الغلاف الهوائي المحيط بالأرض؟! كيف... وكيف... وألف كيف... ورسول الله قطع هذه الرحلة بلا أجهزة وافية ، ولا معدات مساعدة ، لأن هذه الأسئلة كلها ترد لو أن الأمر قد تم على سنن القوانين الكونية... أما إنه قد تم خارج أطر هذه القوانين ، بقدرة القادر على كل شيء ، فإن هذه الأسئلة كلها لا تلبث أن تذوب في غمرة الإيمان بالله القادر على كل شيء . وطالما أن المعجزة خروج على القانون الكوني وتعطيل له ، فإن هذا لا يتأتى لنبي ولا لغيره من المخلوقات ، وإنما هو لمن وضع تلك القوانين جل شأنه ، فالنبي لا يصنع المعجزات ولكن الله تعالى هو الذي يجريها على يديه ، وشتان ما بينهما . وقد بين الله تعالى هذه الحقيقة في

كتابه الكريم في الحوار الذي سجله القرآن الكريم بين المشركين من جهة، ورُسل الله تعالى من جهة أخرى فقال المشركون للرسول: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبَدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾^(١)، أي معجزة ظاهرة، فأجابهم رسل الله تعالى: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢). وبذلك تقرر نهائياً أن المعجزة ليست من صنع الرسل، ولكنها من صنع الله تعالى.

أنواع المعجزات :

ونحن لو استقرأنا المعجزات التي أجراها الله تعالى على أيدي رسله الكرام لأمكننا تصنيفها إلى صنفين :

الأول: المعجزات المادية: وهي المعجزات المرئية أو الملموسة كانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابع الرسول عليه الصلاة والسلام ورده العين المقلوعة سليمة، ونحو ذلك. وهذا النوع من المعجزات يحدث ثم ينقضي، فلا تتجاوز آثاره الزمن الذي حدث فيه، ولا تبقى بقاء الأيام.

الثاني: المعجزات المعنوية: وهي المعجزات التي لا ترى بالعين الباصرة، ولكن بالعين الواعية، ولا تلمس باليد، ولكنها تلمس بالفكر والقلب والوجدان. ويأتي القرآن الكريم في قمة المعجزات المعنوية، فهو أعظمها أثراً، وهو المعجزة الباقية لرسول الله ﷺ، ثم يليه معجزة الإسراء والمعراج التي أخبر بها رسول الله ﷺ، وقد كان لهاتين المعجزتين أثر كبير في رسم المنهاج الجديد للحياة الإنسانية المقبلة.

أهداف المعجزة:

كل معجزة تحدث لنبي لا بد وأن يكون لها هدفان، هدف عام وهدف خاص.

أما الهدف العام: فهو إقامة الدليل على أن الرسول الذي ظهرت على يديه المعجزة صادق فيما يدعيه، ويدعو إليه، وبذلك تكون المعجزة قائمة مقام قول الله تعالى: صدق عبي في كل ما يبلغ عني.

(١) سورة إبراهيم، الآية ١٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ١١.

وأما الهدف الخاص: فإنه يتمثل في الأثر الذي تتركه هذه المعجزة، وبقدر ما يعظم الأثر، بقدر ما تعظم تلك المعجزة.

وقد سبق أن قلت: إن أعظم المعجزات أثراً هي القرآن الكريم، ثم تتلوه معجزة الإسراء والمعراج، فترتيب الإسراء والمعراج بين المعجزات هو الثاني بعد القرآن الكريم. ونستطيع أن نجزم بأن حادثة الإسراء والمعراج هي حادثة مبرمجة، أعني أنها داخلية ضمن برنامج خاص أحكمه الله تعالى، وجعل له دلالاته، ويكشف هذا البرنامج وهذه الدلالات من درس بإمعان سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام. فكيف حدثت معجزة الإسراء والمعراج، وما هي دلالاتها وأبعادها:

معجزة الإسراء:

في ليلة من الليالي المشرقة بالأنوار الإلهية، وبينما كان رسول الله متوسداً فراشه بين النائم واليقظان أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ بالبراق، وهي الدابة التي كان يحمل عليها الأنبياء قبله، تضيع حافرهما في منتهى طرفها، فحمل عليها، ثم خرج به صاحبه، يرى الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم الخليل، وموسى، وعيسى، في نفر من الأنبياء قد جُمعوا له. فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم. ثم أتى بإناءين إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، فأخذ رسول الله ﷺ الإناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر، فقال له جبريل عليه السلام: هديت للبطرة وهديت أمتك يا محمد. وفي رواية أن صلواته بالأنبياء كانت بعد رجوعه من المعراج.

معجزة المعراج:

يروى لنا الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري قصة معجزة المعراج كما سمعها من رسول الله فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتى بالمعراج ولم أر شيئاً قط أحسن منه، وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حُضر، فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء يقال له باب الحفظة، عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك، تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك» يقول رسول الله ﷺ حين حدث بهذا الحديث: «وما يعلم جنود ربك إلا هو»^(١). فلما دخل بي قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا محمد. قال: أوقد بعث؟ قال:

(١) سورة المدثر، الآية ٣١.

نعم. قال: فدعا لي بخير وقاله. ولما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلاً جالساً تعرض عليه أرواح بني آدم، فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيراً ويُسرُّ - به، ويقول: روح طيبة خرجت من جسد طيب. ويقول لبعضها إذا عرضت عليه: أفّ، ويعبس بوجهه ويقول: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم تعرض عليه أرواح ذريته فإذا مرت به روح المؤمن منهم سُرَّ بها وقال: روح طيبة خرجت من جسد طيب! وإذا مرت به روح الكافر منهم أفّ^(١) منها وكرهها وساء ذلك، وقال: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث! ثم رأيت رجلاً لهم مشافر^(٢) كمشافر الإبل، في أيديهم قطع من نار كالأفهار^(٣)، يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً. ثم رأيت رجلاً لهم بطون لم أر مثلاً قط، بسبيل آل فرعون^(٤) يمرون عليهم كالإبل المهيومة^(٥) حين يعرضون على النار، يطأونهم لا يقدرّون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا. ثم رأيت رجلاً بين أيديهم لحم سمين طيب، إلى جنبه لحم غث متن^(٦)، يأكلون من الغث المتن ويتركون السمين الطيب. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن. ثم رأيت نساء معلقات بثديهن، فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم. ثم أضعديني إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا. ثم أضعديني إلى السماء الثالثة، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال هذا أخوك يوسف بن يعقوب. ثم أضعديني إلى السماء الخامسة، فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية، عظيم العنثون^(٧)، لم أر كهلاً أجمل منه، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال هذا المحبب قومه هارون بن عمران. ثم أضعديني إلى السماء السادسة، فإذا فيها رجل آدم طويل أقتى، كأنه من رجال شنوءة، فقلت له: من هذا يا

(١) أي قال: أفّ، تضجرأ.

(٢) المشفر: شفة البعير.

(٣) الأفهار: جمع فهر، حجر مقدار ملء الكف.

(٤) آل فرعون، لهم في الآخرة أشد العذاب.

(٥) المهيومة: العطاش.

(٦) الغث: الضعيف المهزول.

(٧) العنثون: اللحية.

جبريل؟ قال هذا أخوك موسى بن عمران. ثم أضعديني إلى السماء السابعة، فإذا فيها كهل جالس على كرسي إلى باب البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة، لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم.

أقول: ثم دخل رسول الله سدره المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، وفرض فيها على رسول الله وعلى أمته الصلاة، خمسين صلاة في اليوم واللييلة بعد أن كان ركعتين في الصباح وركعتين في المساء، كما كان يفعل سيدنا إبراهيم عليه السلام.

يقول عليه الصلاة والسلام: «ثم دخل بي الجنة فرأيت فيها جارية لعشاء^(١) فسألتها: لمن أنت؟ وقد أعجبني ورأيتها، فقالت: لزيد بن حارثة». فبشر بها رسول الله ﷺ زيد بن حارثة. قال رسول الله ﷺ: «فأقبلت راجعاً، فلما مررت بموسى بن عمران، ونعم صاحب كان لكم، سألتني كم فرض عليك من الصلاة؟ فقلت: خمسين صلاة كل يوم، فقال إن الصلاة ثقيلة، وإن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك، فرجعت فسألت ربي أن يخفف عني وعن أمتي، فوضع عني عشراً، ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لي مثل ذلك، فرجعت، فسألت ربي فوضع عني عشراً، ثم انصرفت، فمررت على موسى فقال لي مثل ذلك، فرجعت فسألته، فوضع عني عشراً، ثم لم يزل يقول لي مثل ذلك، كلما رجعت إليه قال: فارجع فاسأل، حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عني إلا خمس صلوات في كل يوم وليلة، ثم رجعت إلى موسى، فقال لي مثل ذلك، فقلت: قد راجعت ربي وسألته حتى استحيت منه، فما أنا بفاعل. فمن أذاهن منكم إيماناً واحتساباً لهن، كان له أجر خمسين صلاة مكتوبة».

أقول: وقد فرض الله الصلاة في السماء ليدل على أهميتها التي لا تدانيها أهمية، شرعت في السماء لتكون معراجاً يرقى بالناس كلما تدنت بهم شهوات النفوس، وليسمو بنفوسهم كل يوم خمس مرات.

الأبعاد الحقيقية للإسراء والمعراج:

وهنا ثلاث نقاط يجدر بنا الوقوف عليها لأن لها مدلولاتها السياسية والاجتماعية

(١) اللعساء: التي يضرب لون شفتها إلى السواد قليلاً.

والروحانية البعيدة المدى، النقطة الأولى: الإسراء إلى بيت المقدس بالذات والصلاة فيه،
والنقطة الثانية: صلاة رسول الله ﷺ بالأنبياء إماماً، واقتداء الأنبياء به، والنقطة الثالثة:
اختياره ﷺ كأس اللبن دون كأس الخمر، وقول جبريل له: هديت للفطرة وهديت أمتك .
لأن جميع الذين كتبوا في السيرة النبوية الشريفة لم يوفقوا من استجلاء الأبعاد التي ترمي إليها
هذه النقاط الثلاثة بالذات :

١ - الأبعاد السياسية:

(أ) إن قيادة العالم حتى حدوث معجزة الإسراء والمعراج كانت بيد بني إسرائيل ،
لأن البقية الباقية من الأديان السماوية - وهي اليهودية والنصرانية - هي ديانات إسرائيلية،
ولكن الناس الذين حملوا هذه الديانات لم يعودوا أهلاً للقيادة، لعبثهم بالمبادئ، وبيعهم
إياها بأبخس الأثمان، حيث حرفوا الأديان، وشوهوا معالمها، فلا المبادئ بقيت صالحة
لقيادة العالم، ولا حاملو المبادئ بأهل لهذه القيادة، لذلك كان لا بد من انتزاع عصا القيادة
من أيديهم وتسليمها لقوم آخرين يختارهم الله تعالى لحمل الأمانة . وكانت هذه النقطة -
نقطة الاتفاق على المبادئ الحاكمة، ونوعية الرجال الحاكمين - لا بد من الاتفاق عليها،
وإرساء قواعدها قبل البدء بتأسيس الدولة الإسلامية التي وضع رسول الله ﷺ حجر الأساس
فيها بعد الهجرة إلى المدينة المنورة . ونحن نعلم أن إحكام بناء الدولة لا يمكن أن يتم إلا
بتوفر أمرين اثنين :

الأمر الأول: للمبادئ والنظم المحكَّمة المتمشية مع الفطرة البشرية، لأن المحكوم
بها لا يشعر بأنه مقهور بها، بل موجَّه لما فيه خيره وسعاده .

والأمر الثاني: الأيدي النظيفة الأمانة المخلصة التي تتولى تطبيق هذه النظم .

ومن هنا كان اختيار رسول الله ﷺ لقدح اللبن الذي يمثل الفطرة، وقول جبريل عليه
السلام له هديت للفطرة وهديت أمتك، إن ذلك يعني: أن النظم التي ستنزل عليك لتقيم
دولة الإسلام على أساسها، وتحكم بها بين الناس أنت وأمتك من بعدك هي الفطرة التي لا
يجد الناس حرجاً بالأخذ بها، والفطرة قد ينحرف بها صاحبها، ولكنها تبقى دائماً لا تتبدل
وهذه النظم التي ستنزل عليك يا محمد باقية بقاء الفطرة، والفطرة باقية ما بقي الإنسان، فهي
باقية ما بقي الإنسان .

(ب) وتقدم رسول الله ﷺ وصلاته بالأنبياء إماماً، وإقرار الأنبياء له على ذلك واقتداؤهم

به، هو تحول سياسي جذري، نزعته به القيادة من أيدي بني إسرائيل، وأسلمت إلى الأمة المحمدية وأبطل به العمل بقيم محرقة مهترئة، لتحل محلها قيم أخرى جديدة عادلة فطرية، تلك هي «القيم الإسلامية». وهذا التحول هو تحول مشروع باركه ممثلو الأمم وعقلاؤهم المعصومون - وهم الأنبياء - ولهذا فإن كل اعتراض عليه يعتبر اعتراضاً غير مشروع، وكل مقاومة له تعتبر مقاومة مردولة، تريد أن تنصر الباطل وتطفئ الحق، وهي خروج على القانون، ومقاومة هذا شأنها لا بد وأن تنال ما تستحق من القمع. كانت هذه هي الأرضية الفلسفية السياسية التي أعطت الدولة الإسلامية التي أقامها رسول الله في المدينة المنورة الحق في قمع وتصفية جميع حركات المقاومة التي ظهرت في وجه الدولة الإسلامية وفي وجه انتشار مبادئها التي قامت من أجلها، وأخص منها بالذكر المقاومة اليهودية في المدينة المنورة وما حولها، فقد وضع رسول الله ﷺ برنامجاً دقيقاً لتصفيتها، سنكشف عنه فيما بعد في كتابنا هذا - إن شاء الله تعالى - وبدأ بتنفيذ هذا المخطط من العام الثالث للهجرة.

(ج) وإن الإسراء برسول الله إلى بيت المقدس خاصة وصلاته فيه إماماً بالأنبياء، وعروجه منه إلى السموات يعني أن بيت المقدس جزء من أراضي الدولة الإسلامية المرتقبة، لأن صاحب البيت هو صاحب الحق بالإمامة في الصلاة، فتقدم رسول الله إماماً بالصلاة في بيت المقدس دليل على أنه هو صاحب البيت دون غيره، وأن اقتداء الأنبياء به في الصلاة يدل على إقرارهم بأن بيت المقدس بقعة من جملة البقاع الإسلامية التي ترفرف عليها أعلام الشريعة الإسلامية.

٢ - الأبعاد الاجتماعية :

إن صلاة رسول الله بالأنبياء على اختلاف قومياتهم وألوانهم يعني أن الدولة الإسلامية تُظَل بمبادئها جميع المؤمنين، فلا تفرق بين أسود وأبيض، ولا بين عربي وأعجمي... تذوب القوميات كلها في بوتقة الإيمان ثم تسكب في قوالب الامتثال لشريعة الله عز وجل. وإن فرصة التفوق والتسامي متاحة في هذه الدولة للجميع على قدر متساو، وإن أبواب الدولة مفتحة للارتقاء بمن يظهرون التفوق، كإتاحة الفرصة أمام جميع المصلين على قدر متساو للتسامي، وإن أبواب السماء مفتحة لاستقبال أعمال المتسامين. وبذلك تكون معجزة الإسراء قد وضعت أساساً جديداً لبناء المجتمع الجديد المزمع إنشاؤه في ظل مبادئ الإسلام ودولته.

لا بد لنا من أن نذكر أن معجزة الإسراء والمعراج قد حدثت على أعقاب سلسلة من المآسي حلت برسول الله ﷺ، منها موت عمه أبي طالب الذي كان يذب عنه أذى قريش، وموت زوجته خديجة التي كانت تزيد فيه روح التصميم قوة ومضاء، واشتداد أذى قريش ومن معها عليه، حتى سمي ذلك العام بـ «عام الحزن» فأراد الله تعالى أن يسلي رسوله فكانت هذه الرحلة المباركة التي صلى فيها رسول الله بالأنبياء إماماً في بيت المقدس، وكان الله تعالى يقول لنبيه وحبيبه: يا محمد إن المستقبل لك ولأمتك بعدك، حتى إن حدود دولتك لتتجاوز بيت المقدس، وحتى إن ميراث الأديان السابقة ليكون في كنفها. وكان رسل الله يقولون له وهم يصلون خلفه: امض إلى ربك ونحن معك، وكان ملائكة الله في السماء تقول له وهو يعرج فيها: إن ضاقت بك الأرض فالسما قد فتحت صدرها إليك، ولئن آذاك جهلة وطغاة أهل الأرض فأهل السماء يقفون في استقبالك. كل هذا جعل روحاً جديدة تسري في رسول الله وفي المؤمنين، فما إن عاد رسول الله من رحلته المباركة تلك حتى جعل يعرض الإسلام على القبائل الوافدة إلى الحج بكل همة ونشاط.

الامتحان: فوالله ما كان رسول الله ﷺ يمشي في مكة حتى أوى إلى فراشه ثم لم

يلبث أن غدا على قريش فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس: هذا والله الكذب البين! والله إن القافلة لتسير شهراً من مكة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة! وارتد كثير من ضعفة الإيمان ممن كان قد أسلم، وآمن بذلك وصدق كثير. وكان ممن آمن وصدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقد ذهب الناس إليه فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة! فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه؟ فقالوا: بلى. ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس. فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه! فهذا أبعد مما تعجبون منه، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: نعم. قال: يا نبي الله فصفه لي، فإني قد جئته. فقال رسول الله ﷺ: فرفع لي حتى نظرت إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله. حتى إذا انتهى قال

رسول الله ﷺ لأبي بكر: وأنت يا أبا بكر الصديق، فيومئذ سماه «الصديق». ووصف رسول الله لأصحابه من لقيه من الأنبياء فقال:

أما إبراهيم: فلم أر رجلاً أشبه قط بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه^(١). وأما موسى: فرجل آدم طويل ضرب جعد أقي^(٢) كأنه من رجال شنوءة^(٣). وأما عيسى بن مريم: فرجل أحمر بين القصير والطويل، سبط الشعر، كثير خيلان الوجه^(٤). كأنه خرج من ديماس^(٥)، تخال رأسه يقطر ماء، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفي.

ضرورة الإسراء والمعراج:

وهنا يجدر بنا أن نقف وقفة أيضاً، لأنه لا يجوز لنا أن نجاوز هذا الحدث الهام دون أن نتأمله ونستجلي أبعاده. إن حادثة الإسراء والمعراج التي امتحن الله سبحانه بها الناس فآمن بها من آمن وكذب من كذب كانت قبل الهجرة بسنة، يعني أنها كانت قبل إعلان قيام الدولة الإسلامية بسنة، وهنا يبدو لنا أهمية هذا التوقيت. إنها أحدثت في مكة هزة عنيفة، ونشاطاً غير عادي، فالنقاش فيها يدور بين كافة الفئات، ويستتبع هذا النقاش نقاشاً حول المبادئ التي نزلت على محمد ﷺ، ونتيجة لهذا النقاش وذاك يدخل في الإسلام أناس ويخرج منه أناس - كما ذكرنا - وكان هذا ضرورياً قبل إعلان قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، بل نقول: إن كشف العناصر كان لا بُدَّ منه ليعلم محمد ﷺ عندما يعلن إقامة الدولة الإسلامية مَنْ مِنَ العناصر يمكن الاعتماد عليه في بناء هذه الدولة ومن منهم يجب استبعاده، من منهم يصلح أن تُوكل إليه في بناء دولة الإسلام مهمة من الدرجة الأولى ومن منهم يصلح أن تُوكل إليه مهمة من الدرجة الثانية. ولما أذن الله تعالى لرسوله بالهجرة إلى المدينة المنورة وأمره بإقامة دولة الإسلام فيها كان سهلاً على رسول الله وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. ولذلك آتت الدولة أكلها في أقصر زمن عرفه التاريخ لدولة أن تؤتي أكلها طيباً مباركاً.

(١) أي ولم أر رجلاً صاحبكم أشبه به منه.

(٢) آدم: أسمر. الضرب: الخفيف اللحم. الجعد: المجتمع بعضه إلى بعض. الأقي: العالي قصبة الأنف.

(٣) شنوءة: قبيلة من الأزد.

(٤) الخيلان: جمع خال، وهو الشامة السوداء.

(٥) الديماس، بكسر الدال وفتحها: الحمام.

المجرة إلى المدينة المنورة

١ - متابعة البحث عن أرض للدولة الإسلامية :

عاد رسول الله ﷺ من رحلته المباركة - رحلة الإسراء والمعراج - وقد شحنت عزمته بقوة جديدة تتحطم عليها الشّمّ الراسيات ، وبدأ نشاطه في الدعوة إلى الله ، منتظراً موسم الحج ، حيث يكثر القادمون من القبائل إلى مكة . وما أن حل الموسم ووفدت القبائل ووجوه الناس حتى أخذ عليه الصلاة والسلام يطوف عليهم في أماكن نزولهم في منى ، يعرض عليهم أمره ، ويطلب منهم أمرين اثنين : أولهما : الإيمان بالله تعالى وحده ونبذ ما سواه ، من الآلهة المزيفة ، والإيمان بمحمد رسول الله ، والثاني : حماية رسول الله والدفاع عنه والوقوف في وجه من عاداه حتى يبلغ رسالة ربه .

فأتى رسول الله كندة ، وكانت تضرب خيامها في زاوية من زوايا منى وفيهم سيد لهم يقال له «مليح» ، فدعاهم إلى الله تعالى ، وطلب منهم الإيمان والنصرة والحماية ، فأبوا ذلك عليه ، فلم يستجيبوا له . ثم أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم يقال له «بيحرة بن فِراس» : والله لو أني أخذتُ هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ! ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أكون لنا الأمر من بعدك ! قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا !! لا حاجة لنا بأمرك ! فأبوا عليه .

وبذلك يعلن رسول الله إنه لا يقبل بين صفوف الدعوة انتهازياً ولا نفيعاً .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كانت أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم ، فقالوا : جاءنا فتى من قريش ، هو أحد بني عبد المطلب ، يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا ! فوضع

الشيخ يديه على رأسه ثم قال: يا بني عامر هل لها من تلافٍ، هل لذنابها من مطلب^(١)! والذي نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلي قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟ ثم قصد عليه الصلاة والسلام بني حنيفة في منازلهم فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن من العرب أقبح عليه رداً منهم.

طي مطلب النصرة:

وجد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن مطلب «النصرة» يقف حجر عثرة في وجه الاستجابة إليه، فرأى عليه الصلاة والسلام أن من السياسة طي هذا المطلب مؤقتاً إلى أن تشرب القلوب الإيمان وتشعر بحلاوته، والاكتفاء بالدعوة إلى الإيمان بالله تعالى الواحد، ونبذ عبادة ما سواه، لأن مطلب «النصرة» يعني معاداة قريش التي تعادي رسول الله ﷺ، والعرب على غير استعداد لمعاداة قريش ذات المكانة في قلوبهم من أجل محمد أو من أجل دعوته التي لم تدخل قلوبهم بعد، وهذا ما حصل بالفعل، فقد أخذ رسول الله يدعو إلى الإيمان دون أن يذكر شيئاً عن النصرة، كما سنرى ذلك فيما بعد.

٢ - التركيز على المدينة المنورة:

ولكن رسول الله لم يلبث أن تحولت أنظاره عن القوم كلهم وتركزت حول أهل المدينة المنورة لأسباب منها:

١ - إن أهل المدينة المنورة يعيشون بجوار اليهود، واليهودية دين سماوي، فلا بد من أن يكون عندهم من التفتح الفكري بتأثير الجوار ما يجعلهم أكثر من غيرهم قبولاً للإسلام، لأن أصول الأديان واحدة.

٢ - إن أرض المدينة المنورة تعتبر أصلح أرض لإقامة الدولة الإسلامية - وهي الدولة التي يعمل محمد صلوات الله عليه لإقامتها ليتمكن من تطبيق شريعة الله تطبيقاً كاملاً.

وإنما كانت المدينة أنسب أرض لأن رسول الله يعلم أن المدينة يقيم فيها طائفتان من الناس: العرب الوثنيون، واليهود الكتابيون، وبينهما نزاع وتطلع إلى السيادة، فإذا استطاع

(١) مثل يضرب لما فات من الأمر ولم يعد بالإمكان تداركه.

رسول الله أن يجذب إليه وإلى مبادئه إحدى هاتين الطائفتين أمكنه السيطرة على الموقف، وامتلاك زمام الأمور، وقدّر رسول الله أن العرب سيكونون أعون له من اليهود، لأن الحقد القومي لليهود، باعتبارهم من بني إسرائيل، سيمنعهم من الانضواء تحت راية رجل من العرب. ولذلك فإنه عليه الصلاة والسلام ما إن سمع بأن نفرًا من أهل المدينة - الخزرج - ينزلون عند العقبة حتى أسرع إليهم، وعرض عليهم الإسلام، دون أن يذكر شيئاً عن الحماية، لأنه قدّر أن طلب الحماية سيحول بينهم وبين الإسلام، وخاصة أن الخزرج كانت غارقة في بحر من الدماء في نزاعها مع الأوس - القبيلة العربية الثانية التي تسكن المدينة المنورة - فهي لا تقبل أن تزيد مشاكلها بمناصبه قريش أيضاً العداء.

وكان الخزرج وغيرهم من أهل المدينة يعلمون أنه قد قرب زمن بعثة نبي، وقد حصل عندهم هذا العلم من اليهود الذين يعيشون معهم في المدينة المنورة، فقد كان اليهود يهددون العرب دائماً ويقولون لهم: إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه، وإننا إذا ما بعث ستبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم. ولذلك فإنه ما أن كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر من الخزرج. ودعاهم إلى الله، حتى قال بعضهم لبعض: تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقكم إليه، لأنهم إن سبقوكم إليه ليقتلنكم قتل عاد وإرم. فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فنسندهم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدّقوا وهم ستة نفر من الخزرج: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، وقطبة بن عامر، ورافع بن مالك، وجابر بن عبد الله، وعقبة بن عامر. فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ.

٣ - وهناك أسباب عسكرية منها :

إن كثرة الحروب الداخلية بين أهل المدينة جعلت منها مدينة محاربة، يعني أن أهلها عندهم القدرة على حماية الدولة الإسلامية.

وإن موقعها بين حرتين الويرة في الغرب وواقم في الشرق ، وأحد وسلع في الشمال وجبل عبر في الجنوب الغربي يجعلها مدينة محصنة يصعب على العدو اقتحامها .

٤ - وهناك أسباب اقتصادية منها :

إن المدينة بلد زراعي غني بموارده ، ويحقق لأهله الاكتفاء الذاتي إلى حد كبير ، وبذلك يستطيع الصمود أمام الحصار فيما لو حوصر ، ويستطيع تأمين الموارد المالية الكافية اللازمة لنفقات الدولة الإسلامية . والمدينة واقعة على طريق المسافرين من مكة إلى الشام ، فإذا ما أقيمت دولة الإسلام فيها استطاعت هذه الدولة قطع طريق التجارة على مشركي مكة ، وفرض الحصار الاقتصادي عليها ، وقطع طريق تجارة الشام على قريش هو ضرب لتجارة اليمن أيضاً ، لأن تجار قريش كانوا يحملون سلع اليمن إلى الشام وبالعكس ، فإذا ما امتنعت عليهما تجارة أحد القطرين الشام أو اليمن امتنعت أو تأثرت بذلك تجارتهم في القطر الآخر . وسبب تقبل المدينة المنورة الإسلام بهذه السرعة ثلاثة أمور :

الأول : وضوح عقيدته ، واتفاقها مع الفطرة ، وخلوها من التعقيد ، وهذا ما جعلها تحتل القلوب عندما خلت القلوب من الأغراض الدنيئة .

الثاني : إن أهل المدينة يعيشون مع اليهود ، واليهود أرباب دين سماوي ، فلا بد وأنهم قد اطلعوا على ملامح الدين السماوي ، ورأوا الفرق بينه وبين وثنياتهم ، ولكن الذي منعهم من الدخول في اليهودية ما كانوا يجدونه من تعالي اليهود وغطرستهم ، لاعتبارهم أنفسهم أنهم شعب الله المختار ، واعتبار اليهودية دين الخاصة والصفوة من الناس ، وليس بدين الرعاع . ولا بد أن يكون قد صدر كثير من التصريح والتلميح تعبيراً للوثنيين على عبادتهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تصنع خيراً ولا تصنع شراً ، فكانت الرغبة موجودة في نفوس وثنيي المدينة في التخلص من هذا الوضع ، ولكن ما هو الدين البديل ؟ فلما وصلتهم مبادئ الإسلام وجدوها البديل الذي يفوق الوثنية واليهودية معاً ، فلم يتأخروا عن الإيمان به .

الثالث : إن المدينة كانت تعيش في بحر من الدم يعود تاريخه إلى ما قبل مائة وخمسين عاماً ، وكانت آخر دفقة من الدم أصاب رشاشها كل بيت من بيوت المدينة هي دفقة حرب بُعثت التي أطاحت برؤوس أكثر زعماء المدينة من أوس وخزرج . وكان كل من الفريقين يريد - ضمناً - أن يضع حداً لإراقة الدماء ، ولكن الأوس ترفض أن تتنازل للخزرج ،

والخزرج ترفض أن تتنازل للأوس، لما يرون في هذا التنازل من المعرة، فلما جاءت دعوة محمد ﷺ نظر الفريقان إليه على أنه المُخْلَص الذي أرسله الله ليخلص المدينة من الخلافات التي جعلتها بحراً من الدم.

(أ) بيعة العقبة الأولى على التوحيد:

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلَقَوْه بالعقبة، وهي العقبة الأولى فبايعوا رسول الله ﷺ على نحو بيعة النساء، وهي بيعة على الأخذ بمبادئ الإسلام، وليس فيها ذكر للقتال دفاعاً عن رسول الله وهم: أسعد بن زُرارة، ورافع بن مالك، وعُباد بن الصامت، وأبو الهيثم ابن التَّيهان، وعوف بن الحارث، ومعاذ بن الحارث، وذكوان بن قيس، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عباد، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر، وعويم بن ساعد. وقد ذكر لنا عباد بن الصامت رضي الله عنه تفاصيل هذه البيعة ونصها، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنّي، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب، وإن شاء غفر».

وأن المدقق في هذه البيعة يرى أنها تشمل ثلاثة أمور هي:

- الإيمان بالله الواحد، ونبذ ما سواه.

- الاستقامة في السلوك.

- الأخذ بالحق المتدقق على لسان الرسول من قرآن وسنة. ومدار الإسلام على هذه

الأمور الثلاثة.

وليس فيها ذكر للقتال دفاعاً عن رسول الله ولا عن دينه.

إرسال مصعب بن عمير إلى المدينة في مهمة سرية:

ويذكر كتاب السيرة أنه لما أراد القوم المبايعون العودة إلى بلدهم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة. فكان يصلي بهم، وذلك أن الأوس

والخروج كره أن يؤم بعضهم بعضاً لما بينهم من الخلاف والدماء .

والحقيقة أنه كانت لمصعب مهمة أخرى سياسية سرية ، هي :

أولاً: الاطلاع عن كثب على مجتمع المدينة المنورة وأحواله ، ومعرفة حقيقة شعوره تجاه الدعوة والداعي ، والتبدل الذي يطرأ على هذا الشعور ، ومعرفة الصديق والعدو ، ومن المؤتلف من الناس ومن المختلف ، والعوامل التي تؤثر في تلك المدينة . . . ليعود فيعطي رسول الله الصورة الواضحة الصادقة لهذه المدينة التي توجهت أنظار رسول الله إليها لتكون قاعدة لإقامة دولة الإسلام فيها ، وليخرج رسول الله بتقدير صحيح للموقف فيها ليتصرف بسرعة وبدقة عندما يحين وقت الرحيل إليها .

ثانياً: إعداد المؤمنين من أهل المدينة لقبول بَند «النصرة» الذي طواه رسول الله ﷺ مؤقتاً .

ب) بيعة العقبة الثانية على النصرة:

رحل مصعب بن عمير إلى المدينة المنورة مع الرهط المدنيين الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإيمان ، ومكث فيها عاماً كاملاً يصلي بالمسلمين إماماً ، ويدعو الناس برفق وأناة إلى التوحيد ويعمق الإيمان في قلوب المؤمنين ، ويغرس فيها الفدائية ، وبين أن الإيمان إن لم يكتنفه سلطة تحميه فلن يستطيع أن يؤدي رسالته الإصلاحية في الحياة ، وأن عليهم أن ينالوا شرف حماية الإيمان الذي حملوه في صدورهم ، وحماية كل داع إليه . وبعد عام - وفي موسم الحج - رجع مصعب بن عمير إلى مكة المكرمة مع من خرج من أهل المدينة المنورة إلى مكة ، ولقي مصعب رسول الله ﷺ ليلاً على انفراد ، ووضع بين يدي رسول الله جميع المعلومات التي حصل عليها عن المدينة المنورة وأهلها ، وأعلم رسول الله أن المؤمنين من أهل المدينة أصبحوا على قناعة تامة بوجوب حماية رسول الله ونصرته . وعلى ضوء هذه المعلومات التي وضعها مصعب بين يدي رسول الله استطاع عليه الصلاة والسلام أن يخرج بتقدير دقيق للموقف ، وكانت جملة هذا التقدير : أنه سيتواجد في المدينة المنورة ثلاث فئات :

الفئة الأولى: العرب من أهل المدينة ، وهذه الفئة قد استحكمت بينها العداوة ، وأكلتها الحروب .

ولضمان ذلك كله فقد اتخذ عليه الصلاة والسلام قراراً بتكوين :

أولاً: انتقال العناصر ، وتكوين جماعات الحماية :

مهمة هذه الجماعة إنجاح عملية وصول رسول الله - القائد - إلى المدينة المنورة ، وحفظ سلامته فيها ، وقمع كل تحرك يراذبه إجهاض الهجرة .
أما تكوينها : فهي تتكون من فئتين :

الفئة الأولى : فئة أهل المدينة الذين أسلموا وقدموا إلى رسول الله . بعد أن يبذلوا لرسول الله ﷺ البيعة على الحماية والنصرة ، (الأنصار) .

الفئة الثانية : فئة المؤمنين من أهل مكة (المهاجرين) الذين سيرحلون من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة .

(أ) بيعة العقبة الثالثة ، ورحيل جماعة الحماية الأولى :

كان على رسول الله ﷺ أن يتحرك بسرية تامة لئلا يكشف أمر تحركه ، وعندئذ تفسد خطته . ولذلك واعد المؤمنين من أهل المدينة المنورة للاجتماع بهم وأخذ البيعة منهم عند العقبة ، حين يمضي من ثلث الليل من ثاني أيام التشريق فخرج المؤمنون إلى ذلك الموعد مستخفين يتسللون تسلل القطا حتى اجتمعوا عند العقبة ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً ، ومعهم امرأتان من نسائهم ، نسيبة بنت كعب المازنية ، وأسماء بنت عمرو بن عدي . وحضر رسول الله ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه فيما يبدو للناظر ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له . ونظر رسول الله فرأى الجمع غفيراً ، وليس من الحكمة أن يتوجه بالكلام إلى كل هذا الجمع ، إذ من المحتمل أن يخرج منهم من لا يعي تمام الوعي أبعاد كلام رسول الله فيفسد الأمر به ، كما أنه لا بد وأن يستمع إلى رأي من يريد أن يقول شيئاً منهم ، ولو فعل ذلك لطال به المقام ، والأمر لا يحتمل التطويل ، فما أَرَادَهُ رسول الله يجب أن يتم بأقصى سرعة لئلا ينتبه المشركون إلى اجتماعهم فيفسدوا عليهم أمرهم . ولذلك طلب رسول الله من الجمع أن يخرجوا منهم اثني عشر نائباً - نقيباً - ليكلّمهم ويكلّموه ، فأخرجوا له اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وهم : أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن مالك ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت ، وثلاثة من الأوس ، وهم : أسيد بن حضير ، وسعد بن خيثمة ،

وأبو الهيثم بن التيهان. فلما جلسوا كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج - وكانت العرب تسمي هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها - إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منّعه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه، ومنّعه في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللاحق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومنّعه من قومه وبلده. فقالوا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فطلب رسول الله منهم البيعة على الإيمان والنصرة، فبايعوه.

قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في عسرناء ويسرناء، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم. وكان البراء بن معرور أشد الناس حماساً، فكان أول من أخذ بيد رسول الله وقال: «نعم، والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أئمتنا»^(١)، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة^(٢) ورثناها كابراً عن كابر. وتبعه أبو الهيثم بن التيهان، فأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حباً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسييت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟» فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدّم الدم، والهَدْم الهَدْم»^(٣)، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم، وأسالم من سالمهم!». ثم بايع الناس جميعاً.

وكانت هذه البيعة «بيعة العقبة الثالثة» وبهذه البيعة يكون رسول الله قد كون الفئة الأولى من جماعة الحماية في المدينة المنورة.

وبهذه البيعة أخذت خيوط نور تظهر في الأفق السياسي، تشير إشارة غير خفية للمخطط السياسي للرسول عليه الصلاة والسلام، وإن رسول الله لا يهدف بالهجرة من مكة إلى المدينة التخلّص من العذاب والاستهزاء، ولكنه يهدف إلى إقامة مجتمع جديد في بلد آمن تشرف عليه وتنظمه دولة تستمد نظامها من الله، تلك هي دولة الإسلام.

(١) كانوا بالأزر عن النساء.

(٢) الحلقة: السلاح كله.

(٣) الهدم: بإسكان الدال وفتحها: إهدار الدم، أي إن طلب دمكم فقد طلب دمي، وإن أهدر دمكم أهدر دمي.

الفئة الثانية: اليهود، وهي فئة غير مأمونة، قد امتلأت نفوسها حقداً على الدين الجديد - الإسلام - وهي تحاول إجهاضه بأساليبها الدنيئة، ولا أمل في اجتذاب هذه الفئة إلى حظيرة الدولة الإسلامية وإخلاص الولاء لها.

والفئة الثالثة: المهاجرون الذين سيقدمون إلى المدينة المنورة، وهي فئة أشد ما تكون ولاءً للدولة التي ستقوم في المدينة، ولكن الفقر قد خيم على هذه الفئة لأنها تركت كل ما تملك في مكة وتجمعت في المدينة لتساهم في بناء صرح الدولة الإسلامية على أرض المدينة المنورة.

وقدّر رسول الله أن أمر الدولة الإسلامية التي ستقام في المدينة المنورة لن يستقيم مع اليهود إلا بالقوة لأنهم فئة حاكمة متورة. كما قدر أن قريشاً لن يروقها قيام الدولة الإسلامية في المدينة، وفي الوقت نفسه فإن من أهداف الدولة الإسلامية محو الشرك واجتثاث جذوره، وهذا سيؤدي إلى الصدام المسلح بينها وبين السلطات التي تحمي الشرك. وبناء على هذا التقدير للموقف فقد اتخذ رسول الله ﷺ قراراً على درجة من الخطورة والسرية، وهذا القرار وإن كان قد ألمح إليه إلا أنه لم يفصح عنه في يوم من الأيام لئلا يتفشى أمره، ويتعذر تنفيذه، ويتلخص هذا القرار بما يلي:

١ - إنجاح عملية الهجرة - وهي تعني: تجميع القوة المؤمنة في الأرض التي ستقام فيها دولة الإسلام.

٢ - معالجة الوضع الداخلي في المدينة المنورة للعرب الأنصار، ولليهود، وللمهاجرين.

٣ - تصفية أعداء الدولة الإسلامية بعد استكمال الاستعداد لهذا الأمر الهام.

٥ - انتقال العناصر والقيادة إلى المدينة المنورة (الهجرة):

لكي تتم عملية الهجرة لا بد من أن تتم سلامة ثلاثة أمور:

الأمر الأول: سلامة الخروج من مكة المكرمة.

الأمر الثاني: السلامة أثناء الطريق إلى المدينة المنورة.

الأمر الثالث: سلامة الوصول إلى المدينة المنورة إلى أن يتم الاستقرار فيها.

ثم قال رسول الله ﷺ: ارفضوا إلى رحالكم. فقال له العباس بن عباد بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا! فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم. ورجع القوم إلى مضاجعهم فناموا، وما إن أشرق الصباح حتى غدت عليهم جلة قريش فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم!

فانبعث من هناك من مشركي القوم جماعة يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه، وقد صدقوا، لم يعلموه، لأن المؤمنين إنما فعلوا ما فعلوه من أمر البيعة خفية عنهم وحث الأنصار قومهم من أهل المدينة على الإسراع في الرحيل إلى المدينة المنورة بعد أن قضوا نساكهم، فرحلوا.

ولكن قريشاً لم تقعد عن تقصي خبر اجتماع أهل المدينة برسول الله، فلما تأكد لهم الخبر خرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عباد بأذاخر^(١)، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيباً. فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بشراك رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجُمَته، وكان ذا شعر كثير، فرق له رجل ممن كان معهم فقال: ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال سعد: بلى والله، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما، فهتف سعد باسمهما وذكر جوارهما، وهرع الرجل الذي رقب له يبحث عنهما، فوجدهما في المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً. قالوا: ومن هو؟ قال: سعد بن عباد. قالوا: صدق والله، إن كان ليجير لنا تجارنا، ويمنعهم أن يظلموا ببلده! قال: فجاءا فخلصا سعداً من أيديهم، فانطلقا.

(ب) رحيل جماعة الحماية الثانية:

ولما اطمأن رسول الله إلى بيعة الأنصار وإخلاصهم. أمر من كان من المسلمين في مكة بالخروج إلى المدينة سرّاً، والحقوا بإخوانهم من الأنصار ليكونوا معهم جماعة

(١) أذاخر: موضع قريب من مكة.

الحماية التي أوكلت إليها مهمة إنجاح انتقال القيادة إلى المدينة المنورة، وقال لهم: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بها». فخرجوا جماعات جماعات وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة.

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ، من المهاجرين من قريش من بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قدم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة، فلما أذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجراً. ولا يبعد أن يكون قد أوكل إليه رسول الله مهمة خاصة يقوم بأدائها في المدينة المنورة. ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة، عامر بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حنمة. ثم عبد الله بن جحش، احتمال بأهله وبأخيه عبد بن جحش^(١). ثم خرج عمر بن الخطاب، وعيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي، حتى قدما المدينة ثم تتابع المهاجرون. وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حُس وفن، إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قُحافة الصديق، رضي الله عنهما وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله في الهجرة فيقول له رسول الله: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً» فيطمع أبو بكر أن يكون رسول الله صاحبه، ولذلك ابتاع راحلتين واحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك.

ثانياً: انتقال القيادة إلى المدينة المنورة:

(أ) إنجاح خروج رسول الله من مكة:

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شبيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أن أصحاب محمد قد حلوا داراً آمنة، ووجدوا فيها من يحميهم ويدافع عنهم، ولذلك حرصوا على عدم خروج رسول الله إليهم، إلى المدينة المنورة، لأنهم قدروا أنه إذا ما خرج إليها لا يلبث أن يجمع أصحابه ويهاجمهم بهم. وتنادى زعماء قريش للاجتماع في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب

(١) عبد بن جحش هو: أبو أحمد، كان رجلاً ضريباً شاعراً ذكياً، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد.

التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها - للتشاور فيما يصنعون لمنع محمد من الخروج من مكة . واجتمع القوم في دار الندوة فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإننا ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فاجمعوا فيه رأياً . فاقترح البعض حبسه ، وتركه في محبسه حتى يموت . . . ولكن الحاضرين لم يوافقوا على هذا الرأي لأن أصحاب محمد لا بد وأن يعلموا بمكان حبسه ، ولا بد من أن يهاجموا هذا المكان ويستخرجوا محمداً منه . واقترح البعض إخراجه من مكة ليذهب إلى أي البلاد شاء ، ولا ضير على قريش من ذلك طالما قد بعدُ خطره عنهم . . . ولكن الحاضرين لم يوافقوا أيضاً على هذا الرأي ، لأن محمداً إن خرج من مكة ولقي الأمن في أي بلد كان فإنه لا يلبث أن يجمع الناس حوله بما آتاه الله من قوة في الحجة وحلاوة في المنطق وتأثير في النفوس ، ثم يهاجم بهم مكة . وانتفض من بين القوم أبو جهل بن هشام فقال : والله إن لي رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعدُ . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه . فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالدية ، وأمر الدية علينا يسير . واستحسن الحاضرون هذا الرأي ، وعزموا على تنفيذه .

وتم تعيين الرجال الذين سيقفون بباب رسول الله ويبطشون به عندما يخرج ، كما تم تعيين الوقت الذي يفدون فيه لمحاصرة بيت رسول الله . وعلم رسول الله بطريقة ما بكل ما اتفق عليه المتآمرون ، وما عزموا على تنفيذه ، وكان عليه - صلوات الله وسلامه عليه - أن يتصرف بسرعة وذكاء ليحبط المؤامرة الدنيئة ، وينجح بخروجه من مكة سالماً ليكمل مسيرة الإيمان التي بدأها .

وأسرع رسول الله ﷺ إلى أبي بكر في بيته وأسر إليه أن الله تعالى قد أذن له بالهجرة إلى المدينة المنورة ، فطلب أبو بكر من رسول الله أن يصحبه معه في هذه الرحلة المباركة وقال له : الصُّحْبَةُ يا رسول الله ، فقال رسول الله : «الصَّحْبَةُ» ، ففرح أبو بكر لذلك ، ثم قال : يا رسول الله إن هاتين راحلتين قد اشتريتهما وأعددتهما لمثل هذا اليوم . ثم تحركا إلى عبد الله بن أرقط - وكان مشركاً خبيراً بطرق الصحراء - فاستأجراه ليدلهما على الطريق ، ودفعاً إليهما الراحلتين ، وطلبا منه أن يوافيهما بهما إلى المكان وفي الزمان اللذين يخبراه بهما بواسطة رسول يأتيه من عندهما ، ثم خرجا من عنده . وأمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يلزم بيته

فلا يغادره، وعاد رسول الله ﷺ إلى بيته . وفي الساعة الموعودة قدم من أوكلت إليهم قريش حصار بيت رسول الله ﷺ ووقفوا على بابه ، حتى إن رسول الله ﷺ ليسمع حديثهم ، وكان على رسول الله ﷺ أن يمّوه عليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فقال لعلي بن أبي طالب - وكان معه في المنزل - : «يا علي نم على فراشي وتسيج^(١) ببردي هذا الحضرمي ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم» . وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ حتى إذا ما نظر أحدهم من ثقب الباب ظن أن رسول الله ﷺ ما زال نائماً في مكانه .

وما هي إلا لحظات حتى أخذ الله على أبصارهم ، واستلّ منهم الشعور ، فخرج رسول الله ﷺ من بينهم وهم لا يرونه ولا يشعرون بخروجه ، ولم ينس عليه الصلاة والسلام أن يأخذ حفنة من تراب وينثرها على رؤوسهم ، ليعلمهم أن تدبير الله فوق تدبيرهم ، ثم يخرج من بينهم وهو يتلو قوله تعالى : ﴿يَس * وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لَتَنْذِرُ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٢) . فأتاهم أت ممن لم يكن معهم فقال : «ما تنتظرون هاهنا؟» قالوا : محمداً . قال : «حَيَّيْكُمْ اللَّهُ ! والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم؟» فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ فقالوا : والله إن هذا لمحمداً نائماً عليه برده . فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا . فقام علي رضي الله عنه عن الفراش فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذي حدّثنا .

توجه رسول الله ﷺ فور خروجه من بيته إلى بيت أبي بكر الصديق وأمره بالخروج فوراً ، فخرج من خوخة في ظهر بيت أبي بكر . خرج رسول الله ﷺ مع صاحبه أبي بكر ، دون أن يعلم أحد بخروجهما غير علي بن أبي طالب وأهل بيت أبي بكر . ولم ينس رسول الله ﷺ أن يطلب من أبي بكر أن يأمر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقوله الناس فيهما ثم يأتيهما بالأخبار إلى غار ثور في المساء ، ويأمر غلامه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهائراً فيمر بها عليهما في المساء ، ويأمر ابنته أسماء بأن تحمل لهما ما يتيسر لها من الزاد .

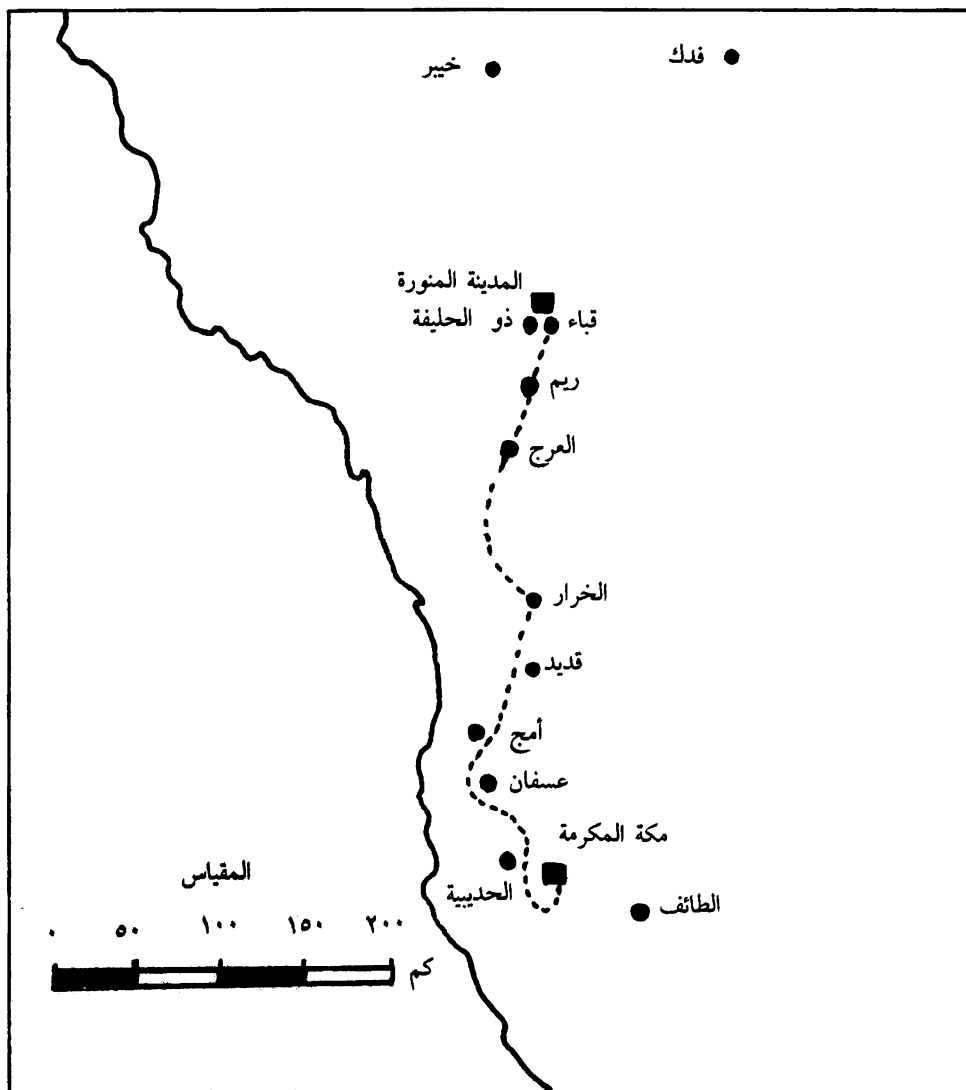
(١) أي : غط به بدنك ورأسك حتى لا يرى منك شيء تعرف به .

(٢) سورة يس ، الآيات ١ - ٩ .

(ب) إنجاح اجتياز الطريق إلى المدينة المنورة بسلام :

حيلة وحذر : خرج رسول الله مع أبي بكر الصديق من مكة المكرمة مستخفياً - كما رأينا - لا يعلم أحد بخروجهما إلا من أناط به رسول الله ﷺ مهمة تستلزم معرفته بخروجهما، وتوجها إلى غار كانا قد عيناه من قبل في جبل ثور، فأقاما فيه ثلاثة أيام، فكان عبد الله بن أبي بكر يخالط قريشاً طيلة نهاره ويسمع ما يقولون عن رسول الله، فإذا أظلم الليل خرج إلى غار ثور ليقص على رسول الله ما تكلمت به قريش، وكان عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر - يرعى غنم أبي بكر مع رعيان أهل مكة، فإذا ما أمسى المساء سار بغنمه إلى قرب غار ثور فبات هناك، ليتيح لرسول الله ولأبي بكر أن يحلبا من الغنم ويذبحا منها ما يحتاجان إليه، فإذا طلع الفجر قفل عبد الله بن أبي بكر راجعاً إلى مكة، وسار عامر بن فهيرة بالغنم خلفه ليخفي أثره. حتى إذا مضت ثلاثة أيام، وسكن الطلب عن رسول الله ﷺ أتاهما الدليل عبد الله بن أرقط بالراحتين لهما، وبراحلة له، وأتتهما أسماء بالزاد، فركب الدليل راحلته، وركب رسول الله راحلة وركب أبو بكر راحلة وأردف خلفه غلامه عامر بن فهيرة لعلهما يحتاجان إليه في الطريق. أما قريش فقد جنّ جنونها عندما علمت بإفلات رسول الله من قبضتها، وأخذت تستعمل كل وسيلة تستطيعها.

الطريق الذي سلكه الرسول ﷺ إلى المدينة : ولم يغب عن بال رسول الله أن يوجه الدليل لأن يسلك بهم طريقاً غير الطريق الذي يسلكه الناس عادة، فسلك بهما عبد الله بن أرقط طريق أسفل مكة ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عُسفان، ثم سلك بهما على أسفل أمج، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً، ثم أجاز بهما في مكانه ذلك فسلك بهما الخزار، ثم سلك بهم لِقفاً، ثم أجاز بهما مدلجة لِقف، ثم استبطن بهما مدلجة مَحاج، ثم سلك بهما مَرَجح محاج، ثم تبطن بهما مرجح من ذي العَصَوين ثم بطن ذي كَشْر، ثم أخذ بهما على الجَداجد، ثم على الأجرد ثم سلك بهما ذا سَلَم من بطن أعداء مدلجة تَعِهِن، ثم على العَبَبيد، ثم أجاز بهما الفاجّة. ثم هبط بهما العَرَج وقد أبطأ عليهما بعضُ ظهرهم، فحمل رسول الله ﷺ رجلٌ من أسلم يقال له أوس بن حَجَر، على جمل له يقال له ابن الرِّداء، إلى المدينة، وبعث معه غلاماً يقال له مسعود بن هنيذة، ثم خرج بهما دليلهما من العرج، فسلك بهما ثنية العائر عن يمين رَكوبة، حتى هبط بهما بطن رِيم، ثم قدم بهما قُباء على بني عمرو بن عوف، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الإثنين، حتى اشتد الضَّحاء وكادت الشمس تعتدل. (انظر الخريطة رقم ١).



(خريطة رقم ١)
طريق هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة

مساهمة العناية الإلهية في إنجاح اجتياز الطريق بسلام: أما قريش فقد جن جنونها عندما علمت بإفلات رسول الله ﷺ من قبضتها، فأخذت تستعمل كل وسيلة تستطيعها للعثور عليه، فهذا أبو جهل يتوجه مع مجموعة من رجال قريش إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ فقالت لا أدري والله أين أبي. فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدها لكمة طُرح منها قرطها، ثم انصرفوا. وأخذوا يبحثون عنه في كل مكان، فلما أعياهم البحث خصصوا جائزة قدرها مائة ناقة لمن يرد عليهم محمداً، ولترك الحديث إلى سراقه بن مالك يقص علينا تفصيل ذلك. قال سراقه بن مالك بن جُعشم: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم. فبينما أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت رَكبة ثلاثة مروا علي أنفاً، إني لأراهم محمداً وأصحابه. فأومأت إليه بعيني: أن اسكت. ثم قلت: إنما هم بنو فلان يتغنون ضالة لهم! قال: لعله، ثم سكت. ثم مكثت قليلاً ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي فأخرج لي من دبر حجرتي ثم أخذت قداحي التي أستقسم بها، ثم انطلقت فلبست لأمتي^(١) ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره «لا يضره»^(٢). وكنت أرجو أن أرده على قريش فأخذ المئة ناقة، فركبت على أثره، فبينما فرسي يشتد بي، عثر بي، فسقطت عنه، فقلت: ما هذا. ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره، «لا يضره». فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي، فسقطتُ عنه فقلت: ما هذا! ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره «لا يضره». فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي، فذهبت يدها في الأرض وسقطت عنه، ثم انتزع يده من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار. فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد مُنِع مني وأنه ظاهر^(٣)، فناديت القوم فقلت: أنا سراقه بن جُعشم، أنظروني أكلمكم، فوالله لا أريكم، ولا يأتكم مني شيء تكرهونه. (أقول: وهكذا ساهمت العناية في إنجاح اجتياز الرسول الطريق من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بسلام). فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: قل له

(١) اللأمة: الدرعة والسلاح.

(٢) أي المكتوب فيه هذه الكلمة.

(٣) أي غالب منتصر.

وما تبتغي منا؟ فقال ذلك أبو بكر، قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينكم، قال: اكتب له يا أبا بكر. فكتب لي كتاباً في عظم، أو في رقعة، أو في خزفة، ثم ألقاه إلي، فأخذته فجعلته في كِنَانَتِي ثم رجعت، ولما أراد الانصراف قال له رسول الله ﷺ: «كيف بك يا سراقا إذا تسورت بسواري كسرى؟» قال سراقا: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم». ومضى سراقا... قال سراقا: فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ وفرغ من حنين والطائف، خرجت ومعى الكتاب لألقاه، فلقيته بالجِعرانة^(١)، فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار، فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون: إليك إليك، ماذا تريد؟ فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، والله لكأنني أنظر في ساقه في غرزه^(٢) كأنها جُمَّارة^(٣) فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت: يا رسول الله. هذا كتابك لي! أنا سراقا بن جعشم. فقال رسول الله ﷺ: «يوم وفاء وبر، ادنه». فدنوت منه فأسلمت. ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره، إلا أني قلت: يا رسول الله، الضالة من الإبل تغشى حياضي وقد ملأتها لإبلي، هل لي من أجر في أن أسقيها؟ قال: «نعم، في كل ذات كبدٍ حرّى أجر». ثم رجعت إلى قومي فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتي.

ونحن لا نستطيع أن نمر بهذه الحادثة دون أن نعبر عن إعجابنا بتلك الثقة التي لا حدود لها بالله تبارك وتعالى، إنسان طريد شريد يلاحقه الموت في كل مكان يعد أعرابياً بسواري كسرى أعظم ملوك الأرض! وهذا الوعد يلقي ضوءاً يكشف لنا عن بعض مخطط الرسول السياسي والعسكري. إن هذا التصريح من الرسول ﷺ بأن الله سيُلبس سواري كسرى أعرابياً يعني: أن صداماً مسلحاً سينشأ بين الدولة الإسلامية ودولة فارس، وأن النصر في ذلك الصدام سيكون للدولة الإسلامية، ولكن متى سيحدث هذا الصدام؟ إن رسول الله وضع الدولة الإسلامية في وضع لا بد فيه من حدوث هذا الصدام، وقد حدث بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

(ج) إنجاح دخوله إلى المدينة المنورة:

بلغ مجموعات الحماية التي أرسلها رسول الله إلى المدينة قبله، نبأ خروج

(١) جعرانة: ماء بين الطائف ومكة.

(٢) الغرز للرحل، بمنزلة الركاب للسرّج.

(٣) قلب النخلة.

الرسول ﷺ من مكة، فجعلوا ينتظرون قدومه إليهم، فكانوا يخرجون إلى مشارف المدينة، إلى قباء ينتظرون قدومه، ويقفون هناك إلى الظهيرة، ولما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله، كان الناس قد دخلوا بيوتهم من حر الظهيرة، وإذا بصوت يهودي ينادي يا بني قيلة هذا جدكم قد جاء، فخرجوا إلى رسول الله، وأكثرهم لا يعرفه، فلم يفرقوا بين رسول الله وأبي بكر حتى رأوا أبا بكر يظله من الشمس، فعرفوا أنه رسول الله. نزل رسول الله على كلثوم بن هدم، وكان يجلس للناس في بيت سعد بن خيثمة، لأنه كان عزباً، ونزل أبو بكر الصديق على حُيَيب بن إساف.

ولم يلبث علي بن أبي طالب أن لحق برسول الله في قباء بعد أن بقي في مكة بعد خروج رسول الله منها ثلاثة أيام، رحل بعدها إلى المدينة المنورة، ولحق برسول الله في قباء، ونزل مع رسول الله على كلثوم بن هدم.

وأقام رسول الله في قباء في بني عمرو بن عوف يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، أسس خلالها مسجده المعروف اليوم في قباء والذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾^(١)، فكان رسول الله فيما بعد يخرج إلى هذا المسجد في كل أسبوع مرة فيصلي فيه ركعتين ثم يعود إلى المدينة. ثم خرج رسول الله من قباء يوم الجمعة متوجهاً نحو المدينة المنورة وجماعة الحماية من المهاجرين والأنصار على أهبة الاستعداد لمواجهة كل طارئ. فأدركت رسول الله صلاة الجمعة في الطريق، في بني سالم بن عوف فصلاها عليه الصلاة والسلام في المسجد الذي في بطن وادي رانونا ودخل رسول الله المدينة وهو يركب ناقته، والكل يعرض عليه النزول عنده، فما كان رد رسول الله غير أن يقول لهم: خلوا سبيلها - يريد ناقته - فإنها مأمورة. حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار، بركت على باب مسجده ﷺ، وهو يومئذ مبرك^(٢) لغلامين يتيمين من بني النجار - وهما في حجر معاذ بن عفراء - سهل وسهيل ابني عمرو. فلما بركت ورسول الله ﷺ عليها لم ينزل وثبت، فسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يئنها به، ثم التفتت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه، ثم تحركت وصوتت، ووضعت جرائنها^(٣)، فنزل عنها رسول الله ﷺ فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٨.

(٢) المريد: الموضع الذي يجفف فيه التمر.

(٣) الجران: ما يصيب الأرض من صدر الناقة وباطن حلقها.

رحله فوضعه في بيته ، ونزل عليه رسول الله ﷺ وسأل عن المريد : لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسُهِّل ابني عمرو ، وهما يتيमान لي وسأرضيهما منه ، فاتخذه مسجداً.

بناء المسجد في المدينة:

فأمر به رسول الله ﷺ أن يُبنى مسجداً ، ونزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب حتى بني مسجده ومسакنه ، فعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغب المسلمين في العمل فيه ، وعمل فيه المهاجرون والأنصار ، ودأبوا فيه ، فقال قائل من المسلمين :

لئن قَعَدْنَا والنبيُّ يعمل لَذَاكَ مِنَّا العملُ المضلُّ

وارتجز المسلمون ، وهم بينونه ، يقولون : «لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة ، اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة». فيقول رسول الله ﷺ : «لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار». فأقام رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب سبعة أشهر حتى بُني له مسجده ومسакنه ، ثم انتقل رسول الله من بيت أبي أيوب الأنصاري إلى مسакنه عليه الصلاة والسلام .

والذي نلاحظه أن رسول الله ما إن نزل قباء حتى بني بها مسجداً ، ولما قدم المدينة كان أول عمل قام به هو بناء المسجد ، فلماذا هذا الإصرار من رسول الله على بناء المسجد أينما حلّ؟ لأنَّ المسجد هو المكان الذي ترفع فيه الأيدي إلى السماء تستمطر الرحمات ، أم لأنه المكان الذي تربي فيه النفوس على تقوى الله وطاعته ، أم لأنه المكان الذي يلتقي فيه المسلمون فيتعارفون ويتآلفون ، أم لأنه المدرسة ، أم لأنه مقر القيادة ، أم لأنه المكان الذي ينطلق منه المجتمع الجديد وترسم فيه معالم الحضارة الجديدة ، الحقيقة إنه لهذا كله كان الرسول ﷺ مصراً على بناء المسجد أينما حلّ ، ولهذا أيضاً شارك فيه الرسول بنفسه ، ومشاركته فيه مشاركة فعالة في بناء المجتمع الجديد الذي يعمل رسول الله جاهداً على إقامته .

٦ - فرض الهجرة إلى المدينة على جميع المسلمين :

ما إن وضع رسول الله قدميه في المدينة المنورة ، وشرع في إقامة صرح الدولة الإسلامية فيها حتى فرض الهجرة على كل مسلم أينما كان من غير أصحاب الأعدار ، لأن

الدولة بحاجة إلى إمكانيات وعطاءات كل مسلم من جهد ومال وليكون المسلمون جميعاً تحت ولاية وحماية الدولة الإسلامية، غير مستضعفين في الأرض: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾^(١)، وبناء على ذلك فقد تلاحق المهاجرون إلى رسول الله حتى قال ابن إسحاق: «ولم يبق منهم في مكة أحد إلا مفتون أو محبوس» حتى إن بعض الأسر والعائلات قد أُوْعِبَتْ فخرجت برمتها إلى رسول الله وترك بيوتها في مكة خالية، ومن هؤلاء: بنو مظعون من بني جُمَح، وبنو جحش بن رِثاب حلفاء بني أمية، وبنو البُكَيْر من بني سعد بن ليث حلفاء بني عدي بن كعب وغيرهم.

(١) سورة الأنفال، الآية ٧٢.

الباب الرابع

إعلان قيام الدولة الإسلامية

ويشمل فصلين

الفصل الأول : الإعداد لإعلان قيام الدولة الإسلامية

الفصل الثاني : إعلان قيام الدولة الإسلامية سياسياً

الإعداد لإعلان قيام الدولة الإسلامية

ما إن وصل رسول الله ﷺ المدينة المنورة حتى بدأ يعد العدة لإعلان قيام الدولة الإسلامية ككيان سياسي بين الكيانات السياسية في العالم، وكسلطة وليّة لجميع من يستظلون بظلها ويعيشون بكنفها، ومهيمنة عليهم.

١ - إعداد المقر الرسمي للدولة :

وقد بدأ عليه الصلاة والسلام ببناء المسجد باعتباره المقر الرسمي للدولة، منه تصدر القوانين، وفيه تناقش الأمور، ومنه تذاع البلاغات، وفيه يفصل في الخصومات.

٢ - تسوية الأوضاع الداخلية :

بعد أن دخل رسول الله المدينة المنورة وأزمع على إقامة دولة الإسلام فيها، كان عليه أن يوجد الأمن والاستقرار في الداخل، ليتفرغ هو ومن حوله من المسلمين لبناء دولة الإسلام، ولئلا تشغلهم أو تعيقهم القلاقل الداخلية عن بناء دولة الإسلام التي تعتبر الحامي الحقيقي لدين الله، وكان في المدينة الأنصار الذين أكلتهم الخلافات التي استحكمت بين أوسهم وخزرجهم، وكان فيها اليهود وهم فئة غير مأمونة الجانب، وقد امتلأت نفوسهم حقداً على الدين الجديد، وهم يحاولون إجهاضه بأساليبهم الدنيئة المعروفة، وكان فيها المهاجرون الذين قدموا من مكة المكرمة فراراً بدينهم إلى الله.

وقد استطاع عليه الصلاة والسلام بنظره السياسي الثاقب، وحسن تديره للأمور أن يضبط الأمور ويحبك أطرافها حبكاً جعلها طوع يديه.

(أ) معالجة أمر الأنصار :

لقد شاع الإسلام بين الأنصار وانتشر، ولم تبق دار من دورهم إلا أسلم بعض أهلها.

لا يستثنى من ذلك إلا بعض البيوت القليلة، ومن المعلومات التي اجتمعت لدى رسول الله ﷺ من مصعب بن عمير وغيره، عرف رسول الله ﷺ المؤلف من القوم في المدينة والمختلف منهم، ورأى عليه الصلاة والسلام أن من الحكمة الإسراع في معالجة أمر الأنصار الذين استحكمت فيهم الخلافات معالجة جذرية، بتقسيمهم إلى خلايا متضامنة فيما بينها على الخير، ومسؤول بعضها عن بعض، ففعل ذلك رسول الله ﷺ ووضع الجميع أمام مسؤولياتهم، فلم يفلت منهم أحد، واعتبر هذه الخلايا التي يوحد بينها الإيمان بالله تعالى، وتربط بينها الأخوة الإسلامية مسؤولية مسؤولية تضامنية عن درء العدوان الكافر الواقع بالدولة الإسلامية.

وبذلك يكون عليه الصلاة والسلام قد نظم المجتمع الجديد تنظيمًا جديدًا يتفق مع القيم الإسلامية، ويخدم مصالح الدولة الإسلامية، وهو يختلف اختلافاً أساسياً عن تنظيمه القديم القائم على أساس العصبية. وكتب عليه الصلاة والسلام بذلك كتاباً وافق عليه جميع الأطراف ذات العلاقة، وهذا هو نص الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم^(١) يتعاقلون بينهم^(٢) وهم يقدون عانيهم^(٣) بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم

(١) الربعة: الحال التي وجدهم عليها الإسلام.

(٢) أي يعقل بعضهم عن بعض. والعقل: الدية.

(٣) العاني: الأسير.

الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً^(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيسة^(٢) ظلم أو إثم أو عدوان أو إفساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجبر عليهم أدانهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم. وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً. وإن المؤمنين يُبَيء^(٣) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله. وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه. وإنه لا يجبر مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط^(٤) مؤمناً قتلاً عن بيئته فإنه تَوَدُّ به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه. وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدَثاً ولا يؤويه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ.

(ب) معالجة أمر اليهود:

وعالج رسول الله أمر اليهود بمعااهدة عقدها معهم ونص هذه المعااهدة: «إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ^(٥) إلا نفسه وأهل بيته. وإن يهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني

(١) المفروح: المثل بالدين والكثير العيال.

(٢) الدسيسة: العظيمة.

(٣) إباءة به: قتله به، جعله بواء به.

(٤) اعتبطه: قتله بلا جناية توجب القتل.

(٥) يوتغ: يهلك.

عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جُشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته. وإن «جَفنة» بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطبية مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم^(١) وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحجز على ثار جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته. إلا من ظلم. وإن الله على أبر هذا^(٢). وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. وإنه لم يَأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تُجَار حرمة إلا بإذن أهلها. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره^(٣) وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه. وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم. وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة. وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم. وإن الله جار لمن بر واتفق ومحمد رسول الله ﷺ.

إن هذه المعاهدة تحوي على خمسة أمور رئيسية:

١ - اعتبار اليهود مواطنين في الدولة الإسلامية، لهم حريتهم الدينية، تحميمهم الدولة وتدافع عنهم.

(١) أي إن البر والوفاء ينبغي أن يكون حاجزاً عن الإثم.

(٢) أي إن الله وحزبه المؤمنين على الرضى به.

(٣) كان هذا قبل أن تفرض الجزية وحين كان الإسلام ضعيفاً، كان لليهود إذ ذاك نصيب في المغنم إذ ساهموا في تمويل الحروب مع المسلمين وقتلوا معهم.

٢ - على اليهود أن يساندوا الدولة الإسلامية في رد العدوان عنها .

٣ - على اليهود النصح للدولة الإسلامية ، فلا يتآمرون عليها ، ولا يخفون نبأ من يعلمون منه الكيد للدولة الإسلامية .

٤ - تفرض الإقامة الجبرية على اليهود ، ولا يجوز لهم مغادرة أماكنهم إلا بإذن من الدولة الإسلامية .

٥ - السيادة للدولة الإسلامية ، وإليها يرجع اليهود في فصل الخصومات التي تنشأ بينهم وبين المسلمين .

(ج) معالجة أمر المهاجرين :

ولما كان المهاجرون قد خرجوا من بلدهم مكة وقد تركوا فيها أموالهم ، وحلوا المدينة المنورة وليس لهم فيها بيت يأويهم ، ولا مال ينهض بحوائجهم ، فلا بد من أن يتخذ الرسول تدبيراً اقتصادياً يحل مشكلتهم إلى جانب التدابير السياسية والاجتماعية ، ولذلك آخى الرسول بينهم وبين الأنصار ، فقال عليه الصلاة والسلام : «تآخوا في الله أخوين أخوين» ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : «هذا أخي» . فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين ، ورسول رب العالمين ، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين . وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ﷺ وعم رسول الله ﷺ ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت . وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيار في الجنة ، ومعاذ بن جبل أخو بني سلمة أخوين . وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابن أبي قحافة وخارجة بن زهير أخوين . وعمر بن الخطاب وعُتبان بن مالك أخوين . وأبو عبيدة الجراح وسعد بن معاذ أخوين . وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين . والزيبر بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخوين . وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخوين . وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين . وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبي بن كعب أخوين . ومصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد أخوين . وأبو حذيفة بن عتبة وعبد بن بشر أخوين . وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين . وأبو ذر الغفاري والمنذر بن عمرو أخوين . وكان حاطب بن أبي بلعنة وعُويم بن ساعدة أخوين .

وسلمان الفارسي وأبو الدرداء أخوين . وبلال مولى أبي بكر وأبو رُوَيْحَة أخوين . وانطلاقاً من هذا الإخاء جعل الواحد من الأنصار يعطي أخاه المهاجر من ماله ما ينهض بحاجته دون عَدٍّ ولا حساب، وجعل الواحد منهم يرث الآخر بما بينهما من الأخوة التي عقدها رسول الله بينهم، واستمر الأمر كذلك إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

ففسخ التوارث بالأخوة الإسلامية، وجعل التوارث بالقرابة النسبية المشربة بالإسلام . وبذلك يكون رسول الله قد فرغ من إصلاح الأوضاع الداخلية ونشر الأمن والسلام في ربوع الدولة الإسلامية الناشئة .

٣ - استقدام جميع الكفاءات المخلصة :

نظر رسول الله فوجد أن الدولة التي ستقوم بحاجة إلى كل زند مخلص، وإلى كل فكر نظيف، وإلى كل قلب وضاء، ليساعدوا في بناء دولة الإسلام لأن دولة فتية هذا شأنها، تحمل رسالة النهضة والإصلاح إلى الإنسانية كلها لا بد لها من أن تستفيد من كل طاقة بشرية مخلصة لها . وتطلع رسول الله إلى السماء يطلب من ربه التسديد والتوجيه حتى لا تنزل به قدم، أو ينذ له فكر . . . ولم يدم الأمر طويلاً حتى نزل قول الله تعالى يفرض الهجرة إلى المدينة المنورة على كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، في أية بقعة من الأرض كان، فقال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يِهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يِهَاجِرُوا﴾^(٢) . وأعلن رسول الله عدم مسؤولية جماعة المسلمين عن كل مسلم لا يهاجر وينحاز إليهم، وعدم استحقاقه شيئاً من فيئهم، وعدم قبول حجه إذا حج حتى يهاجر إلى الله ورسوله وينضم إلى جماعة المسلمين .

(١) سورة الأنفال، الآية ٧٥ .

(٢) سورة الأنفال، الآية ٧٢ .

إعلان قيام الدولة الإسلامية سياسياً

بعد أن شَهِدَ رسول الله ﷺ المقر الرسمي للدولة الإسلامية، وأصلح الأوضاع الداخلية، واجتمع الناس لرسول الله، وجعلوا القيادة والحكم له، والكل له مطيعون، نستطيع أن نقول إن الدولة الإسلامية قد قامت بالفعل ولم يبق عليها إلا أن تخطو الخطوة التالية وهي إعلان قيامها السياسي رسمياً.

يذكر كتاب السيرة أنه لما اطمأن رسول الله بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين والأنصار، واستحكم أمر الإسلام فقامت الصلاة، وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود وفرض الحلال، وحرّم الحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهر الناس المكان المرموق، جعل رسول الله يفكر بطريقة يدعو بها الناس إلى الصلاة، وقد كان الناس حتى ذلك الحين يأتون إلى الصلاة حين يحين وقتها دون دعوة، ورأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة رضي الله عنه اهتمام رسول الله بهذا، فأهمه ما أهم رسول الله، فنام ليلة، وهو مستقر في تفكيره بهذا، ثم استيقظ ليهرع إلى رسول الله ويقول له: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف. مر بي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعوه به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله. حي على الصلاة، حي على الفلاح. حي على الفلاح. الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله. فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها، فإنه أئدى صوتاً منك». فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجرد رداءه، وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأي. فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد على ذلك». واستقر الأمر على هذا.

وإني مع إقرارى بهذا كله، ومع اعترافي وإيماني بأن الأذان هو دعوة للصلاة، إلا أنني

أسمع بأذنٍ داخلي صوت عقلي يقول: إن للأذان معنى آخر ومهمة أخرى غير مهمة الدعوة للصلاة، إنه إعلان رسمي صادر عن مقر الدولة الرسمي - المسجد - وبواسطة أداة إعلام رسمية - هي المؤذن الذي عينه رسول الله ﷺ، رئيس الدولة - بقيام دولة الله في الأرض بقيادة محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، بعد أن تجاوزت كل العقبات التي وضعها العتاة الظلمة في طريق قيامها، وفاق تدبير الله كل تدبير، وفاقته قوته كل قوة. تأمل إن شئت أول كلمات الأذان «الله أكبر. الله أكبر» إنها تعني أن الله تعالى أكبر من أولئك الطغاة، وأكبر من صانعي العقبات، وهو الغالب على أمره. «أشهد أن لا إله إلا الله» فلا سيادة في دولة الإسلام لغير الله، ولا حكم إلا له ﴿إِنَّ الْحَكَمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾^(١). «أشهد أن محمداً رسول الله» أسلمه الله تعالى القيادة، فليس لأحد أن ينزعها منه، فهو ماضٍ بها إلى أن يُكمل الله دينه، بما ينزله على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إياه من سنة. «حي على الصلاة، حي على الفلاح» أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدولة التي أخلصت لله، وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين الإنسان وخالقه، وتمتين العلاقة بين الإنسان والإنسان على أساس من القيم الإنسانية السامية. «قد قامت الصلاة» نعم قد قامت الصلاة بقيام هذه الدولة، ولولا قيامها لما جرؤ أحد على عبادة الله. «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله» ثم يعود ليؤكد في نهاية الأذان أن السيادة في دولة الإسلام لله تعالى وحده، وأن الحكم فيها لشريعته.

(١) سورة الأنعام، الآية ٥٧.

الباب الخامس

بدء الصراع وتصفية الكيانات السياسيّة المضادّة

ويشتمل على فصول :

الفصل الأول : تقدير الموقف واتخاذ القرار

الفصل الثاني : تصفية الكيان السياسي ليهود بني قينقاع

الفصل الثالث : تصفية الكيان السياسي لبني النضير

الفصل الرابع : تصفية بني قريظة

الفصل الخامس : تصفية الكيان السياسي لبني المصطلق

الفصل السادس : تصفية الكيان السياسي لخير وبقية اليهود

الفصل السابع : تصفية الكيان السياسي للمشركين

الفصل الثامن : فتح جبهة القتال مع الروم

الفصل التاسع : إسلام أهل الطائف

تقدير الموقف واتخاذ القرار

بعد أن تم لرسول الله ﷺ الإصلاح الداخلي ولمس الاستقرار فيه، توجه عليه الصلاة والسلام إلى تقدير الموقف الخارجي تجاه دولة الإسلام.

وأول ما يجب أن يعرفه في تقدير الموقف: الصديق والعدو، وقد قدر رسول الله ﷺ الموقف بما يلي:

أولاً: الصديق: وقد تبين لرسول الله أن الصديق في حكم المعدم، لأن النجاشي - ملك الحبشة - رغم إيمانه بالرسول ﷺ لا يستطيع أن يقدم للرسول أية معونة نظراً لبعده الشقة ما بينهما، ولأن شعبة على خلافه في قضية الإيمان بمحمد كرسول من عند الله، وقد رأينا كيف أن بطارقه قد نخلوا عندما قال ما قال مثنياً على رسول الله ودعوته، فصداقته لا تعدو أن تكون صداقة شخصية لا تجدي فتيلاً.

ثانياً: العدو: وقد وجد عليه الصلاة والسلام أن العدو يتألف من:

(أ) اليهود: في المدينة المنورة وما حولها، لأن رسول الله ﷺ حول عصا القيادة عنهم إلى غيرهم من المسلمين، ولأن دينه نسخ دينهم، فهم عدو، ولكنهم عدو ذكي داهية، ولذلك فإن تصفية هذا العدو يتطلب تخطيطاً خاصاً، وهذا ما فعله عليه الصلاة والسلام، فقد جعل تصفيتهم على مراحل، على خلاف تصفيته للعرب المشركين، كما سنرى، وقد استطاع عليه الصلاة والسلام بنظره السياسي البعيد أن يجمد عداوتهم للدولة الإسلامية، واحتمل ما ظهر منهم من محاولات خبيثة، انتظاراً منه لليوم الموعود، لأن كل شيء عند رسول الله ﷺ يتم بقدر.

(ب) والمشركون: المنتشرون في أنحاء الجزيرة العربية، وقد ظهرت عداوة هؤلاء منذ أن دعا رسول الله ﷺ إلى نبذ الأصنام وعبادة الله الواحد.

(ج) وأفراد لا يحملون السيف في وجه رسول الله ﷺ ولكنهم يعملون خلف الكواليس ويدفعون من يحمل السيف في وجهه.

(د) وفارس والروم : ورغم أن هؤلاء لم تظهر عداوتهم بعد ، ولكن لا بد وأن تظهر ، لأنهم لن يسرهم أن تقوم بجوارهم دولة حديثة قوية ، يسودها العدل والإنصاف ، لما لها من الخطر عليهم وعلى أنظمتهم الظالمة الجائرة ، وفعلاً ما إن شعر الروم بقوة هذه الدولة الفتية حتى جمعوا لها الجموع في مؤتة ، ثم في تبوك ، ثم حشدوا لها الجيوش ونازلوها في أماكن عدة .

وقد أشعر رسول الله أصحابه بعداوة هؤلاء ، وأن الواقعة بينهم وبين المسلمين لا بدّ واقعة ، عندما ضرب بمعوله صخرة أثناء مساعدته في حفر خندق المدينة فتطاير الشرر منه فقال : فتحت عليكم بلاد فارس . . . فتحت عليكم بلاد الروم . . . ولم يكن الناس آنذاك يفكرون بعداوة هؤلاء ، ولكن الرسول بنظره السياسي الثاقب أدرك هذا كله منذ أن أخذ بالتخطيط لدولة الإسلام في المدينة المنورة .

اتخاذ القرار :

انطلاقاً من هذا التقدير الدقيق للموقف اتخذ رسول الله قراراً هو على غاية من الأهمية ، كما أنه على غاية من السرية ، إذ ليس من المعقول أن يعلن رسول الله عن قراره هذا ، لأنه يعتبر سراً من الأسرار العسكرية والسياسية التي لا يجوز أن يطلع عليها أقرب المقربين ، وقد انكشف لنا هذا القرار من دراسة سيرة الرسول ﷺ ، ودراسة الحركة التي كان يحركها دولته بجميع أجهزتها . ويتلخص هذا القرار بالعمل على تصفية الكيانات السياسية لخصوص الدولة الإسلامية بمعدل كيان واحد في كل سنة ، والبدء بتصفية الكيانات السياسية لليهود باعتبارهم أشد خطراً من غيرهم ، لأمرين اثنين :

الأول : إن تصفية كياناتهم السياسية يعتبر جزءاً من الإصلاحات الداخلية ، فهم يعيشون بين المسلمين في المدينة المنورة ، ولا يتوانون عن إشعال نار الفتنة بينهم بين وقت وآخر .

الثاني : أنهم يعتمدون أسلوب المكر والخداع والتآمر ، ولذلك كان الخلاص منهم مقدماً على الخلاص من غيرهم . ثم تصفية الكيان السياسي للمشركين . ثم البدء بتصفية الكيان السياسي لدولتي الفرس والروم ولتحقيق ذلك لا بد من القيام بما يلي :

(أولاً) المراقبة المستمرة لتحركات العدو فقد كان عليه الصلاة والسلام دائم

الاستطلاع لأخبار العدو، فكان يجهز السرايا الخاصة لهذه الغاية، فقد أرسل سرية عبيدة بن الحارث في ثمانين راكباً وعين لها خط سير معين، فخرجت حتى بلغت ثنية المرقم ثم عادت فأخبرت رسول الله بما رأت، وأرسل سرية حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين راكباً إلى شاطئ البحر، وعين لها خط سير معين، فذهبت، ثم عادت فأخبرت رسول الله بما رأت، وأرسل سرية سعد بن أبي وقاص في ستين راكباً فخرج حتى بلغ الخرار - من الحجاز - وعاد، فأخبر رسول الله بما رأى، وأرسل سرية عبد الله بن جحش في نحو من ستين راكباً وزوده بمهمة رصد تحركات العدو... فذهب، ثم عاد فأخبر رسول الله بما رأى، ولم تكن مهمة هذه السرايا وأمثالها مهمة قتالية، بل دليل أنها لم تقاتل عندما اصطدم بعضها بقوات قريش، وإنما كانت مهمتها استطلاعية بحتة.

وبهذا الاستطلاع النشط والدائم، وبما كان يبثه عليه الصلاة والسلام من العيون السرية هنا وهناك استطاع رسول الله أن يحيط علماً بأخبار العدو، ويتصرف على ضوء ما يتجمع لديه من المعلومات.

ثانياً: تثبيت وتجميد أكبر عدد ممكن من أطراف العدو بعقد مواعيد - هدنة - معها، وبذلك تقلص قوة العدو، ويسهل القضاء عليه في الوقت المعلوم، وقد عقد الرسول العديد من هذه المواعيد نذكر من ذلك: موادة جميع طوائف اليهود في المدينة المنورة وما جاورها، وموادة بني ضمرة عندما خرج في غزوة وذان، وموادة بني مدلج عندما خرج في غزوة العشيرة، وموادة قريش في الخديبية، وموادة غيرهم... وغيرهم...

ثالثاً: القيام ببعض المناوشات الجانية، الغاية من ذلك إرباك العدو من جهة، وإثبات الذات وتقوية معنويات المسلمين من جهة أخرى، وفي اعتقادي أن غزوة بدر رغم ما تمخضت عنه من نتائج خطيرة هي من هذا القبيل، وكذلك غزوة ذي أمر، وغزوة الضرع، وسرية زيد بن حارثة إلى القرّة، وغيرها من الغزوات.

ولو أن رسول الله لم يقم بمثل هذه المناوشات الجانية التي تظهر قوة دولة الإسلام في المدينة، لنهشت القبائل المدينة المنورة وتقاسمتها مَرعاً. إن هذه الانتصارات الجزئية التي كان يحققها المسلمون كانت تقوي معنويات المسلمين، وتعدّهم نفسياً للوقائع الحاسمة التي يخطط لها الرسول بدقة وسرية فائقتين. وخلال ذلك كان رسول الله مضطراً لصد الهجمات التي توجه لدولة الإسلام، وكان من أبرز هذه الهجمات، هجوم يوم أحد، وهجوم يوم الأحزاب.

رابعاً: تصفية الذين يعملون وراء الكواليس، ويؤججون نار الفتنة، إفرادياً، بسلسلة من الاغتيالات، أو الإعدام الفردي، وبناء على ذلك فقد أرسل رسول الله من يغتال كعب بن الأشرف، وسلام بن أبي الحقيق، وخالد بن سفيان بن بيتع، والأسود العنسي، وأبا سفيان بن حرب، وأبا عزة الشاعر، وعصماء بنت مروان، وأبا عفيك، وغيرهم، فمنهم من نجح رسول الله في قتله ومنهم من لم ينجح.

وخلال ذلك أيضاً كان عليه أن يعد قواته المسلحة إعداداً يضمن لها النصر في المعارك الفاصلة التي يخطط لها الرسول صلوات الله وسلامه عليه وقد تناول هذا الإعداد ثلاثة ميادين:

الميدان الأول: ميدان القوة البشرية للجيش، وفي هذا الميدان عمل رسول الله على تحقيق شعار «الجيش هو الشعب» فنجح في ذلك نجاحاً يعتبر أسطورة التاريخ، فقد كان الرجال والنساء والأطفال في دولة الرسول محاربين من الطراز الأول، وتذكر لنا أحداث تبوك أنه عليه الصلاة والسلام عندما أعلن الاستنفار العام لم يتخلف عنه إلا الثلاثة الذين قص الله علينا قصتهم في القرآن الكريم، وهذا يدل على أن الشعب جيش كله، وأجندني في غنى عن ذكر تسابق الأطفال للالتحاق بالجيش السائر إلى الحرب، لأن أمرهم أصبح معروفاً.

الميدان الثاني: ميدان الإعداد المعنوي. وقد أقامه عليه الصلاة والسلام على ثلاثة أركان:

الركن الأول: إيمان الجيش بالقضية التي يقاتل من أجلها، وقد نجح عليه الصلاة والسلام في غرس هذا الإيمان في القلوب، حتى كان النغم الشادي الذي تعزفه أوتار قلب كل مؤمن، فقد آمن الصحابة بالله رباً وبالاسلام نظاماً متقدماً للبشرية من الظلم الواقع بهم، الظلم السياسي، والظلم الاجتماعي، والظلم الاقتصادي، ومن الظلمات التي أحاطت بهم، ظلمات في العقيدة، وظلمات في العقل، فضحوا في سبيل ذلك بكل غال ونفيس.

الركن الثاني: تحقيق كرامة المواطن في دولة الإسلام وعلى أرض الإسلام، فلا مظلوم ولا مشرد، ولا جائع، ولا عار، ومن مات وترك مالا فلورثته ومن ترك كلاً أو عيالاً فعلى الدولة الإسلامية، والمسلمون سواء كأسنان المشط يسعى بذمتهم أدناهم، ولا فضل لواحد على آخر إلا بمقدار ما يكتنه من إخلاص وما يحقق من عمل صالح... إن دولة تعطي

كل هذا للمواطن، وفي ذلك العصر بالذات، يفديها المواطن بدمه وماله وولده، ويدافع عن
كيانها، ويبذل لامتداد ظلالها على المعمورة كل ما يملك.

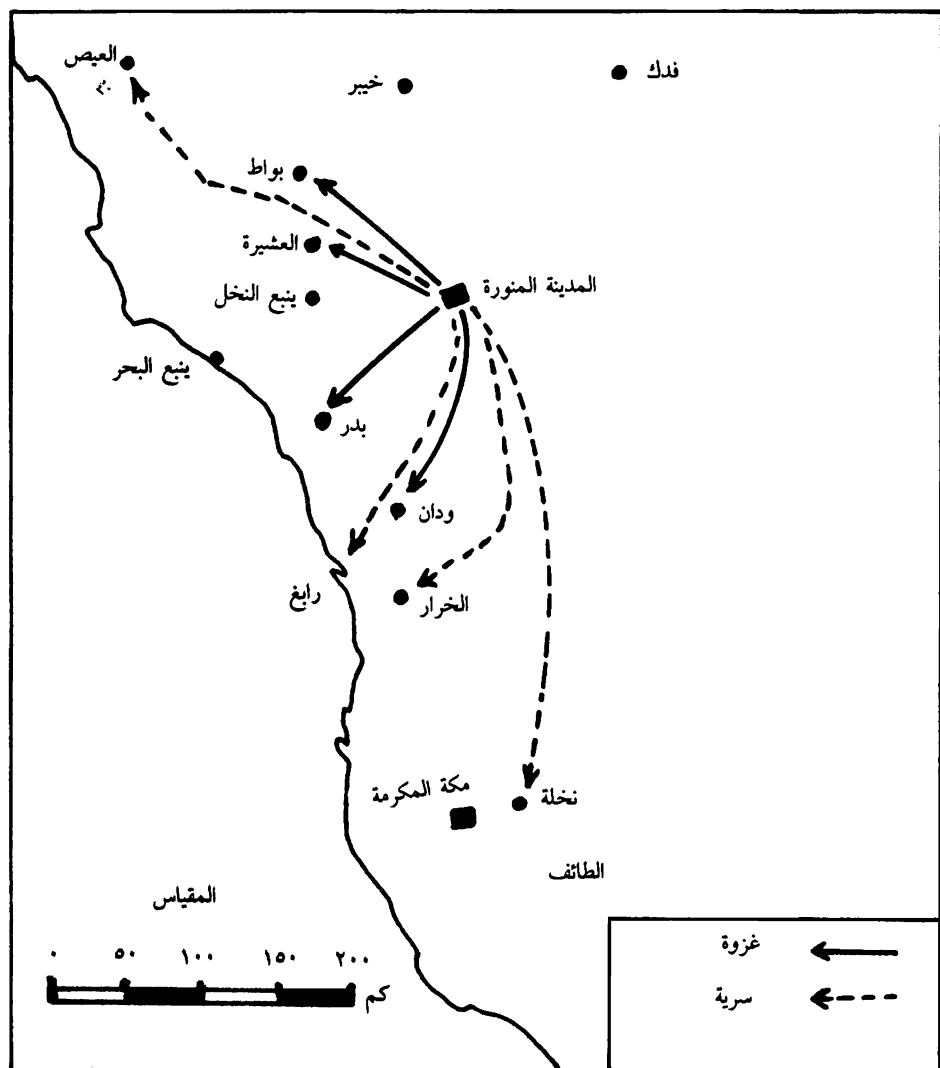
الركن الثالث: هجر الفواحش والإقبال على الله، لأن الله لا يخيّب من أقبل عليه:
﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ تَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(١).

الميدان الثالث: ميدان إعداد السلاح والعتاد الحربي. وفي هذا الميدان عمل رسول
الله على تصنيع السلاح محلياً، لئلا يتحكم به أحد في الساعة الحرجة، وقد أرسل عروة بن
مسعود، وغيلان بن سلمة إلى جرش - الأردن - ليتعلما صناعة العرادات والدبابات
والمنجنقات، وهي أضخم الآلات الحربية آنذاك. وكان يحشد للعدو السلاح المؤثر
الفعال، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(٢) وقد استخدم الرسول
الدبابات والعرادات والمنجنقات في حروبه في الطائف. وكانت تعتبر الخيل من أهم أدوات
الجهاد، ولذلك فقد شجع الرسول على اقتنائها، وجعلها من أفضل ما يكسب الإنسان،
وجعل الخير معقوداً بنواصيها فقال: «الخيْلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»^(٣)
ومن هنا كان عمر يتخذ في كل بلد قوة احتياطية من الخيل فكان له في كل من البصرة والكوفة
أربعمائة فرس. هذا هو الجيش الذي أعده محمد صلوات الله عليه وسلامه ليكون أداة لتنفيذ
مخططة العسكري، لإقامة دولة الإسلام.

(١) سورة محمد، الآية ٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

(٣) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن حنبل بألفاظ مختلفة.



(خريطة رقم ٢)

الغزوات والسرايا منذ وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة وحتى غزوة بني قينقاع

الفصل الثاني

تصفية الكيان السياسي لبني قينقاع

ويشتمل هذا الفصل على مبحثين :

المبحث الأول : التمهيد للتصفية السياسية لبني قينقاع

المبحث الثاني : التصفية السياسية لبني قينقاع

المبحث الأول : التمهيد للتصفية السياسية لبني قينقاع (من اليهود)

كان على رسول الله ﷺ أن يقوم بسلسلة أعمال عسكرية قبل أن يشن هجومه على بني قينقاع، وكان القصد من هذه الأعمال العسكرية . مراقبة تحركات العدو من جهة ، وفرض هيبة الدولة الإسلامية في الصحراء العربية ، من جهة أخرى ، حتى إذا ما ضرب رسول الله بني قينقاع لا يجروا أحد على التحرك لمناصرتهم . وتمثل هذه التحركات العسكرية بما يلي :

١ - سرية حمزة إلى شاطئ البحر :

دخل رسول الله ﷺ المدينة المنورة في شهر ربيع الأول ، فأقام فيها قرابة ستة أشهر يصلح أوضاعها الداخلية ، وينشئ القوة المسلحة فيها ، ولما استقام له ذلك جهز سرية في شهر رمضان المبارك لعمه حمزة بن عبد المطلب إلى شاطئ البحر من ناحية العيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، ليعترض عيراً لقريش تحمل تجارتها ، بقصد إرباك العدو وإيقاع الاضطراب في صفوفه ، فسار حمزة بالسرية فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني ، وكان مجدي موادعاً للفريقين ، فانصرف القوم بعضهم عن بعض ، ولم يكن بينهم قتال .

٢ - سرية عبيد بن الحارث :

وفي الشهر التالي ، في شوال جهز رسول الله سرية لعبيدة بن الحارث في ستين راكباً

من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، ليعترض عيراً لقريش تحمل تجارتها، بقصد إرباك العدو وإيقاع الاضطراب في صفوفه، فسار بهم عبيدة حتى بلغ ماء بأسفل ثنية المرة، فلقي بها جمعاً عظيماً من قريش يقدر بمائتي رجل، فلم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قد رُمي بسهم يومئذ، فكان أول من رُمي بسهم في الإسلام.

٣ - سرية سعد بن أبي وقاص :

وفي الشهر التالي، في ذي القعدة، جهز رسول الله سرية لسعد بن أبي وقاص في عشرين رجلاً من المهاجرين ليعترض عيراً لقريش تحمل تجارتها بقصد إرباك العدو وإيقاع الاضطراب في صفوفه، فخرج بهم سيراً على الأقدام حتى بلغ الخَرَار من أرض الحجاز، فوجدوا أن العير قد مرت بالأمس، فرجع ولم يلق كيداً.

٤ - غزوة ودّان^(١) :

ثم خرج رسول الله ﷺ في صفر على رأس جماعة من أصحابه ليعترض عيراً لقريش، وهذه الغزوة ذات هدفين :

الأول: إرباك العدو. والثاني: عقد مودعة مع بعض قبائل العرب، تثبيتاً لبعض أطراف العداء ليسهل القضاء على بقية الأطراف الأخرى، ولذلك أظهر رسول الله أنه يريد قريشاً وبني ضمرة، فسار رسول الله بجيشه حتى بلغ ودّان، وهي غزوة «الأبواء» فوادعته بنو ضمرة، ثم رجع رسول الله إلى المدينة ولم يلق كيداً، فأقام فيها صفر وصدرًا من شهر ربيع الأول.

٥ - غزوة بواط^(٢) :

في شهر ربيع الأول سمع رسول الله بعير لقريش تحمل تجارتها، عليها أمية بن خلف، فخرج رسول الله ﷺ إليها تنفيذاً للمخطط الذي وضعه لإرباك العدو، وسار بجيشه

(١) ودان: قرية بين مكة والمدينة، وبينها وبين الأبواء ستة أميال تقريباً. وغزوة ودان هي أول الأعمال العسكرية التي حدثت في السنة الثانية للهجرة.

(٢) جبل قرب ينبع.

حتى بلغ بواط من ناحية رضوى، فوجد أن العير قد جازت، فرجع إلى المدينة المنورة، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر، وبعض جمادى الأولى.

٦ - غزوة العُشيرة:

وفي جمادى الأولى خرج رسول الله ﷺ بمائة وخمسين راكباً من المهاجرين ليعترض عيراً لقريش تحمل تجارتها، تنفيذاً لخطة الإرياك التي رسمها عليه الصلاة والسلام. فسار بهم حتى نزل العُشيرة من بطن ينبع، فوجد أن التجارة قد جازت، فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، وواعد فيها بني مُدَلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً.

٧ - غزوة سفوان (بدر الأولى):

ولم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم من غزوة العُشيرة إلا ليالي قلائل لا تبلغ العشر، حتى أغار كُرْز بن جابر الفهري على سرح المدينة^(١) فخرج رسول الله ﷺ في طلبه دفاعاً عن البيضة، وتاديباً للمعتدي حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر، وفاته كرز بن جابر فلم يدركه، وهي غزوة بدر الأولى، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فأقام بها بقية جمادى الآخر ورجباً.

وهذه الغزوة وإن كانت ردة فعل، إلا أنها أفهمت أعداء الدولة الإسلامية أن هذه الدولة لا تقبل أن تستباح حرمتها دون أن تتأثر لكرامتها وترد بالقوة اعتبارها.

٨ - سرية عبد الله بن جحش:

ما إن عاد رسول الله ﷺ من غزوة سفوان - في رجب - حتى بعث عبد الله بن جحش وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً. فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل «نخلة» بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم. فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة. ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول

(١) السرح: الإبل والمواشي تسرح للرعي بالغداة.

الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتية منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ. فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلف منهم أحد.

وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدنٍ فوق الفُرج يقال له: بخران، أضلَّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بغيراً لهما كانا يتعقبانه، فتخلفا عن عبد الله، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة. فمرت به غير لقريش تحمل زيبياً وأدماً وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو ابن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله، والحكم بن كيسان، فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه فلما رآوه آمنوا وقالوا: عُمَارٌ لا بأس عليكم منهم. وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعنَّ منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام! فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم. فرمى واقد بن عبد الله التيمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وهرب نوفل بن عبد الله من القوم فأعجزهم إدراكه، وأقبل عبد الله بن جحش بالغير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً». فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدي القوم وظنوا أنهم هلكوا، وعنفهم إخوانهم المسلمون فيما صنعوا. وقالت قريش: قد استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال! فقال من يردَّ عليهم من المسلمين، ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان. فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾. ^(١) أي إن كنتم قاتلتم في الشهر الحرام فإن المشركين قد كفروا بالله، وانتهكوا حرمة المسجد الحرام بإخراجكم منه وأنتم أهله، وعذبوكم حتى يردوكم إلى الشرك، وهذا

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٧.

أكبر من القتال في الشهر الحرام، فما بالهم يعيون عليكم الأدنى وقد اقترفوا هم الأكبر؟! . فلما نزل القرآن بهذا من الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، فقال رسول الله ﷺ: «لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا - يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان - فإننا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم». فقدم سعد وعتبة، فأفادهما رسول الله ﷺ منهم.

وهذا يدل على مشروعية المعاملة بالمثل في القتال والأسرى، فإن قتلوا أسرارنا قتلنا أسرارهم، وإن فادوهم بالمال فديناهم بالمال، وإن استرقوهم ضربنا عليهم الرق، ومن هنا كان نظام الرق في الإسلام، إذ لا يعقل أن يسترق العدو أسرارنا ونفادي نحن أسراه، فإذا ما توقف العدو عن الاسترقاق توقفنا عنه نحن أيضاً. ومن هنا لم يكن الرق من الأنظمة الأصلية في الإسلام، بل هو تابع لقاعدة المعاملة بالمثل.

أحد الأسيرين يدخل في الإسلام:

فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله - حتى قتل يوم بدر معونة شهيداً. وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً.

٩ - غزوة بدر الكبرى:

(أ) سببها:

سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش، وتجارة من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون، منهم: مخرمة بن نوفل، وعمرو بن العاص. فندب المسلمين إليهم وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنفلكموها. فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً، هذا هو سبب هذه الغزوة.

(ب) أما غايتها فهي:

ضرب الحصار الاقتصادي على العدو وإرباكه وإيقاع الاضطراب بين صفوفه. وبذلك يظهر لنا أن هذه الغزوة على ما لها من أثر بالغ لم تكن من الغزوات الرئيسة في مخطط

الرسول عليه الصلاة والسلام لأن الغزوات الرئيسة هي الغزوات التصفوية التي قام بها عليه الصلاة والسلام.

(ج) استنفار قريش :

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس. حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك! فاحذَرْ ذلك، فاستأجر ضَمْضَمَ بن عمرو الغافري فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضَمْضَمُ بن عمرو سريعاً إلى مكة، فلما قرب منها جدع أنف بعيره، وحول رحله، وشق قميصه، ثم أقبل على الناس وهو يلطم وجهه ويصيح: يا معشر قريش: اللطيمة اللطيمة... أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد مع أصحابه، لا أرى أن تدركوها... الفوت الفوت... فتجهز الناس سراعاً وقالوا: أیظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي^(١) كلا والله ليعلمن غير ذلك! فكانوا بين رجلين: إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً، وأوعبت قريش، فلم يتخلف من أشرافها أحد، إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب، تخلف وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة. أما أمية بن خلف فقد كان أجمع القعود، وكان شيخاً ~~جديلاً~~ جسيماً ثقیلاً، فأتاه عقبه بن أبي معيط، وهو جالس في المسجد بين ظهري قومه، بمجمره يحملها فيها نار ومَجْمَرٌ حتى وضعها بين يديه ثم قال: يا أبا علي، استجمر، فإنما أنت من النساء. قال: قبحك الله وقبح ما جئت به! ثم تجهز فخرج مع الناس.

(د) خروج الرسول ﷺ إليهم :

وخرج رسول الله ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان، في أصحابه وقد بلغ عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً واستعمل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس، ثم رد أبا لبابة من الزَّوْحاء واستعمله على المدينة. ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب، يقال لها العقاب، والأخرى مع

(١) هو عمرو بن الحضرمي الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش. انظر رقم (٨) من هذا المبحث.

بعض الأنصار . وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ سبعين يتناوبون الركوب عليها فيما بينهم ، لا يختص واحد منهم بواحد منها دون غيره من المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ يثبت سرايا الاستطلاع بين يديه وعلى جانبي الطريق أثناء تقدمه لثلاث ففجأ العدو بشيء يكرهه ، ولما اقترب من بدر أرسل عليه الصلاة والسلام بَسْبَسَ بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء إليها ليستطلعا له المكان قبل وصوله إليه .

(هـ) تعرف الرسول على مدى استعداد الناس للتضحية :

وصل رسول الله ﷺ خبرُ خروج قريش بجمع عظيم لحرب المسلمين واستنقاذ التجارة منهم ، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف مقدار استعداد أصحابه من المهاجرين والأنصار للتضحية ، خاصة وأن الأنصار كانوا بايعوه على أن يمنعوهم مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ما دام فيهم ، فجمع رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم بخروج قريش إليهم ، واستشارهم في أمر ملاقة قريش؟ فقام من المهاجرين أبو بكر الصديق ، فتكلم وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(١) . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْكِ الْغِمَادِ^(٢) لجالدنا معك مَنْ دونه حتى تبلغه . فقال له رسول الله ﷺ : خيراً ودعا له . ثم قال رسول الله ﷺ : أشيروا علي أيها الناس . فقال له سعد بن معاذ زعيم الأنصار : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال : «أجل» . قال : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين»^(٣) ، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم !» .

(١) سورة المائدة ، الآية ٢٤ .

(٢) برك الغماد : موضع باليمن .

(٣) الطائفة الأولى ، طائفة عير قريش ذات التجارة العظيمة ، وفيها أبو سفيان وأبو عمرو بن العاص ، والأخرى : الطائفة التي استنفرها أبو جهل ، وكانوا ذوي شوكة وعدد .

(و) استطلاع أخبار قريش :

وأراد رسول الله أن يستطلع عدوه قبل المعركة ليعرف عدده وعدته ومكان تجمعه وغير ذلك، فنزل قريباً من بدر، فركب هو وأبو بكر الصديق حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك». قال: أذاك بذاك؟ قال: «نعم». قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله ﷺ. وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء!» ثم انصرف عنه. فقال الشيخ: ما من ماء؟ أم من ماء العراق؟.

ومن هنا نعلم مقدار حرص الرسول على سرية المعلومات العسكرية، فقد أجاز التورية للحفاظ على هذه السرية.

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه، إلى ماء بدر يلتصقون الخبر هناك، فأصابوا إبلاً لقريش فيها (أسلم) غلام بني الحجاج، وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد، فاتوا بهما فسألوهما ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما، فلما بالغوا في ضربهما قالوا: نحن لأبي سفيان. فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجديته، ثم سلم وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما. وإذا كذباكم تركتوهما؟ صدقا والله إنهما لقريش! أخبراني عن قريش؟» قالوا: هم والله وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالوا: لا ندري. قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالوا: يوماً تسعاً ويوماً عشرة. فقال رسول الله ﷺ: «القوم بين التسعمئة والألف»، ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» قالوا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبدود. فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها!». أما بسبس بن عمرو، وعدي بن أبي

الرَّغْبَاءُ اللذان بعثهما الرسول لاستطلاع مكان نزول المسلمين فقد مضيا حتى نزلا بدرأ، فأناخا إلى تل قريب من الماء، ثم ذهبا إلى الماء يستقيان، ومَجْدِيّ بن عمرو الجُهَنِي على الماء، فسمع عدي وَيَسْبَس جَارِيتَيْن من جوارِي الناس الذين نزلوا على الماء تطالب إحداهما الأخرى بدين لها عليها، وتقول الجارية المدينة لصاحبتهما: إنما تأتي العير غداً أو بعد غدٍ فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك . . قال مجدي: صدقت. ثم خلص بينهما. وسمع ذلك عدي وبسبس فجلسا على بعيرهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ، فأخبراه بما سمعا.

(ز) أبو سفيان ينصح قريشاً بالرجوع بعد نجاة التجارة:

وأقبل أبو سفيان بن حرب حتى تقدم العير حذراً حتى ورد الماء. فقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً أنكره، إلا أنني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شئٍ لهما ثم انطلقا. فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ من أبعاد بعيرهما ففته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب. فرجع إلى أصحابه سريعاً فضرب وجهه عيره عن الطريق، فساحل بها، وترك بدرأ بيسار، وانطلق حتى أسرع. ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرأ - وكان بدرٌ موسماً من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثاً. فننحر الجزور وننطمع الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا. فقارن بين هدف المشركين من خروجهم، وكيف أنه لا يرتبط بمخطط، وبين هدف المسلمين في خروجهم وارتباطه بالمخطط الذي بسطناه.

(ح) فرض المسلمين أرض المعركة على قريش:

ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي، وبعث الله السماء، وكان الوادي دهساً^(١)، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم عن السير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم

(١) الدهس: اللين لم يبلغ أن يكون رملاً.

إلى الماء. حتى إذا جاء أقرب ماء من بدر نزل به. قال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله، رأيت هذا المنزل أمتزلاً أنزلَكَهُ الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة! قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أقرب ماء من القوم فنزله، ثم نغور ما وراءه من المياه. ثم نبني عليه حوضاً فتملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فلم ير رسول الله - وهو الرسول والقائد المسدد - غضاضة من الأخذ برأي أحد جنوده طالما ظهرت المصلحة بهذا الرأي، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي، فانهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أقرب ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالمياه الأخرى فغورت، وبنى حوضاً على الماء الذي نزل عليه، فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية.

الصحابة يبنون للرسول عريشاً:

وقال سعد بن معاذ: يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا. وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشدَّ لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعى له بخير، ثم بُنيَ لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه. وارتحلت قريش حين أصبحت، فأقبلت، فلما رآها رسول الله ﷺ تنحدر من العَقَنَل - وهو الكتيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي - قال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادُّك وتكذب رسولك. اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة^(١)!. فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ، فيهم حكيم بن حزام، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم. فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل، إلا ما كان من حكيم بن حزام، فإنه لم يقتل، ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه، فكان إذا اجتهد في يمينه قال: لا والذي نجاني من يوم بدر.

(ط) استطلاعات قريش:

ولما اطمأن القوم بعثوا عُمَيْرَ بن وهب الجمحي فقالوا: احزُرْ لنا أصحاب محمد. فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمئة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون،

(١) أحنهم: أهلكتهم. حان: هلك.

ولكن أمهلوني حتى أنظر هل للقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً. ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فرّوا رأيكم.

(ي) اختلاف رؤساء قريش:

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتي عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى ألا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحقن دماءهم، والله ما لقريش مصلحة بهذه الحرب، فما أصاب محمد إلا من قريش، إخواننا وأبناء عمومتنا، فقال له عتبة: صدقت يا حكيم، وعليك بإقناع عمرو بن هشام (أبا جهل) وعامر بن الحضرمي، - وكان عمرو أخو عامر قد قتل على يد أحد أفراد سرية عبد الله بن جحش - ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تُعْرِضُوا منه ما تريدون^(١). - وانطلق حكيم إلى عمرو بن هشام - أبي جهل - فعرض عليه الأمر، فغضب أبو جهل وقال: كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبه ما قال، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلةُ جزور^(٢) وفيهم ابنه. فقد تخوّفكم عليه. ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وهذا يوم أخذ ثأرك، فقم فانشد خُفرتك^(٣) ومقتل أخيك. فقام عامر بن الحضرمي وأخذ يصرخ: واعمرّاه واعمرّاه - يندب أخاه - عمرو بن الحضرمي - فحميت الحرب، واشتد أمر الناس، واجتمعوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة.

(١) أي لم تباعدوا بينكم وبينه.

(٢) أي قليلوا العدد. وأكلة الجزور نحو المنة.

(٣) أي اطلب من قريش الوفاء بخفرتهم لك أي عهدهم، فقد كان جاراً لهم وحليفاً.

وفي صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان تراحف الناس ودنا بعضهم من بعض، فعبأ المشركون جيشهم، وعبأ رسول الله جيشه وأمر جنده ألا يقتلوا من يُظن أن رسول الله تركه في مكة ليكون عيناً له على عدوه، فقال عليه الصلاة والسلام: إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منهم أحداً فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكراً. كما أمر أصحابه قائلاً: «إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل»، وأمرهم ألا يشنوا هجومهم على المشركين حتى يأمرهم بذلك.

وعاد رسول الله ﷺ إلى العريش، مركز القيادة - ومعه أبو بكر الصديق، ونظر فرأى كثرة المشركين وقلة المسلمين، فانقطع كل أمل له من الأرض، وأيقن أنه إن لم يتداركه الله برحمته فلا ناصر له اليوم، ودخل العريش ومعه أبو بكر الصديق وجعل يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد» وجعل يلح بالدعاء حتى أشفق عليه أبو بكر وقال: يا نبي الله، بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك.

وبرز من بين صفوف المشركين عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة، حتى إذا صار بين الصفين دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة هم: عوف ومعوذ ابنا الحارث، وعبد الله بن رواحة، فرفض مبارزتهم ونادى: يا محمد أخرج لنا أكفأنا من قومنا، فأخرج له رسول الله: عبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب فبارزوهم، وقتل الله الثلاثة المشركين بأيدي الثلاثة المسلمين، والتحم الناس وحمي الوطيس. ثم خفق رسول الله خفقة وهو في العريش، ثم انتبه فقال: أبشريا أبا بكر، أذاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده، على ثنياه النقع^(١)، ويذكر العلماء أن الملائكة لم تقاتل فعلاً في غير بدر، وإنما تكون في غير بدر عدداً ومدداً لا يقاتلون. ثم نزل رسول الله من العريش إلى صفوف المجاهدين، فجعل يجول بينها ويقول: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة». فقال عُمر بن الحُمام، وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ^(٢) أفما بيني وبين أن أدخل

(١) النقع: الغبار.

(٢) كلمة تقال عند الإعجاب.

الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل. ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشاً بها ثم قال: «شاهت الوجوه!» ثم نفجهم بها، وأمر أصحابه فقال: «شدوا!» فكانت الهزيمة. فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم.

(ل) دفن قتلى المشركين :

وما إن وضعت الحرب أوزارها حتى أمر رسول الله ﷺ بجمع قتلى المشركين، فجمعوا، وعرف رسول الله ﷺ من قتل منهم ومن بقي حياً، ثم أمر بطرحهم في حفرة صنعها لهم، فطُرحوا، إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه فملأها، فذهبوا ليحركوه فترايل لحمة فأقروه وألقوا عليه ما غييه من التراب والحجارة. فلما ألقاهم في الحفرة وقف رسول الله ﷺ فسمعه أصحابه من جوف الليل وهو يقول: «يا أهل القلب - أي الحفرة - يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل - فعدد من كان منهم في القلب - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً»، فقال المسلمون: يا رسول الله، أتناذي قوماً قد جئفوا؟ قال: «ما أنتم بأقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني» وهكذا كان مصير أعداء الله، وهذا هو مصيرهم في كل عصر ومصر.

(م) تقسيم الغنائم بين المسلمين :

ثم إن رسول الله ﷺ أمر بكل ما حازه الجنود من الغنائم فُجمع، فاختلف المسلمون فيها، فقال من جمعها: هي لنا، وقال الذين يقاتلون العدو ويطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموها، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ مخافة أن يصل إليه العدو: والله ما أنتم بأحق بها منا، لقد كنا ونحن نحرس رسول الله ﷺ نرى الغنائم وما يحملها أحد، وكنا نستطيع حيازتها لو أردنا، ولكننا آثرنا حماية رسول الله ﷺ عليها، لقد خفنا أن يقتحمه العدو فقمنا دونه، فما أنتم بأحق بها منا.

وليس غريباً أن يبدو من بعض فقراء الصحابة هذا الحرص على تملك الغنائم، وهم قد بلغ منهم الفقر مبلغاً رق منه لهم رسول الله ﷺ ودعا لهم فقال: «اللهم إنهم حُفَاة

فاحملهم... اللهم إنهم عراة فاكسهم». ثم إن كل واحد منهم يعتقد أنه يطلب حقاً لا باطلاً.

ثم إن منطق الصحابة رضوان الله عليهم كان يرفض أن يحوز الإنسان المال للاستكثار منه، لأن المال عندهم لم يكن أكثر من وسيلة لتحقيق مرضاة الله، فالفقراء منهم حريصون على المال ليجاروا الأغنياء فيما ينفقون في سبيل الله، ومن هنا رأينا بعضهم يأتي رسول الله قلقاً قائلاً: «يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم...». فهم يحبون المال ليكون لهم عوناً على تحقيق مرضاة الله عز وجل. ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كتيب بين المضيق وبين النازية، فقسم هنالك الغنائم التي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء. وإنما لم يقسم رسول الله الغنائم في أرض المعركة لئلا تكون سنة، ولو قسمها لانشغل الناس بها عن اليقظة الواجبة، لما قد يستفيد منه العدو.

(ن) البشارة بالنصر :

وما إن تحقق لرسول الله النصر حتى أرسل لأهل المدينة من يشرهم به، ولما وصل رسول الله مع أصحابه المدينة المنورة أقبل عليه المسلمون يهتفون بما فتح الله عليه وعلى من معه من المسلمين، فقال لهم سلمة بن سلامة: ما الذي تهتفون به؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز ضلوعاً كالإبل المعقلة فنحرناها! فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «أي ابن أخي، أولئك الملا!».

(س) معالجة أمر الأسرى :

وسار رسول الله بالمسلمين متجهاً نحو المدينة المنورة، ومعه أسرى قريش، فلما وصل الصفراء أمر عليه الصلاة والسلام بقتل من بقي حياً من مشري نار الفتنة من قريش، ليحسم مادة الفساد، وبدأ بالنضر بن الحارث، فقتله علي بن أبي طالب. ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية أمر بقتل عتبة بن أبي معيط، فقال عتبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله: فمن للصبية يا محمد؟ قال: النار. فقتله عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري. ثم مضى رسول الله ﷺ حتى قدم المدينة قبل الأسارى بيوم، وحين قدم بالأسارى فرّقه بين أصحابه

وقال: استوصوا بالأسارى خيراً. ثم بعثت قريش في فداء الأسرى، فاستشار رسول الله أصحابه في شأنهم، فأشار عليه عمر بن الخطاب بقتلهم ووافقه في ذلك سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة، وأشار أبو بكر الصديق بفدائهم بشيء من المال، ففدى رسول الله قسماً منهم بالمال، ومن على قسم منهم دون فداء، ومن كان يجيد القراءة والكتابة منهم كان فداؤه تعليم عشرة من صبيان المسلمين.

فقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو، فلما قاولهم فيه مكرز وانتهى إلى رضاهم قالوا: هات الذي لنا قال: اجعلوا رجلي مكان رجله وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه. فخلوا سبيل سهيل، وحبسوا مكرزاً مكانه عندهم. ولما تم الفداء نزل التوجيه الإلهي في أمر الأسرى، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يَرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم^(١). وكان عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله دعني أنزع ثيبي سهيل بن عمرو، ويدلح لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً. فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً». وتلك أخلاق أراد رسول الله أن يطبع عليها أصحابه.

وقد كان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى، ختن رسول الله ﷺ وزوج ابنته زينب، وكان الإسلام فرق بين زينب حين أسلمت وبين أبي العاص بن الربيع، إلا أن رسول الله ﷺ كان لا يقدر أن يفرق بينهما فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه، حتى هاجر رسول الله ﷺ، فلما سارت قريش إلى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع فأصيب في الأسارى يوم بدر، فكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ. ولما بعث أهل مكة في فداء أسرائهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها. فلما رآها رسول الله ﷺ رقى لها رقّة شديدة وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها مالها فافعلوا». فقالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه وردوا عليها الذي لها. وأقام أبو العاص بمكة وأقامت زينب في المدينة عند رسول الله حتى فرق بينهما الإسلام. وكان مقدار الفداء الذي فرضه رسول الله عن كل فرد من المشركين يتراوح بين الألف درهم وأربعة آلاف درهم، كل على حسب حاله، إلا

(١) سورة الأنفال، الآيتان ٦٧ و٦٨.

الأسرى الفقراء الذين لا مال لهم، فإن رسول الله قد أطلق سراحهم بغير شيء، ونذكر ممن أطلقه رسول الله بغير شيء أبا العاص بن الربيع، والمطلب بن حنطب، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبا عزة، وعمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جُمح. كان محتاجاً ذابنات فكلم رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، لقد عرفت مالي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال، فامنن علي، فمن عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه ألا يظهر عليه أحداً، فقال أبو عزة في ذلك يمدح رسول الله ﷺ ويذكر فضله في قومه:

مَنْ مُبْلَغُ عَنِي الرِّسُولَ مُحَمَّدًا	بَأَنَّكَ حَقٌّ وَالْمَلِيكَ حَمِيدُ
وَأَنْتَ أَمْرٌ تَدْعُو إِلَى الْحَقِّ وَالْهَدَى	عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ الْعَظِيمِ شُهُود
وَأَنْتَ أَمْرٌ بُوئْتَ فِينَا مَبَاةً	لَهَا دَرَجَاتٌ سَهْلَةٌ وَصَعُودٌ ^(١)
فَإِنَّكَ مِنْ حَارِبَتِهِ لُمُحَارَبُ	شَقِيٍّ وَمَنْ سَالَمْتَهُ لَسَعِيدُ

١٠ - تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية:

إن خطر المحرضين على الفتنة لا يقل عن خطر الذين يستلون السيوف في الفتنة، إذ لولا هؤلاء المحرضين لما قامت الفتنة. لقد أدرك رسول الله هذا، ولذلك أخذ يتبع هؤلاء المحرضين ويقتلهم إطفاء لنار الفتنة، وتمكيناً للحق، وقد قتل منهم خلقاً بعد موقعة بدر وقبل البدء في تصفية الكيان السياسي لبني قينقاع لثلاثي يجمعوا الناس عليه منهم:

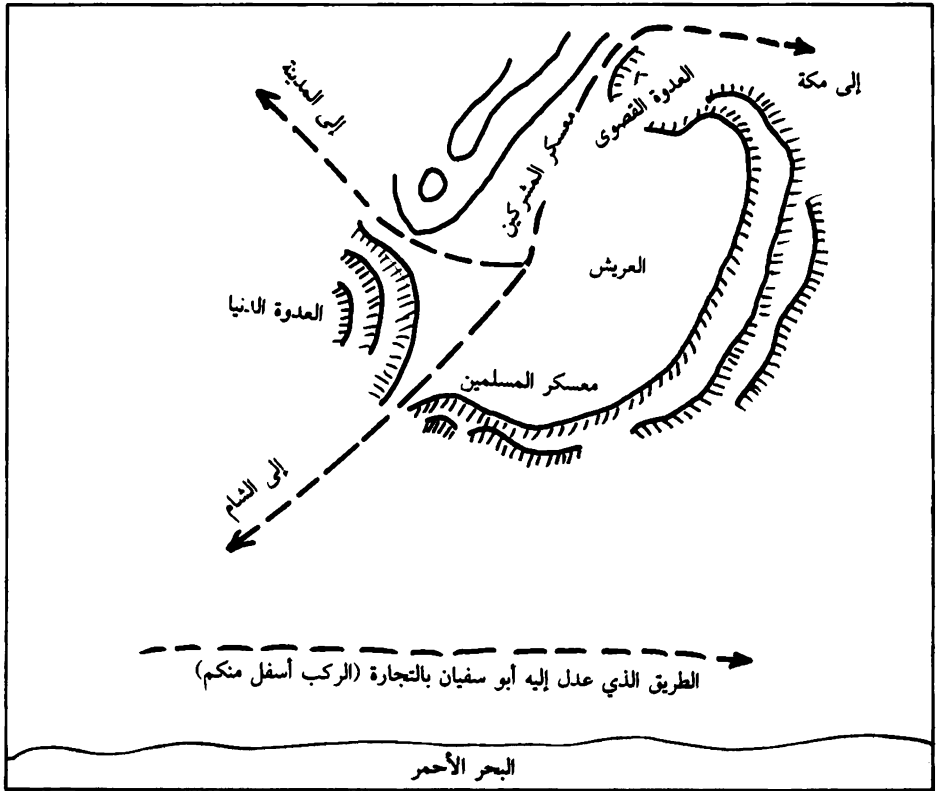
(أ) قتل عصماء بنت مروان: فما إن عاد عليه الصلاة والسلام من بدر في رمضان حتى قال: «ألا أخذ لي من ابنة مروان؟». وكانت ابنة مروان هذه تؤذي النبي وتحرض عليه وتقول الشعر، فسمع قول رسول الله ﷺ هذا عُمَيْرُ بْنُ عَدِيٍّ الْخَطَمِيِّ - وكان كفيفاً - فلما أمسى من تلك الليلة سرى عليها في بيتها فقتلها، ثم أصبح مع رسول الله، فقال: يا رسول إني قتلتها، فقال: «نصرت الله ورسوله يا عُمَيْرُ»، فقال: هل علي شيء من شأنها يا رسول الله؟ فقال: «لا ينتطح فيها عثران».

(ب) قتل أبي عفيك: وفي الشهر الثاني، شهر شوال قال رسول الله: «من لي بهذا الخبيث - أبي عفيك - وذلك أن أبا عفيك كان شيخاً كبيراً من بني عمرو بن عوف، وكان

(١) أي أنزلت فينا منزلة عظيمة.

يهودياً، يحرض على رسول الله، ويقول الشعر. ولما سمع سالم بن عمير - وهو أحد البكائين والبدرين - قول رسول الله هذا قال: عليّ نذر أن أقتل أبا عفيك أو أموت دونه، فنزل عليه فقتله.

وسوف نرى أن رسول الله ﷺ لجأ إلى هذا الأسلوب أيضاً قبل تصفية الكيان السياسي لبني النضير (انظر: الفصل الثالث، المبحث الأول، رقم ٤)، و(الفصل الثالث، المبحث الثالث، رقم ٢ و٤).



مخطط غزوة بدر

المبحث الثاني : تصفية الكيان السياسي لبني قينقاع

١ - سببها:

كان السبب الحقيقي لغزو بني قينقاع تنفيذ المخطط التصفوي الذي وضعه رسول الله ﷺ، وقد كانت هذه الغزوة أول غزوة تصفوية يقوم بها عليه الصلاة والسلام . والسبب القريب لها هو أن يهود بني قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ من كتاب المواعدة الذي كتبه فور مجيئه إلى المدينة، وقد جاء فيه : « وإن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة »، وهم لم ينصروا المسلمين عندما حاربتهم قريش في بدر، وجاء فيه أيضاً « وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم »، وها هم اليوم يعتدون على امرأة مسلمة كما سنرى . أما السبب المباشر لها فهو أن امرأة مسلمة قدمت بجلب لها، فباعته في سوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، ووقع الشر بينهم وبين بني قينقاع . فجمعهم رسول الله ﷺ في سوقهم ووعظهم وقال لهم : « يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أنني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم »، قالوا : يا محمد، إنك ترى أنا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس . وأنزل الله تعالى : « وإمّا تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين »^(١).

٢ - نزولهم على حكم رسول الله :

فسار إليهم رسول الله ﷺ بجنده ولواؤه بيد حمزة بن عبد المطلب، وحاصرهم خمس عشرة ليلة من هلال ذي القعدة، فقذف الله في قلوبهم الرعب ونزلوا على حكم رسول الله .

(١) سورة الأنفال، الآية ٥٨ .

٣- موقف حلفاء بني قينقاع :

(١) موقف ابن سلول : قام عبد الله بن أبي بن سلول - رأس المنافقين - إلى النبي حين أمكنه الله منهم فقال : يا محمد أحسن في مواليّ، فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درع رسول الله، فقال له رسول الله : «أرسلني»، وغضب رسول الله حتى رأوا لوجهه ظلالاً، ثم قال : «ويحك أرسلني»، قال : لا والله لا أرسلك حتى تُحسن في مواليّ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة! إني والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ : «هم لك»، وخلى رسول الله سبيلهم وأجلاهم عن المدينة على ألا يحملوا معهم إلا النساء والذراري، ويبقوا الأموال، فذهبوا إلى أذرعات من بلاد الشام.

وهنا لا بد لنا من بيان الوجه السياسي لسكوت رسول الله عن تصرف عبد الله بن أبي بن سلول واستجابته لطلبه فنقول :

كان عبد الله بن أبي بن سلول ذو مكانة مرموقة في المدينة المنورة، فقد قدم رسول الله المدينة وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجه عليهم، وكان له فيها أتباع كثر يضمون جميع الحاقدين والمتأمرين وبعض السفلة، وكان هؤلاء يأترون بأمره، وهو هنا يذكر أنه هب لحمايته سبعمائة مسلح منهم، وقد استطاع في يوم أحد أن يرجع إلى المدينة محتجاً على تصرف الرسول ﷺ، ويُرجع معه ثلث الناس، فأمر هذا الرجل إذن ليس باليسير، ومن تلمس الخطوات السياسية للرسول نجد أنه كان يؤثر دائماً استقرار الأمور في الداخل ويعتبره الأرضية التي ينطلق منها، لأنه إذا ما ساءت الأمور في الداخل ساء معها كل شيء، ولو لم يفض الرسول الطرف عن تصرف هذا الخبيث - ابن سلول - ولو لم يُدِّ له شيئاً من التنازلات لأهاج عليه الناس، وتلك فتنة لا يعلم مداها إلا الله، وهي ليست في صالح الدعوة قطعاً، ولذلك رأى عليه الصلاة والسلام أن مصلحة الدعوة والدولة تتطلب إجابة هذا الخبيث إلى بعض ما يطلب، لأن في هذه الإجابة الحفاظ على استتباب الأمن في الداخل. ثم علينا ألا ننسى أن هذا الخبيث كان يظهر الإسلام، ويتبعه أناس من المنافقين الذين يظهرون الإسلام، فإذا ما وقعت الواقعة كانت حرباً أهلية تجهض الدعوة الإسلامية وتقوض أركان الدولة، لأن الناظر إلى هذا القتال من الخارج يرى أن المسلمين يقتل بعضهم بعضاً، وسيشاع في أرجاء الجزيرة العربية أن محمداً يقتل أصحابه، وسيرجف بذلك المرجفون. وفي ذلك ما فيه من إساءة سمعة الدولة الإسلامية، ومن الصد عن دين الله.

(ب) موقف عبادة بن الصامت: كان بين عبادة بن الصامت وبنی قینقاع حلف كالحلف الذي بينهم وبين عبد الله بن أبي بن سلول، ولكن عبادة بن الصامت ما إن رأى رسول الله يتوجه إليهم حتى توجه إلى رسول الله ﷺ وخلعهم، وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وقال: يا رسول الله: أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من هؤلاء الكفار ولايتهم، فكان ذلك من عبادة آية الإيمان الصادق بالله وبرسوله.

(ج) نزول القرآن بعبادة وبابن سلول: ففي عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي بن سلول نزل من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ * فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين * يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * إنما وليكم الله ورسوله، والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راکعون * ومن يتولّ الله ورسوله، والذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون ﴿١﴾.

(١) سورة المائدة، الآيات ٥١ - ٥٦.

تصفية الكيان السياسي لبني النضير

بعد أن صفى رسول الله ﷺ في العام الثاني من الهجرة بني قينقاع - وهم الحي الأول من أحياء اليهود - أخذ عليه الصلاة والسلام يعد العدة لتصفية بني النضير - وهم الحي الثاني من أحياء اليهود - في العام الثاني للهجرة، ولكن ما حدث من نكسة المسلمين في أحد، واشتغال النبي ﷺ في بناء قواته المسلحة من جديد، واستعادة سيطرته على الصحراء أخرج عملية التصفية السياسية لبني النضير إلى العام الرابع من الهجرة.

وستحدث عن ذلك في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التمهيد لتصفية الكيان السياسي لبني النضير

ويشتمل البنود التالية:

١ - غزوة السويق

٢ - غزوة بني سليم

٣ - غزوة ذي أمر

٤ - اغتيال المحرضين على الدولة الإسلامية أينما كانوا

٥ - غزوة الفرع

٦ - سرية زيد بن حارثة

المبحث الثاني: النكسة (غزوة أحد)

المبحث الثالث: محاولة استعادة هبة الدولة الإسلامية بعد نكسة أحد

١ - غزوة حمراء الأسد

٢ - تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية

٣ - سرية أبي سلمة إلى بني أسد

٤ - اغتيال المحرضين على الدولة الإسلامية أينما كانوا

المبحث الرابع: طمع العدو في الدولة الإسلامية

المبحث الخامس: تصفية الكيان السياسي لبني النضير

المبحث الأول : التمهيد لتصفية الكيان السياسي لبني النضير

بعد أن صفى رسول الله الكيان السياسي لبني قينقاع كان عليه أن يقوم بعدة أعمال عسكرية يفرض فيها هيئة الدولة الإسلامية ويوقع الرهبة في قلب كل من تحدّثه نفسه بالتحرك ضد الدولة الإسلامية تمهيداً لتصفية الكيان السياسي للحبي الثاني من أحياء اليهود، حي بني النضير، وكانت جملة الأعمال العسكرية التي قام بها ما يلي :

١ - غزوة السويق (١) :

لما أصاب قريشاً ما أصابهم في بدر بأيدي المسلمين نذر أبو سفيان بن حرب - أحد زعماء قريش - ألاّ يمس رأسه ماءً من جنابة حتى يغزو محمداً. فخرج في ذي الحجة من السنة الثانية من الهجرة في مائتي فارس من قريش ليبرّ يمينه، فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له «ثيب» يبعد عن المدينة نحو بريد، ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل، فأتى حبيّ بن أخطب فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح عليه بابه وخافه، فانصرف إلى سلام بن مشكم وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كثرهم فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه، ودله على أسرار المسلمين. ثم خرج من عنده ليلاً حتى أتى أصحابه، فبعث رجالاً من قريش إلى المدينة، فأتوا ناحية منها يقال لها العريض، فحرقوا نخل المسلمين فيها، ووجدوا بها رجالاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين. ولما علم بذلك رسول الله ﷺ خرج في طلبهم واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر حتى بلغ «قرقرة الكدر» ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، وقد رأوا أزواداً من أواد القوم قد طرحوها في الحرث، يتخفون منها للنجاة، فقال المسلمون حين رجع بهم رسول الله ﷺ : يا رسول الله، أئطمع لنا أن تكون غزوة؟ قال : نعم .

٢ - غزوة بني سليم بالكدر :

لما قدم رسول الله المدينة لم يبق فيها إلا سبع ليال حتى سمع بوجود تجمع لبني سليم وغطفان في قرقرة الكدر، فجهز جيشاً من مائتي مجاهد وسار به إليهم بغية فرض هيئة الدولة

(١) سميت بذلك لأن أكثر ما طرح القوم من أزوادهم - السويق، فهجم المسلمون على كثير منه، والسويق مطحون الحنطة والشعير، ويؤكل ممزوجاً باللبن والعسل والسمن، أو بالماء.

الإسلامية، ولثلاثا يطمع فيها طامع، فسار به حتى بلغ ماء من مياههم يقال له «الكُذْر» فلم يجد أحداً، ووجد القوم قد هربوا وتركوا نعمهم، وكانت خمسمائة بعير، فأخذها رسول الله ﷺ فقسمها بين أفراد جيشه بصرار، وأقام على ذلك الماء ثلاثة أيام فلم يلق كيداً، ففقل راجعاً إلى المدينة المنورة فأقام بها بقية شوال وذا القعدة من السنة الثانية للهجرة، وأقضى في إقامته تلك جُلّ الأسارى من قريش .

٣ - غزوة ذي أمرّ:

فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوة السوق أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريباً منها، ثم غزا نجداً، يريد غطفان، وهي غزوة ذي أمر لما علم أن جمعاً من بني ثعلبة ومحارب يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله، ولكنهم ما إن سمعوا بمسير الرسول حتى هربوا. فأقام الرسول بنجد صفرأ كله أو قريباً من ذلك، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً، فلبث بها شهر ربيع الأول كله، أو إلا قليلاً منه .

٤ - تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية:

كان ~~عبد بن الأشرف~~ في المدينة فسمع بانتصار رسول الله في بدر، فثارت ثائرتة، وقال: لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها، وخرج إلى مكة يحرض قريشاً وينشد الأشعار ويبكي أصحاب القلب. ثم عاد إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فقال رسول الله: «من لي بابين الأشرف؟» فقال له محمد بن مسلم أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال: «فافعل إن قدرت على ذلك». فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال: «لِمَ تركت الطعام والشراب؟» قال: يا رسول الله، قلت لك قولاً لا أدري هل أفينّ به أم لا؟ فقال: «إنما عليك الجهد»، فقال: يا رسول الله إنه لا بد لنا أن نقول فيك قولاً قبيحاً، قال: «قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حل من ذلك».

فأنت ترى كيف أباح لهم رسول الله أن يتظاهروا بالوقعة برسول الله، ليحققوا مصلحة الدعوة بالقضاء على أعدائها، ولو عرضت هذا الأمر اليوم لأنكره كثير من مدعي العلم لجهلهم بأهداف الشريعة الغراء .

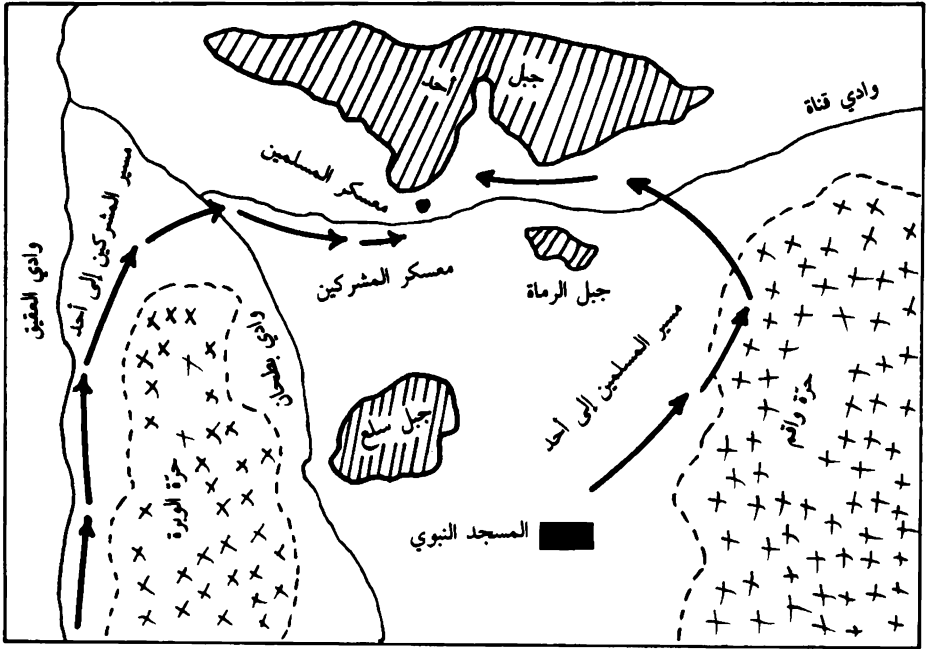
واجتمع على قتله محمد بن مسلمة وسيلكان بن سلامة وهو أبو نائلة وآخرون، فخرج إليه أبو نائلة فحادثه ولاطفه ثم قال له: إني جئت لك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتب عني، قال: أفعل، قال: كان قدوم هذا الرجل - محمد - علينا بلاء من البلاء، عادتنا به العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا. قال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنت أخبرتك أن الأمر سيصير إلى ما أقول. فقال له سيلكان: إن أردت أن تبيعنا طعماً ونرهنك سلاحاً ما فيه وفاء، فوافق كعب بن أشرف على ذلك، وذهب سيلكان فاجتمع بأصحابه عند رسول الله فوجههم رسول الله وودعهم ودعا لهم، فأقبلوا على حصن كعب في ليلة مقمرة فاستنزله منه فنزل ثم استجروه إلى ظاهر المدينة فقتلوه ثم حملوه إلى رسول الله ﷺ. وكان ذلك لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة.

٥ - غزوة الفُرْع من بُحْران:

ثم بلغ رسول الله أن جمعاً كثيراً من بني سليم قد تجمع في بُحْران فخرج إليهم رسول الله في ثلاثمائة رجل من أصحابه من ناحية الفُرْع، فوجدوهم قد تفرقوا، فأقام بها شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى من السنة الثالثة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً.

٦ - سرية زيد بن حارثة إلى القردة من مياه نجد:

لقد أثمرت سياسة الإرباك التي انتهجها عليه الصلاة والسلام، وذلك أن قريشاً خافوا طريقهم الذي كانوا يسلكونه إلى الشام، حين كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب، ومعه فضة كثيرة، وهي أكثر تجارتهم، واستأجروا رجلاً من بني بكر بن وائل يقال له فرات بن حيان، يدلهم على ذلك الطريق الجديد، ووصل رسول الله خبر ذلك بما بثه من عيون يعملون بين صفوف العدو، وبما له من استطلاع قوي، فبعث ﷺ إليهم زيد بن حارثة في جماعة من المسلمين فلقاهم على ذلك الماء، فأصاب تلك العير وما فيها، وأعجزه الرجال، فقدم بها على رسول الله ﷺ. وكان ذلك في شهر جمادى الآخرة من السنة الثالثة للهجرة وهي أول غزوة يخرج بها زيد أميراً.



مخطط غزوة أحد

المبحث الثاني : النكسة في غزوة أحد

١- سببها:

لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بن حرب بغيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، في رجال من قريش، ممن أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم يوم بدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتزكم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، فقال لهم أصحاب التجارة: المال الذي لنا في التجارة نرصده لحرب محمد وأصحاب محمد.

٢- خروج قريش لها:

استطاعت قريش أن تجمع بهذا المال من أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وكثيراً من أخلاط العرب ومن انضم إليهم، فاجتمع لها ثلاثة آلاف محارب، فخرجت بهذا الجمع لحرب رسول الله ﷺ وأخرجوا معهم النساء لئلا يفروا من القتال، فخرج أبو سفيان بن حرب - وهو قائد الناس - وزوجته هند بنت عتبة، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأمر حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود الثقفية، وخرج عمرو بن العاص برينة بنت منبه بن الحجاج. وجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى مسيرتها عكرمة ابن أبي جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية.

٣- خروج المسلمين:

وصل نبأ اجتماع قريش وإعدادهم لحرب المسلمين إلى رسول الله يوم الجمعة قبل تحرك القوم، وذلك أن العباس عم رسول الله وغيره كان عيناً لرسول الله في مكة على قريش - ولذلك رأينا أن رسول الله نهى عن قتله وعن قتل جماعة في بدر - فبعث العباس بالخبر لرسول الله، فجمع رسول الله ﷺ أصحابه واستشارهم في أمر الخروج لقتال قريش، أو التحصن في المدينة المنورة، وقصّ عليهم رؤيا رآها - ورؤيا الأنبياء حق - وكان مما قاله لهم: «إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقرأ لي تذبح، ورأيت في ذباب سيفي - أي حده - ثلماً، ورأيت إني أدخلت يدي في درع حصينة». «أما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل، وأما الدرع الحصينة فهي المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا، أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها».

وبذلك يكون رسول الله يؤثر البقاء في المدينة، وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رسول الله ﷺ يرى رأيهم في ذلك في عدم الخروج إليهم، لا لإخلاص فيه، ولكن لأنه كان يؤثر العافية. فقال رجال من المسلمين، ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره، ممن كان فاته بدر: يا رسول الله، أخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أننا جبنّا عنهم وضعفنا!، وقد كان باستطاعة رسول الله - وهو القائد المطاع - أن يجزم على أصحابه فيبقى في المدينة المنورة

ويتحصن بها، وهو لو فعل ذلك لأطاعه أصحابه؛ ولكن رسول الله ﷺ أثر مسابقة أصحابه، لأن البقاء في المدينة غير مأمون أيضاً، وربما كلفه القتال فيها كثيراً، وذلك لأن المدينة بؤرة غير صالحة ليقاتل فيها المسلمون لأن فيها كثيراً من اليهود، واليهود قد انصاعوا لرسول الله بالقوة، فليس ببعيد أن ينقضوا عليه ويغدروا به، ويكونوا عوناً لعدوه عليه، خاصة وأن اتصالاتهم مع قريش لم تقطع، هذا من جهة. ومن جهة ثانية فإن رسول الله أحب بخروجه هذا أن يعلم أصحابه أموراً كثيرة منها:

- أن من رقي سدة الحكم لا يجوز له أن يستبد برأيه، بل عليه أن يستشير، وأن يعمل بمشورة الناس، لأن نتائج تصرفاته سيتحملها الناس، فإذا ما تحملوا نتائج شاركوا هم في صنعها، وكانت خيراً كانوا أكثر بها فرحاً وأشد تمسكاً، وإن كانت شراً كان وطؤها عليهم أخف، وبقيت الهيئة للحاكم.

- أراد رسول الله أن يدرّبهم على القيادة، لأنها ستؤول إليهم بعد وفاته.

- أراد أن يضعهم أمام مسؤولياتهم، لئلا يحكموا العواطف في مصير الناس، بل العقل والمنطق.

صلى رسول الله ﷺ الجمعة، ثم دخل بيته ولبس عدة الحرب ثم خرج إلى الناس. وفيما كان رسول الله في بيته يلبس عدة الحرب تشاور الذين أصبروا على الخروج إلى القتال خارج المدينة، وقالوا فيما بينهم استكرهنا رسول الله ﷺ، ولم يكن لنا ذلك. فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأتمته أن يضعها حتى يقاتل» فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه. واستعرض رسول الله جيشه، فوجد فيه مجموعة من الأولاد الصغار، في عمر الورود، أجادوا صنعة الحرب، وحدا بهم الشوق للجنة إلى الاندساس بين صفوف المجاهدين لعلهم يشاركون في إعلاء راية الإسلام وتقويض أركان الشر في الأرض، أو يفوزون بالشهادة. واشترك الصغار في الجيش يدل على نجاح خطة رسول الله التي أشرنا إليها سابقاً في جعل الجيش هو الشعب. لقد كان من بين الأطفال المندسين بين صفوف الجيش طفلان نابغان هما سمرة بن جندب ورافع بن خديج لم يبلغا الخمس عشرة سنة من عمرهما، فأخرجهما رسول الله من بين صفوف الجيش وأمر بردهما إلى المدينة، فقبل له: يا رسول الله إن رافعاً يجيد الرماية، فأجازه ووافق على اشتراكه في الجهاد، فتقدم إليه سمرة وقال: يا رسول الله إن كان رافع رامياً فأنا أصرع رافعاً، فأجازه

رسول الله ﷺ، ورد بقية الأطفال إلى المدينة وكان منهم: أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمرو، وزيد بن ثابت، والبراء بن عازب، وعمرو بن حزم، وأسيد بن حضير، وغيرهم.

وقبل أن نسير مع الجيش الإسلامي إلى أحد لا بد لنا أن نذكر أن رسول الله لم يوافق على وجود أي عنصر من العناصر المشبوهة في جيشه، وذلك حين قال بعض الأنصار: يا رسول الله، ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟ فقال: لا حاجة لنا فيهم.

وهنا لا بد لنا من أن نتساءل لماذا رفض رسول الله الاستعانة باليهود مع حاجته الشديدة إلى العون، ومع أن بينه وبين اليهود معاهدة على النصرة مع أن رسول الله كثيراً ما كان يستعين بالكفار، فقد استعان بعبد الله بن أرقط كدليل يده على طريق المدينة، وكان عبد الله مشركاً، واستعان بالمطعم بن عدي حين دخل مكة بجواره بعد رجوعه من الطائف، واستعان بصفوان بن أمية حين أراد أن يتوجه إلى حنين فاستعار منه مائة درع وكثيراً من السلاح، واستعان بمعبد بن أبي معبد الخزاعي في حمراء الأسد حين كلفه بتخذيّل قريش عن المسلمين.

والجواب أننا لو استقرأنا هذه الاستعانات التي استعان بها رسول الله لوجدناها من نوع الاستعانة بالخبرة، أو بالعتاد الحربي ونحوه، أو الاستعانة بالحماية، ولا نجد فيها الاستعانة بالرأي ولا الاستعانة بالقتال فإنه لم يثبت أن رسول الله ﷺ قد استشار الكافرين في أمر من أمور القتال قط، ولا سمح لهم بالاشتراك معه في قتال قط.

أما عدم الاستعانة بهم بالرأي، فإننا لا نطمئن إلى رأيهم، بل ولن يُخلصوا لنا الرأي في نصرة ديننا، وأما عدم الاستعانة بهم بالقتال معنا، فلأنهم متى أصبحوا بين صفوف الجند عملوا على تخذيّلهم عن القتال، كما عمل عبد الله بن أبي بن سلول عندما خذّل طائفة عن القتال وهم في الطريق إلى أحد. أما استفادتنا منهم في القتال فإنه لا يخلو من حالين:

الأول: أن يكونوا من الكثرة بحيث يشكلون وزناً معتبراً في الجيش، وفي هذه الحالة لا يجوز أن يصل بنا الأمر إلى حد إقرار وجودهم في جيش المسلمين لما لهم من الخطر على المسلمين.

الثاني: أن يكونوا أفراداً قلائل. وفي هذه الحالة لا يكون لهم كبير الأثر في كسب النصر لأنهم أفراد، فنحن في غنى عنهم.

ولذلك نجد رسول الله يستبعد اليهود عن المعركة، ويقول: «إني لا أستعين

بمشارك». ولأن اليهود لم يكونوا مأموني الجانب عند رسول الله . ونحن قد قلنا : « الاستعانة بالكافر » ولم نقل : « التعاون مع الكافر » لأن الاستعانة تعني أن نستفيد منه فائدة تعود على المسلمين بالخير ، ولا نفيده فائدة تعود على الكافرين بالخير . أما التعاون : فيعني أن يفيدنا ونفيده ويقوينا ونقويه ، وفي هذه الحالة يشترط أن يكون التعاون مقصوراً على موطن الحاجة ، كما يشترط أن يكون ما نستفيده من هذا التعاون أكثر مما يستفيده الكافر .

وبعد أن استكمل الرسول إعداد جيشه حسب الطاقة سار به نحو أحد ، وما إن وصل «الشوط» بين أحد والمدينة انشق رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول بجماعته عن جيش المسلمين ، وقد بلغ حجم هؤلاء المنشقين ثلث الجيش ، وبرر انشقاقه هذا بأمرين اثنين هما :

١ - إن رسول الله ﷺ قد أطاع الشباب من أصحابه عندما أشاروا عليه بالخروج ، وعصى أصحاب الرأي منهم كما يزعم هذا المنافق ، وقال قوله المشهودة : «إن محمداً قد أطاعهم وعصاني ، وما ندري علام يقتل أنفسنا أيها الناس» .

٢ - إنه لن يكون هناك قتال بين المسلمين والمشركون ، وهذا ما أفصح به ابن سلول عندما لحق به عبد الله بن عمرو بن حرام وطلب منه الرجوع بمن معه من الناس إلى جيش الرسول وقال له : «يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونيبكم في حضرة عدوهم» فما كان من عبد الله بن أبي بن سلول إلا أن قال له : «لو نعلم أنكم تقاتلونهم لما أسلمناكم وتركتناكم ، ولكن لن يكون قتال بينكم وبين قريش» ، وأبى أن يرجع ، فقال له عبد الله بن عمرو بن حرام : أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغني الله نبيه عنكم .

ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى الجبل فجعل ظهره عسكره إلى أحد ، ووضع على تل مقابل لجبل أحد مجموعة من الرماة المهرة عددهم خمسون رامياً ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير وأمر الرماة بعدم النزول من على الجبل إلا بأمر من رسول الله ، وجعل مهمتهم الحرية رشق جنود المشركين بالنبال إذا ما هجموا على المسلمين أو أرادوا الالتفاف عليهم ، وأمر الجيش بعدم البدء بالقتال حتى يصدر الأمر بذلك من رسول الله ، وجعل كلمة السر في هذه المعركة «أمت أمت» ينادون بها ليعرف بعضهم بعضاً والتزم الجيش بهذا رغم أن قريشاً سرحت خيولها وإبلها في زروع المسلمين التي زرعوها في الصحفة - قرب أحد - استفزازاً للمسلمين ، وضبط المسلمون أنفسهم تنفيذاً لأوامر رسول الله ﷺ بذلك .

وعباً رسول الله جيشه واستعد للقتال ولبس درعين ظاهر بينهما ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير وجعل يحرض الناس على القتال، فأخذ سيفاً صارماً فرفعه في الهواء وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجالٌ، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دُجانة سِمَاك بن خُرْشة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني. قال: أنا أخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه. وكان أبو دُجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذا كانت، وكان إذا أعلَمَ بعصاة له حمراء فاعتصب بها عِلِمَ الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دُجانة: «إنها لمشية يُغضها الله إلا في مثل هذا الموطن». وتزاحف الناس، وحمي الوطيس، وبرز من بين الفرسان الشجعان من صحابة رسول الله أبو دُجانة، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الذي نذرت سلافة أن تشرب الخمر في رأسه إن أمكنها الله منه لأنه قتل في هذه الواقعة ولديها؛ وحنظلة بن أبي عامر الذي التحق بالمجاهدين ليلة عرسه قبل أن يجد وقتاً يغتسل فيه من الجنابة، فقتل، وأخبر رسول الله أنه قد غسلته الملائكة، ومصعب بن عمير حامل اللواء، وعلي بن أبي طالب الذي حمل اللواء بعد مصعب، وحمزة بن عبد المطلب الذي حين رأت هند بنت عتبة بلاءه في أعداء الله، استدعت وحشياً غلام جبير بن مطعم - وكان لا تخطيء له حربة، وتعاقدت معه على قتل حمزة مقابل إعاقته، فطعنه في أسفل بطنه، فمات من ذلك رحمه الله وانتصر المسلمون على المشركين، حتى سقط لواء المشركين على الأرض لا يجرؤ أحد على التقاطه، وبقي كذلك إلى أن التقطته عَمِرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش، فالتفوا حوله.

٥ - النكسة:

ظن الرماة الذين أوقفهم رسول الله على الجبل أن المعركة قد حسمت لصالح المسلمين، فتركوا أماكنهم والتحقوا بالجيش، فرأى ذلك خالد بن الوليد قائد ميمنة جيش قريش - فالتف بمن معه من الجند من خلف جبل الرماة وانقض على المسلمين بعد أن جعلهم بين طرفي الكماشة، فجعل هو يضربهم من الخلف، وجيش قريش يضربهم من الأمام، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، ففت ذلك في عضد المسلمين، وشلت حركتهم، وترك كثير منهم أرض المعركة معتقداً أن لا أمل بالنصر بعد موت رسول الله ﷺ.

وانكشف المسلمون، وأصاب منهم العدو ما أصاب، وكان يوم بلاء للمسلمين، حتى خلاص فيه إلى رسول الله فرماه عتبة بن أبي وقاص فكسر ربايعته وجرح شفته السفلى، وشجّه عبد الله بن شهاب الزهري في جبهته، وجرح ابن قمئة وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله في حفرة كان قد حفرها المشركون للمسلمين - والمسلمون لا يعلمون - فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله ليخرجه منها، ورفع طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً، ومصّ مالك بن سنان - والد أبي سعيد الخدري - الدم عن وجه رسول الله. وكان أول من عرف رسول الله بعد الهزيمة كعب بن مالك، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله، فأشار إليه رسول الله أن أنصت.

ولما رأى رسول الله ما حلّ بالمسلمين، وما كان من تفرقهم، أمر من بقي منهم بالانسحاب إلى جبل أحد، والتحصن به، وانسحب رسول الله إليه، واتخذ من شعب من شعابه مقراً لقيادته ورافقه في هذا الانسحاب أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، والحارث بن الصمة، ورهط من المسلمين... ثم أخذ يجتمع إليه فلول أصحابه. وما إن وصل رسول الله إلى الشعب حتى أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أي محمد، لا نجوتُ إن نجوتَ، فقال أصحاب رسول الله الذين وصلوا الشعب معه: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله: دعوه، فلما دنا تناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصمة فطعنه بها في عنقه طعنة تدرج منها عن فرسه.

وعندها أدرك رسول الله أن عليه أن يقيم دفاعاً قوياً عن مقر القيادة في الشعب، وأقام رسول الله هذا الدفاع من خطين، الخط الأول خط الرماة وهم يحيطون بالشعب، وينضحون من أراد الهجوم على مقر القيادة عن بعد، والخط الثاني خط الدفاع المتقدم لمنع كل تقدم يريده العدو نحو مقر القيادة.

ولما استقر رسول الله في مقره الجديد في الشعب أسرع علي بن أبي طالب إلى الماء في مكان قريب، فملاً ترسه ماء، وجاء به رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد رسول الله له ريحاً كريهة، فعافه ولم يشرب منه، فصبه على رأسه وغسل به آثار الدم عن وجهه وهو يقول: اشتد غضب الله على من أدمى وجه نبيه. وعرف المشركون المقر الجديد لقيادة المسلمين فأخذوا يرسلون إليه الشراذم لاحتلاله والقضاء على رسول الله فيه، ولكن هذه الشراذم لا تلبث أن ترد على أعقابها بعد اصطدامها بدفاع المسلمين القوي، ويذكر لنا كتاب

السيرة أن شرذمة شددت الضغط على دفاع المسلمين مُحاولةً اقتحام الشعب واستطاعت بعد جهد اختراق دفاع المسلمين حول الشعب فقال رسول الله ﷺ: من رجل يشري لنا نفسه؟ فقام زياد بن السكن في نفر خمسة من الأنصار فقاتلوا دون رسول الله رجلاً ثم رجلاً يقتلون دونه حتى كان آخرهم زياد أو عمارة بن يزيد بن السكن فقاتل حتى أثبتته الجراح، فقام إليهم جماعة من المسلمين فردوهم على أعقابهم، وحملوا الجريح إلى رسول الله فوسده قدمه فمات وخذه على قدم رسول الله. وكان نبالة العدو قد اتخذوا موقعا لهم مقابل الشعب، وأخذوا يرمون رسول الله، فأسرع أبو دجانة وجعل نفسه ترساً لرسول الله وجعلت السهام تقع في ظهر أبي دجانة حتى كثرت، وقام نبالة المسلمين يردون على نبالة العدو برميهم بالنبال، وبرز من بين نبالة المسلمين سعد بن أبي وقاص، حيث وقف بين يدي رسول الله يرمي، ورسول الله يناوله السهام ويقول له: إرم فذاك أبي وأمي.

ولما رأى المشركون أنهم قد قتلوا محمداً - فيما يظنون - وإنه لا مصلحة في استئصال ما بقي من المسلمين لذهاب شوكتهم بذهاب رسول الله فإنهم قرروا الانسحاب والعودة إلى مكة، ولكن أبا سفيان - بعد أن أصدر أمره لجيش قريش بالانسحاب، وانسحب فعلاً - لم ينس أن يرقى صخرة مشرفة ويصيح بأعلى صوته مفتخراً ومسمعاً من بقي من المسلمين ويقول: «أَنَعَمْتُ فَعَالَ، إن الحرب سجال يوم بيوم، أعلِ هُبَل».

ولما سمع ذلك رسول الله قال لعمر بن الخطاب: قم يا عمر فأجبه فقل: «الله أعلى وأجل، لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار» فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له: أبو سفيان: هلّم إليّ يا عمر، فقال رسول الله لعمر: «ائته فانظر ما شأنه؟» فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال أبو سفيان: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبرّ، وانصرف عمر، ورفع أبو سفيان صوته مرة ثانية ليقول: «إن موعدكم بدر للعام القابل». فقال رسول الله لرجل من أصحابه: «قل نعم»، هو بيننا وبينكم موعد وانسحب المشركون من المعركة وقد خلفوا في ساحتها سبعين شهيداً من المسلمين فيهم المسلم القويم الإسلام، وفيهم اليهودي المنصف الذي طلب من قومه اليهود مناصرة محمد باعتباره الرسول الموعود فأبوا عليه، فانضم إلى المسلمين فقاتل حتى قتل كـ«مخريق»، وفيهم المسلم حديثاً لم يركع لله ركعة كأصنيرم بني عبد الأشهل حمرو بن ثابت بن وقش، وفيهم الأعرج الذي وضع الله عنه الجهاد، فخاصم أولاده وشكاهم إلى رسول الله لأنهم أرادوا أن يبقوه للأرامل والأيتام كعمرو بن الجموح.

٦ - مراقبة انسحاب العدو لمعرفة نواياه :

ما كان رسول الله ﷺ ليدع المشركين ينصرفوا دون أن يراقبهم مراقبة دقيقة، خاصة بعد أن عرفوا أنه ما زال حياً، لأنه من المحتمل أن يستعيدوا تنظيمهم ويهاجموه من جديد ليقضوا عليه، ولذلك قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة. والذي نفسي بيده لئن أرادوا المدينة لأسيرنَّ إليهم فيها ثم لأناجزنهم، فخرج علي بن أبي طالب في أثرهم، فوجدهم قد جنّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة.

قد يرد هنا سؤال: لماذا لن يناجزهم رسول الله ﷺ إن أرادوا مكة، ولينأجزنهم إن أرادوا المدينة؟ والجواب على ذلك:

إنهم إن عادوا إلى مكة، فإن رسول الله ﷺ يكون قد خسر موقعة، وخسارة موقعة في تاريخ أمة لن يكون شيئاً، لأن من غير المعقول أن تؤسس دولة، وتبنى حضارة، وتسحق دول، وتبنى بلاد ويتم ذلك كله دون خسارة. على أن هذه الخسارة التي تحملها المسلمون في أحد كانت بمثابة النار التي يذهب بها خبث الحديد، فهي مُحْرِقة، ولكنها نافعة... لقد انتهت معركة أحد ولكن لتبدأ معركة جديدة، ففي نفس كل مؤمن صوت يصيح: هذا جزء من يخالف أمر الله وأمر رسوله، وهكذا جردت هذه المعركة من ذوات المسلمين رجالاً يختلفون عن الرجال الذين خاض بهم رسول الله ﷺ معركة أحد، إنهم أكثر منهم تصميمًا على طاعة الله وطاعة رسوله، وبهؤلاء الرجال الجدد أراد رسول الله ﷺ أن يخوض على التوّ معركة جديدة هي حمراء الأسد - كما سيأتي الحديث عنها بعد قليل - فخسارة معركة لبناء قلوب وتصحيح مسيرة شعب يعتبر أمراً مقبولاً إلى حد بعيد.

أما إن توجهوا إلى المدينة، فإن ذلك يعني أن في نيتهم تصفية محمد ودعوته ودولته، إن ذلك يعني أنهم أدركوا الأبعاد السياسية للمعركة، إنهم إن فعلوا ذلك فقد أدركوا أن الأمر لن ينتهي بقتل عشرات من الرجال، أو تفهقر جيش يكامله، بل لا بد من تحطيم الدولة التي تجهز هؤلاء الرجال وتدفعهم إلى المعركة، وإذا ما تطور فهم المشركين للقتال بهذا الشكل فإن الأمر سيكون خطيراً، ولن يستسلم له الرسول عليه الصلاة والسلام، وإذا ما صمم عليه المشركون فإنه لا يجوز أن يتم إلا على أشلاء المسلمين، إذ ما قيمة العيش في ظل حكم كافر لا يعترف لهم بدينهم، ولا يمنحهم حق ممارسة شعائرهم، ولذلك أقسم رسول الله

ليناجزهم إن أرادوا المدينة، وإنه لن يلقي السلاح حتى يحقق النصر، أو يختاره الله إلى جواره.

٧ - البحث عن المفقودين ودفن القتلى :

بعد انسحاب جنود المشركين من ساحة المعركة وتوجههم نحو مكة خرج المسلمون يبحثون عن القتلى والمفقودين، وافتقد رسول الله سعد بن الربيع وحمزة بن عبد المطلب فلم يجدهما.

أما سعد بن الربيع فقد أمر أصحابه بالبحث عنه، وقال: أما من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال محمد بن مسلمة الأنصاري: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد. فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق. فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر، أفي الأحياء أنت أم الأموات؟ قال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ وفيكم عين تطرف. قال: ثم لم أبرح حتى مات، فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره.

وأما حمزة فقد خرج رسول الله ﷺ يبحث عنه بنفسه فوجده يبطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومثل به، فجدع أنفه وأذناه، فقال رسول الله ﷺ حين رأى ما رأى: لولا أن تحزن «صفية» ويكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم! فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغیظه على من فعل بعمه ما فعل قالوا: والله لئن أظفرننا بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثله لم يمثلهما أحد من العرب.

تلك أقوال صدرت عنهم على سنن المنطق العربي قبل الإسلام، ويجب أن يتبدل هذا المنطق في ظل الإسلام، لأن الأحقاد لا تبنى بها حضارة، ولا تسود بها أمة، ولذلك أنزل الله تعالى مسدداً ومرشداً: ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصّابرين * واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾^(١). فعفا رسول الله ﷺ، ونهى عن المثلة.

(١) سورة النحل، الآيتان ١٢٦ - ١٢٧.

وأمر رسول الله بحمزة فسُجِّي ببردة، ثم صلى عليه فكبر سبع تكبيرات، ثم أتى بالقتلى فيوضعون إلى حمزة، فضلى عليهم وعليه معهم، حتى صلى عليه اثنتين وسبعين صلاة.

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب - أخت حمزة - لتنظر إلى أخيها وتودعه، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام إلّها فأرجعها لا ترى ما بأخيها. فقال لها: يا أمه، إن رسول الله ﷺ يأمر أن ترجعي. قالت: ولم؟ وقد بلغني أن قد مُثِّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله! فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك قال: «خلّ سبيلها». فأتته ونظرت إليه وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، واستغفرت له. ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن. وكان قد احتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة، فدفنهم بها. ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك وقال: «ادفنوهم حيث صرعوا». ثم أشرف الرسول على القتلى وقال: «أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جريح يجرح في الله إلا ويبعثه الله يوم القيامة يذمى جرحه، اللون لون دم، والريح ريح مسك! انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر». وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة في القبر الواحد.

٨- رجوع المسلمين إلى المدينة:

بعد أن وارى المسلمون قتلاهم عاد رسول الله مع جُنْدِه إلى المدينة المنورة، فتلقاه الناس مطمئنين على حياته وكان منهم امرأة من بني دينار قد أصيب في هذه المعركة أخوها وأبوها وزوجها، فلما أعلمت بقتلهم قالت: ما عن هذا أسألکم ولكن أخبروني عن رسول الله، فقال لها المجاهدون: هو بخير يا أم فلان، فقالت: أروني حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتى إذا رأيته قالت: كل مصيبة بعدك جليل يا رسول الله. ولما وصل رسول الله بيته، ناول سيفه ابنته فاطمة وقال: اغسلي عن هذا دمه يا بني، فوالله لقد صدقني اليوم، وناولها علي بن أبي طالب سيفه وقال: وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمه، فوالله لقد صدقني اليوم، فقال رسول الله لئن صدقت القتال، لقد صدق معك سهيل بن حنيف وأبو دجانة.

٩- درس من النكسة:

من الضروري أن يمر في حياة الإنسان بعض النكسات، لأنها تكشف له عدوه وصديقه، وإذا كان ضرورياً بالنسبة للرجل العادي، فهو أكثر من ضروري بالنسبة للدعاة إلى الله تعالى وللأمراء، لأنهم أكثر حاجة إلى معرفة المخلص ممن حولهم وغير المخلص.

والنكسة في أحد كشفت لرسول الله ولأصحابه المؤمن والمنافق، حتى لم يعد المنافقون يخافون بعد ذلك اليوم.

ومن وجهة النظر السياسية كان من اللازم أن يخسر المسلمون معركة ما، والدولة الإسلامية في مراحل تكوينها الأولى، ليمتيز الخبيث من الطيب، وقد كان ذلك في أحد، فاستبعد الخبيث، عن العمل السياسي وخلص الأمر للطيب.

المبحث الثالث : محاولة استعادة هبة الدولة الإسلامية بعد نكسة أحد

بعد النكسة التي أصابت المسلمين في أحد، ضعف موقف الدولة الإسلامية عسكرياً، وفقدت الكثير من هبتها التي كانت تفرضها على القبائل العربية. ولما لم يكن في طاقة المسلمين القيام بعمل عسكري قريب قبل التقاط أنفاسهم فقد كان على رسول الله - وهو السياسي المحنك - أن يقوم بعمل سياسي سريع يجنبه الصدام العسكري مع العدو حتى إذا ما تم استعداد رسول الله إلى الأعمال العسكرية عاد إليها. ويتجلى لنا ذلك واضحاً في الأعمال التالية التي قام بها رسول الله ﷺ.

١ - غزوة حمراء الأسد :

علم رسول الله ﷺ أن قريشاً بعد أن انسحبت من أحد وتوجهت نحو مكة، أعادت النظر في عودتها إلى مكة قبل استئصال محمد، فمحمد ﷺ ما زال حياً، وقريش لن تجد الأمن والاستقرار إلا بموت محمد، ولذلك قرر زعماءؤها أن يستريحوا في بلدة الروحاء - وهي قرية لمزينة على بعد ليلتين من المدينة - قليلاً من عناء الحرب، وينظموا صفوفهم وينقضوا على المدينة المنورة ويستأصلوا شأفة المسلمين ويقتلوا محمداً ثم يعودوا إلى مكة. وكان على رسول الله أن يتحرك بسرعة وذكاء، فأعلن من الغد الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال سنة ثلاث للهجرة أنه سائر في طلب العدو، وأنه لا يخرج معه أحد إلا إذا كان قد حضر موقعة أحد بالأمس، فخرج رسول الله قاصداً حمراء الأسد - وهي تبعد ثمانية أميال عن المدينة - فعسكر فيها. وإنما أراد رسول الله ﷺ بخروجه هذا تحقيق نصر سياسي بعد الهزيمة التي مني بها في أحد، ليثبت أن النصر الذي حققته قريش في أحد لم يكن نصراً ساحقاً، وإن الدولة الإسلامية ما زالت تملك من قواتها الضاربة ما تستطيع به مواجهة العدو، وما الجيش الذي دفعت به إلى أحد إلا مجرد قوات رمزية للدولة الإسلامية، وإن القوة

الحقيقية مرابطة في المدينة المنورة، وإن انتصار قريش في أحد لم يضعف معنويات جند المسلمين، وأكبر دليل على هذا كله خروج رسول الله بعد أحد مباشرة إلى لقاء العدو ثانية في جولة جديدة. هذا ما أراد رسول الله ﷺ أن يظهره للعدو. ولما كان رسول الله يعلم حق العلم أن قواته تعاني ما تعاني من التعب والألم والجراح، فقد كان عليه أن يقوم بلعبة سياسية ينقذ بها هيبة الدولة الإسلامية دون وقوع الصدام مع العدو في هذا الخروج.

فما هي هذه اللعبة السياسية؟

كان رسول الله ﷺ يظهر الصداقة لقبيلة خزاعة حتى صار شعور هذه القبيلة مسلمهم ومشرکہم مع رسول الله، كلمتها معه، ولا تخفي عنه شيئاً. وكان تظاهر رسول الله بالصداقة لمشركي خزاعة عمل سياسي محض، يقصد منه عليه الصلاة والسلام أن يبقى طائفة من المشركين في صفه، احتياطاً لما قد تتمخض عنه الأيام. فدفع رسول الله معبد بن أبي معبد الخزاعي - وهو يظهر الشرك آنذاك - إلى تخذيل قريش، وإقناعها بألا تتورط في صدام مسلح مع محمد الآن. فخرج معبد ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: أصبنا حَدَّ أصحابه وأشرفهم وقادتهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم! لنكزن على بقيتهم فلنفرغن منهم. فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحق عليكم شيء لم أر مثله قط! قال: ويحك، ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل. قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم. قال: فإني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتاً من شعر. قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت تُهْدُ من الأصوات راحلتي إذ سالت الأرضُ بالجُردِ الأبايل^(١)
تُزدي بأسد كرام لا تنابله عند اللقاء ولا ميلٍ معازيل^(٢)
فظلت عدواً أظن الأرض مائلة لما سَمَوُا برئيس غير مخذول^(٣)

- (١) تهد: تسقط لهول ما رأت. والجرد: جمع أجرد، وهو الفرس القصير الشعر. الأبايل: الجماعات.
(٢) تزدى: تسرع. التناولة: القصار. الأميل: الذي لا يثبت على السرج. المعزال: الذي لا سلاح له.
(٣) العدو: مشي سريع. سموا: ارتفعوا إلينا.

فقلت ويل ابن حربٍ من لقائكم إذا تَغَطَّطَت البطحاء بالجيل^(١)
 إني نذيرٌ لأهلِ البَسلِ ضاحيةٌ لكل ذي إربةٍ منهم ومعقول^(٢)
 من جيشِ أحمدَ لا وخشٍ قنابلُهُ وليس يوصفُ ما أنذرتُ بالقيـل^(٣)

ففتى ذلك أبا سفيان ومن معه عن عزمهم على الرجوع لاستئصال محمد وأصحابه. ولو كان معبد ممن يظهر الإسلام لما قبل أبو سفيان رأيه، ولو لم يكن تحت يد رسول الله أمثال «معبد» يسخرهم لمثل هذه المهمة لعادت قريش إلى حرب رسول الله في التو، وما ندري ما ستكون عليه النتائج، فانظر كم كان التصرف السياسي لرسول الله حكيماً. ولما اطمأن رسول الله إلى انصراف قريش عنه ودعوتهم إلى مكة قفل راجعاً إلى المدينة المنورة، بعد أن أقام في حمراء الأسد ثلاثة أيام هي الإثنين والثلاثاء والأربعاء الموافقة للسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر من شوال سنة ثلاث للهجرة.

٢ - تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية :

حينما كان رسول الله متوجهاً من حمراء الأسد إلى المدينة وجد رجلين من العدو هما : معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، وأبا عزة الجُمحي، وكان رسول الله ﷺ أسر أبا عزة بيدٍ، ثم منَّ عليه بغير شيء. فلما وقع في يده الان أيقن أبو عزة أنه هالك، فأخذ يتوسل لرسول الله ويقول: يا رسول الله، أقلني. فقال رسول الله ﷺ: «والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمداً مرتين. اضرب عنقه يا زبير!» فضرب عنقه.

المبحث الرابع : طمع العدو في الدولة الإسلامية

لعل من أصعب الأمور الاستمرار في قيادة الأمم بعد أن تمنى بالخسائر الفادحة، لأنه عندها يستأسد الفأر ويتناول القزم. وقد نظر غير المسلمين إلى الخسارة التي منيت بها دولة الإسلام في أحد، فاعتبروها خسارة فادحة، وإن لم تكن كذلك في الواقع، كما ذكرنا.

(١) تغططت: اهتزت. الجيل: الصنف من الناس.

(٢) البسل: الحرام. والمراد قريش لأنهم أهل مكة، ومكة حرام. ضاحية: أي علانية. الأربة: العقل، وكذلك المعقول.

(٣) الوخش. رذالة الناس والإخساء منهم. والقنابل: جمع قبلة وقنبل، وهم الطائفة من الناس ومن الخيل.

ورغم أن رسول الله ﷺ أراد أن يظهر لهم أن هذه الخسارة لم تكن كما يظنون فخرج يطارده جيش العدو إلى حمراء الأسد، إلا أن قبائل العرب لم تكن مقتنعة بأن خروج رسول الله إلى حمراء الأسد يدل على قوته، وهذا ما جرأ بعض القبائل على التفكير بغزو المدينة المنورة، أو النيل من دولة الإسلام، ظانين أنها أصبحت لا تقوى على الدفاع عن نفسها، وأول من فكر بذلك بنو أسد، وعلم رسول الله، بما نشره من عيونه في أنحاء الجزيرة العربية، بعزم بني أسد على مهاجمة المدينة، فجرد لهم حملة بقيادة أبي سلمة وتمكن من النصر عليهم بغير عناء يذكر. وحاول خالد بن سفيان الهذلي أن يجمع الناس لمهاجمة المدينة فأرسل رسول الله إليه عبد الله بن أنيس فقتله.

وقدم جماعة من عضل والقارة على رسول الله فأعلنوا إسلامهم وطلبوا منه معلمين يعلمونهم أحكام الإسلام فأرسل معهم ستة من خيرة المعلمين فغدروا بهم في الطريق وقتلوه. وأرسل رسول الله سبعين داعياً إلى الله إلى نجد فأغار عليهم عامر بن الطفيل تسانده قبائل سليم فقتلوه جميعاً إلا واحداً منهم. وإلى جانب هذا التحرك الخارجي الذي تحركته القبائل في الجزيرة ضد الدولة الإسلامية، كان هناك تحرك داخلي يتحركه اليهود، فقد جعلوا يصرحون ويقولون للرسول: لو قاتلنا لتعلمن أننا أهل الحرب، ووصلت جرأة اليهود على الدولة الإسلامية أن هموا بقتل الرسول ﷺ. وهكذا فقد استأسد الفأر وتناول القزم. فكيف يفعل رسول الله ليعيد الهيبة للدولة الإسلامية؟

لقد أثر عليه الصلاة والسلام أن يبدأ بالداخل فيفرض فيه هبة الدولة، ويقطع ألسنة المرجفين، فضرب أحد أحياء اليهود - بني النضير - ضربة أركن فيها إلى الطاعة سائرهم، ثم جرد حملة أدب بها الغادرين، وأخرى إلى نجد، وثالثة إلى لقاء قريش في بدر، ورابعة إلى دومة الجندل، فأدركت قريش وقبائل العرب أنها لا طاقة لها بمحمد وجنده، وأن عليها أن تواجه دولة الإسلام بعمل مشترك فكانت غزوة الأحزاب، وتفصيل ذلك كما يلي:

١ - طمع بني أسد في الدولة الإسلامية:

لقد أعلمت العيون التي بثها رسول الله في أنحاء الجزيرة العربية أن طليحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما من العرب إلى حرب رسول الله، فدعا عليه الصلاة والسلام أبا سلمة في أول شهر المحرم من عام أربع للهجرة وعقد له لواء، وبعث معه مائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار، وقال: سر حتى تنزل أرض بني أسد، فأغر عليهم

بني أسد

قبل أن تتلاقى عليك جموعهم؛ فسار أبو سلمة إليهم، وأغار على أنعامهم، ففروا من وجهه فأخذها، ولم يلتق كيداً، وعاد إلى رسول الله ومعه الأنعام.

٢ - طمع خالد بن سفيان في الدولة الإسلامية:

وأعلمت العيون رسول الله أن خالد بن سفيان بن لبيج الهذلي طمع في الدولة الإسلامية وهو يجمع لرسول الله ﷺ رجاله بنخلة أو بعرة، فأرسل رسول الله إلى عبد الله بن أنيس فأتاه فقال له: إنه قد بلغني أن ابن سفيان بن لبيج الهذلي يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بنخلة أو بعرة، فأتته فاقتله. قلت: يا رسول الله، انعت لي حتى أعرفه، قال: إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان، وآية ما بينك وبينه إنك إذا رأيته وجدت له قشعريرة، قال: فخرجت متوشحاً سيفي حتى دفعت إليه وهو في ظعن يرتاد لهن منزلاً، وحيث كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما قال لي رسول الله من القشعريرة فأقبلت نحوه، وخشيت أن تكون بيني وبينه مجاورة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه، أومئ برأسي، فلما انتهيت إليه قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لذلك، قال: أجل، إني لفي ذلك، فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنتني حملت عليه بالسيف فقتلته، ثم خرجت، وتركت ظعائنه منكبات عليه، فلما قدمت على رسول الله فرآني قال: «أفلح الوجه»، قلت: قد قتلته يا رسول الله، قال: «صدقت». وكان ذلك لخمس خلون من المحرم.

٣ - طمع هذيل في الدولة الإسلامية:

قدم على رسول الله في صفر من السنة الرابعة للهجرة رهط من عضل والقارة فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفرأ من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئونا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام. فبعث رسول الله ﷺ معهم نفرأ من أصحابه، وهم مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، وأمر رسول الله ﷺ على القوم مرثد بن أبي مرثد، فخرج مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع - ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدور الهدأة^(١) - غدروا

(١) الهدأة: موضع بين عسفان ومكة.

بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلًا، فلم يُرعِ القومَ وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف، قد عَشُّوهم، فأخذوا أسيافهم ليقَاتلوهم، فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلکم، ولكننا نريد أن نصيب بکم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلکم. فأما مرثد بن أبي مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت، فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً. فقال عاصم بن ثابت:

ما علّني وأنا جلد نابل^(١) والقوس فيها وتر عناب^(٢)
تزلُّ عن صفحتها المعابل^(٣) الموت حق والحياة باطل
وكلُّ ما حم الإله نازل^(٤) بالمرء والمرء إليه آئل^(٥)

ثم قاتل القوم حتى قُتل وقتل صاحبه. فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه لبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد - وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد: لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قِحفه الخمر - فمنعته الزنابير التي اجتمعت عليه، فلما حالت بينه وبينهم الزنابير قالوا: دعوه حتى يُمسي فتذهب عنه فنأخذه. فبعث الله الوادي فاحتمل عاصماً فذهب به.

وأما زيد بن الدثنة وخُبيب بن عدي وعبد الله بن طارق، فلانوا ورقوا ورجبوا في الحياة، فأعطوا بأيديهم فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة، لبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القرآن ثم أخذ سيفه، واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى مات رحمه الله تعالى. وأما خُبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة. أما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له، يقال له نسطاس، إلى التنعيم^(٦)، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه. واجتمع رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قُدِّم ليقتل. أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن في

(١) الجلد: الشديد. النابل: صاحب النبل.

(٢) العنابل: الغليظ الشديد.

(٣) المعابل: جمع معبلة، وهو نصل عريض طويل.

(٤) حمه الإله: قدره.

(٥) آئل: صائر.

(٦) التنعيم: موضع بين مكة وسرف، على فرسخين من مكة.

مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً! ثم قتله نسطاس، يرحمه الله. وأما خبيب فابتاعه حُجَير بن أبي إهاب لعقبة بن الحارث بن عامر ليقبله بأبيه، فحبسه حجير عند مولاته ماوية - وكانت قد أسلمت - قالت ماوية: كان خبيب عندي، حبس في بيتي، فلقد اطلعت عليه يوماً وإن في يده لِقِطْفاً من عنب مثل رأس الرجل، يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل، قال لي حين حضره القتل: ابعتني إليّ بحديدة أتطهر بها للقتل. فأعطيت غلاماً من الحي موسى فقلت: ادخل بها على هذا الرجل البيت. قالت: فوالله ما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه، فقلت: ماذا صنعت! أصاب والله الرجل ثأره بقتل هذا الغلام، فيكون رجلاً برجل! فلما ناوله الحديدية أخذها من يده ثم قال: لعمرك ما خافت أملك غدري حين بعثتك بهذه الحديدية إليّ؟! ثم خلى سبيله.

ثم خرجوا بخبيب حتى إذا جاؤوا به إلى التنعيم ليصلبوه قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا. قالوا: دونك فاركع. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنوا أنني إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة! فكان خبيب بن عدي أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين. ثم رفعوه على خشبة، فلما أوثقوه قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا!! ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بديداً^(١)، ولا تغادر منهم أحداً!! ثم قتلوه رحمه الله.

فكان معاوية بن أبي سفيان يقول: حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض فرقاً من دعوة خبيب وكانوا يقولون: إنَّ الرجل إذا دُعي عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي على بعض الشام، فكانت تصيبه غشية وهو بين ظهري القوم، فذكر ذلك لعمر بن الخطاب، وقيل إن الرجل مصاب، فسأله عمر في قَدَمَةٍ قَدِمَهَا عليه فقال: يا سعيد ما هذا الذي يصيبك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما بي من بأس، ولكنني كنت فيمن حضر خبيب بن عدي حين قُتل وسمعتُ دعوته، فوالله ما خطرت على قلبي وأنا في مجلس قط إلا غشي علي! فزادته عند عمر خيراً.

(١) بدداً: متفرقين.

قال ابن عباس: لما أصيبت السرية التي كان فيها مرثد وعاصم بالرجيع، قال رجال من المنافقين: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهلهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله تعالى في ذلك من قول المنافقين: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾ * وإذا تولَّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد * ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد (١) .

إذا أرسل الرسول (ص) رجع إلى أهله فوجدوا قد قعدوا في أهلهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم ولا هم قعدوا في أهلهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم .

٤ - طمع بني سليم في الدولة الإسلامية:

قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة، على رسول الله ﷺ المدينة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام وقال: يا محمد، لو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك . فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد . قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك . فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة، «المعنى ليموت» (٢) في سبعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين، منهم الحارث بن الصّمة، وحرام بن ملحان، وعروة بن أسماء، ونافع بن بديل بن ورقاء، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق، في رجال مسمين من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم، كلا البلدين منها قريب، وهي إلى حرة بني سليم أقرب .

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل . فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نخون أبا براء . وكان قد عقد لهم عقداً وجواراً . فاستصرخ عليهم قبائل من سليم فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رجالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم، يرحمهم الله، **إلا كعب بن زيد** فإنهم تركوه وبه رمق، فحُمِلَ من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم

(١) سورة البقرة، الآيات ٢٠٤ - ٢٠٧ .

(٢) أعتق: أسرع . وإنما سمي بذلك لأنه أسرع إلى الشهادة .

الخنوق شهيداً، يرحمه الله. وكان في سرح جنود المنذر: عمرو بن أمية الضمري، والمنذر بن عمرو بن عقبة من الأنصار، فلم ينبئهما بمصائب أصحابهما إلا الطير تحوم حول العسكر، فقالا: والله إن لهذا الطير شأنًا. فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر. فقال الأنصاري: ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، وما كنت لتخبرني عنه الرجال! ثم قاتل القوم حتى قتل.

وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً، فلما أخبرهم إنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل، وجزأ ناصيته، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه، فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بقَرْقَرَةَ الكدر^(١)، أقبل رجلان من بني عامر فتزلا معه في ظل هو فيه. وكان مع العامريين عقد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر. فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأره من بني عامر. فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ. فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، قال الرسول ﷺ: «لقد قتلت قتيلين لأديننهما، ثم قال رسول الله ﷺ: هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً.

المبحث الخامس: التصفية السياسية لبني النضير

أسبابه:

السبب الحقيقي لإجلاء بني النضير هو: تنفيذ المخطط الذي وضعه رسول الله في تصفية أعداء الدولة الإسلامية، وإجلاء بني النضير يعتبر العملية التصفية الثانية. والسبب المباشر هو انتفاض بني النضير على رسول الله ﷺ، وطمعهم في الدولة الإسلامية وذلك عندما خرج الرسول يطالبهم بمشاركتهم إياه في دية القتيلين من بني عامر، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقده لهما. وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه.

(١) قرقرة الكدر، بينها وبين المدينة ثمانية برد.

بني النضير على أن يكون لهم حق حمل أموالهم المنقولة، إلا السلاح حتى لا يكون لهم عوناً إذا ما أرادوا الانتفاض على المسلمين.

وخلّوا الأموال لرسول الله ﷺ فكانت له خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار، إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة سمالك بن خَرْشَة ذكرا فقراً، فأعطاهما رسول الله ﷺ. وإن قسمة أموال بني النضير بين المهاجرين وفقراء الأنصار أوجد تطوراً كبيراً في السياسة المالية للدولة الإسلامية: فقد كانت الغنائم الحربية قبل هذه الغزوة تقسم بين المحاربين بعد أن تأخذ الدولة الإسلامية خمسها لتصرف في مصارف معينة حددها القرآن الكريم، واليوم، بعد هذه الغزوة، أوجدت سياسة مالية جديدة فيما يتعلق بالغنائم، وخلاصتها: أن الغنائم الحربية أصبحت - حسب السياسة الجديدة - على نوعين:

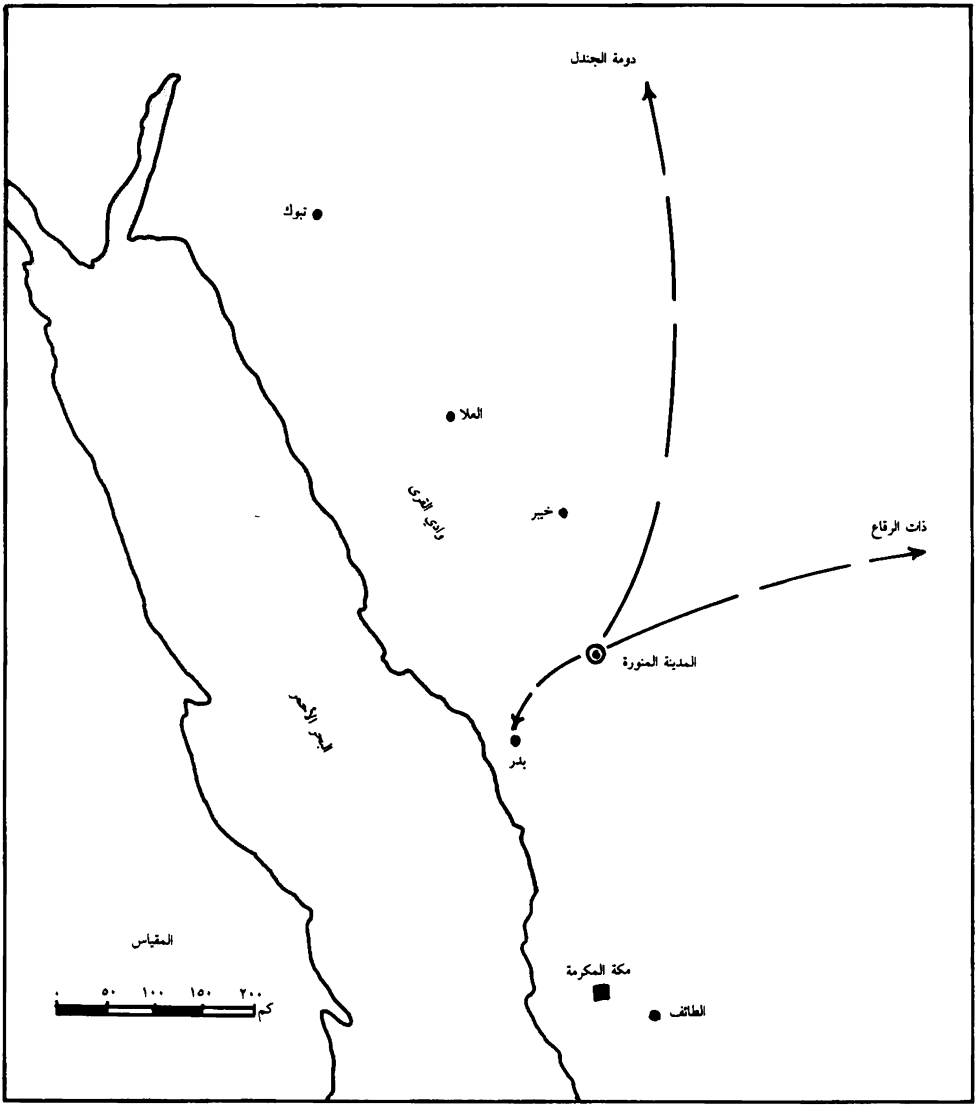
الأول: غنائم استولى عليها المجاهدون بحد سيوفهم، وهذه الغنائم تقسم بين المجاهدين بعد أن تأخذ الدولة خمسها لتصرفه في مصارفه الخاصة.

والثاني: غنائم يوقعها الله بأيدي المجاهدين دون قتال، وهذا النوع يختص رئيس الدولة الإسلامية بالتصرف فيه حسب ما يرى المصلحة في ذلك، يعالج به الأوضاع الاقتصادية في البلاد فينقذ الفقراء من فقرهم، أو يشتري به سلاحاً، أو يبني به مدينة، أو يصلح به طرقاً أو... وهذا يعني أنه قد أصبح لرئيس الدولة الإسلامية ميزانية خاصة يتصرف فيها تصرفاً سريعاً حسب مقتضيات المصلحة.

هذه السياسة المالية الجديدة أوجدت كثيراً من المرونة التي تفتقر إليها كل دولة في تشريعها، لأن تحجر القانون لا يجدي في معالجة المشكلات الطارئة إلا الإمعان في صعوبة حلها أو استحالة. وبهذه السياسة الجديدة أصبحت أموال بني النضير وأراضيهم وبناتينهم في يد رسول الله ﷺ باعتباره رئيس الدولة الإسلامية ليتصرف فيها على ضوء المصلحة كما يشاء. فماذا فعل عليه الصلاة والسلام بهذه الأموال؟.

إنه نظر فوجد أن المشكلة المالية للمهاجرين ما زالت قائمة، رغم ما بذله إخوانهم الأنصار من تعاون مع رسول الله ﷺ لحلها، والمهاجرون هم المشتغلون الأول في الجهاد، فهم ما زالوا فقراء، والأراضي والبناتين بيد الأنصار، ولما كان رسول الله ﷺ يعنى عناية فائقة بالأمور الداخلية ويعتبرها الأساس في بناء الدولة، فقد توجه أول ما توجه بعد أن أصبحت

أموال بني النضير في يده، إلى حل مشكلة الأوضاع المالية للمهاجرين خاصة وللفقراء عامة، ليشعر هؤلاء بأن الدولة الإسلامية قد أنصفتهم فعلاً، فجعل ما وقع في يده من أراضي وعقارات لبني النضير لفقراء المدينة المنورة - وجلهم من المهاجرين - لأن من أولى واجبات الدولة أن تعمل على إيجاد الظروف التي تفرض التوزيع العادل للثروة بين المواطنين، وهذا ما فعله رسول الله حين جعل الله تعالى توزيع غنائم بني النضير إليه . ولما تكلم بعض المنافقين بعدم عدالة هذا التوزيع كان جواب رسول الله أن منطق العدالة يقضي بأن لا يكون المال دولة بين الأغنياء منكم دون الفقراء . وانصاع الجميع لأمر رسول الله، واقتنعوا بالسياسة المالية الجديدة للدولة الإسلامية .



(خريطة رقم ٤)

التحرك العسكري لرسول الله ﷺ بين إجلاء بني النضير وغزوة بني قريظة

تصفية بني قريظة

وستكلم فيه في مبحثين :

المبحث الأول : التمهيد لتصفية بني قريظة . ويشتمل على :

١ - غزوة ذات الرقاع

٢ - غزوة بدر الأخيرة

٣ - غزوة دومة الجندل

٤ - غزوة الخندق

المبحث الثاني : تصفية بني قريظة

المبحث الأول : التمهيد لتصفية بني قريظة

بعد أن حدث ما حدث في أحد طمعت القبائل العربية في الدولة الإسلامية وأخذت تفكر في النيل منها ، فكانت تنجح أحياناً كما رأينا من التفرير بالمسلمين وقتلهم يوم الرجيع ويوم بئر معونة ، وكانت تفشل في أكثر الأحيان . وكان على رسول الله أن يفعل شيئاً ليقنع العرب جميعاً بأن الدولة الإسلامية قادرة على الدفاع عن نفسها ، وعلى البطش بخصومها ، وإنها ليست كما يظنون عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، خاصة وأن رسول الله مقبل على تصفية كيان آخر من كيانات اليهود . ولإيجاد هذه القناعة فقد قام رسول الله بعدة تصرفات منها :

١ - غزوة ذات الرقاع^(١) :

ما إن رفض رسول الله يده من تصفية الكيان السياسي لبني النضير وأقام في المدينة المنورة شهر ربيع الآخر وبعض جمادى من السنة الرابعة للهجرة حتى سمع بأن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان يستعدون في نجد لمهاجمة الدولة الإسلامية . فكان على رسول الله -

(١) سميت هذه الغزوة بذات الرقاع نسبة إلى شجرة هناك .

كما هي خطته - أن يخرج إليهم لضرب تجمعاتهم قبل استكمال استعداداتهم، ليثبت لهم أن الدولة الإسلامية ما زالت قادرة على تأديب الخارجين عليها أو الطامعين فيها، وأنها ليست كما يظنون عاجزة عن النهوض في وجههم وتأديبهم. فخرج عليه الصلاة والسلام إليهم - إلى نجد - ليؤدبهم، بعد أن ترك على المدينة أبا ذر الغفاري، فلما وصل نخلًا - وهو موضع بنجد في أرض غطفان - لقي بها جمعاً عظيماً من غطفان، فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب. وقد خاف الناس بعضهم بعضاً حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف بالناس. وفي الطريق، يذكر كُتَّاب السيرة أنه قد حدث لرسول الله حوادث نذكر منها:

- كان يرافق رسول الله مع الجيش جابر بن عبد الله، وكان يمتطي جملاً ضعيفاً لا يقوى على المشي، فلاحظ ذلك فيه رسول الله فتناول عليه الصلاة والسلام قضيباً ونخسه به، فجعل من تلك الساعة لا يسابقه جمل، وأخذ جابر في الحديث مع رسول الله فحدثه عن زوجته التي تزوجها ثيباً لتقوم على خدمة ورعاية أخواته السبع اللاتي تركهن والده عندما استشهد يوم أحد، وحدثه عن جمّله، واشترى رسول الله منه الجمل، وبشره بأن الدنيا ستفيض عليه حتى يصبح له نمارق، ولكن ما إن وصل رسول الله المدينة حتى نقده قيمة الجمل ورده إليه، فاحتفظ به جابر كذكرى طيبة من رسول الله ﷺ.

- وفي الطريق: نزل رسول الله ﷺ منزلاً ليريح الجيش، ويأخذ الناس حظهم من النوم والراحة، ونظم حراسة الجيش أثناء نومه وراحته، وكان من جملة الحراس رجلان مهاجر وأنصاري، أقامهما رسول الله في فم الشعب فنام أحدهما ووقف الآخر يقوم بالحراسة نوبته، وحدثته نفسه بأن يقوم لله تعالى مصلياً في موقفه ذاك، وبينما هو يصلي إذ تقدم رجل من المشركين - كان المسلمون قد أصابوا له زوجته في غزوتهم هذه - فرمى الحارس المصلي بعدة سهام، فأيقظ الحارس صاحبه.

وهكذا نجد رسول الله ما تحرك تحركاً، ولا نزل منزلاً إلا واتخذ كل الاحتياطات الأمنية التي تحفظ سلامة الجيش وتحميه من المباغته. ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة ذات الرقاع أقام بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجباً.

٢ - غزوة بدر الأخيرة:

(أ) أسبابها:

كان السبب الحقيقي لهذه الغزوة إظهار قوة الدولة الإسلامية، وفرض هيبتها على

الجزيرة العربية، وإرهاب عدوها، كما قدّمنا. أما السبب المباشر لها فهو قول أبي سفيان يوم أحد: يا محمد موعدنا العام القابل، فخرج رسول الله لذلك الموعد في شعبان من السنة الرابعة للهجرة ونزل بدرأ، وأقام فيها ثمانين ليالٍ ينتظر أبا سفيان. أما أبو سفيان فإنه خرج في أهل مكة حتى نزل مَجَنَّة، من ناحية الظهران. ولما رأى أبو سفيان عزم رسول الله على لقائه، خافه، واستأجر نعيم بن مسعود الأشجعي ليخذل رسول الله ويغريه بالرجوع، فذهب نعيم إلى رسول الله وقال له: «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم» ولكن رسول الله لم يعبأ بهذا الجمع بل زاده ذلك إيماناً بأن نصر الله آت لا محالة وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

(ب) نتائجها:

- عودة المشركين: ولما رأى أبو سفيان ذلك قال: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عامٌ جدب، وإنني راجع، فارجعوا. فرجع الناس، فسماهم أهل مكة: «جيش السَّويق». يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

- إعلان بني ضمرة تمسكهم بمسالمة الدولة الإسلامية: لقد كان لهذا الخروج أثره في نفوس العرب، فقد أصبحت كثير من القبائل قانعة بأن الدولة الإسلامية قد توفر لها من أسباب القوة ما تستطيع به البطش بأعدائها، ولذلك رأينا أن رسول الله ما إن أقام في بدر ينتظر أبا سفيان وجيشه حتى أتاه مَخْشِي بن عمرو الضَّمَرِيّ - وهو الذي كان وادعه على بني ضمرة في غزوة دَدَان - فقال: يا محمد، أجنث للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «نعم، يا أبا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك». قال: لا والله يا محمد، ما لنا بذلك منك من حاجة.

٣ - غزوة دومة الجندل:

لقد كان على رسول الله ﷺ أن يتابع نشاطه العسكري لنشر الأمن في الصحراء، ولإقناع القبائل العربية بأن السيادة على الصحراء للدولة الإسلامية دون غيرها، وإن أي تحرك ضدها سيكون وبالاً على صاحبه، ولذلك فإن رسول الله لما سمع بأن القبائل الضاربة عند دومة الجندل يؤذون من مرّ بهم، وأن طيشهم قد دفعهم إلى التفكير بمهاجمة المدينة المنورة، توجه إليهم رسول الله في ربيع الأول من السنة الرابعة بألف من أصحابه، وجعل يسير بهم ليلاً، ويكمن بهم نهاراً، ويكثر من سرايا الاستطلاع، حتى فاجأهم ففروا من

وجهه، فاستولى رسول الله على نعمهم، وأقام مدة يث سراياه الاستطلاعية في جميع الاتجاهات، ثم عاد إلى المدينة المنورة بعد أن حصل على المعلومات الكافية.

٤ - غزوة الخندق:

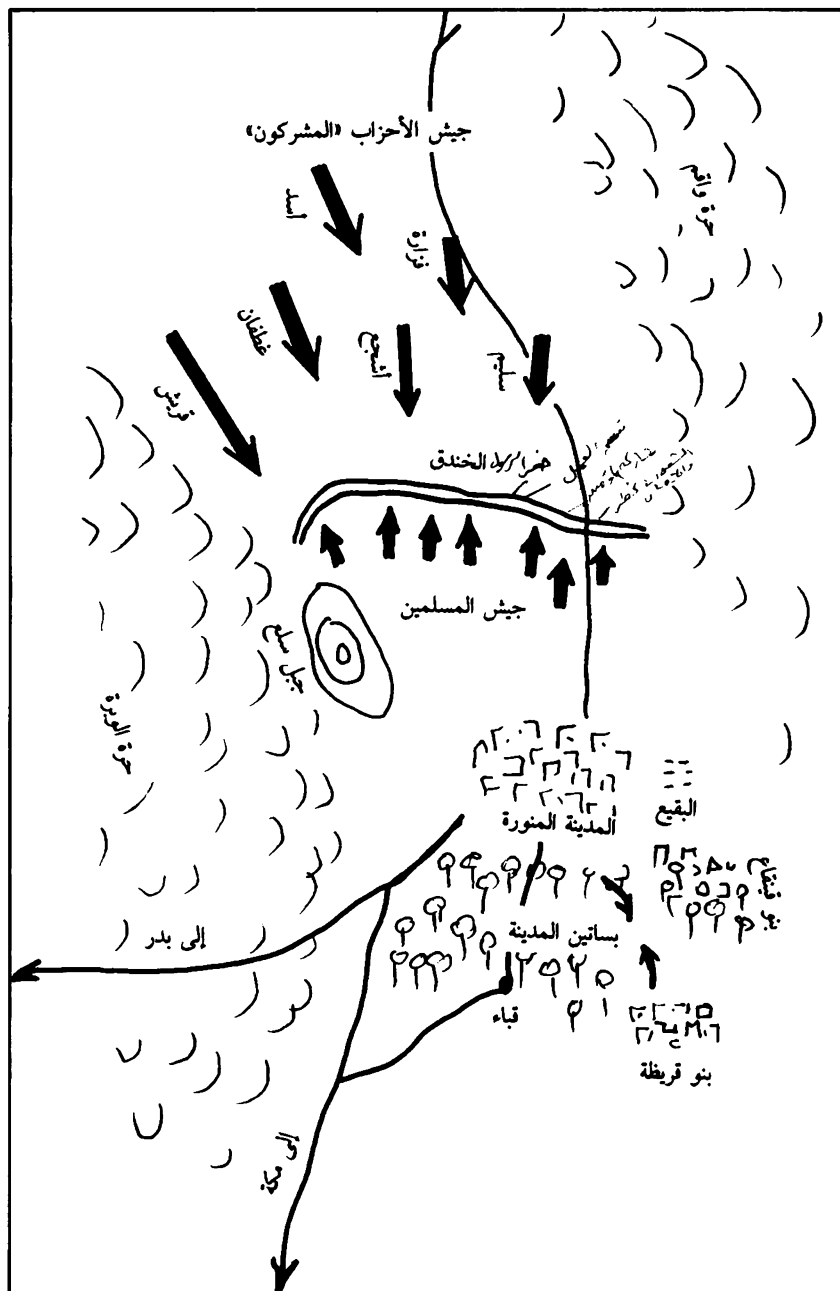
(أ) اجتماع اليهودية والوثنية على الدولة الإسلامية:

رأى اليهود ما بلغته دولة الإسلام من قوة الشكيمة، وفرض سلطانها على قبائل العرب، ورأوا أن تفرق القوى هو مكن الداء، فما زالت دولة الإسلام تلتقم قبائل العرب الواحدة تلو الأخرى حتى دانت لها جلّ قبائل الجزيرة العربية. . . وأن جميع القوى المعادية لهذه الدولة الشابة إذا لم تجتمع وترميها عن قوس واحدة فلن يمضي القليل حتى تكون لها الكلمة العليا التي لا تعارضها كلمة. ولذلك سعوا في جمع جميع القوى المعادية لدولة الإسلام من عرب ويهود للانقضاض على هذه الدولة وتقويض أركانها، ونهض جماعة من زعماء اليهود منهم: سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن أبي الحقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل حتى أتوا إلى قريش في مكة، فدعوههم إلى حرب رسول الله، وقالوا لهم: إن نهضتم لحربه فإننا سنجمع لكم العرب ليكونوا معكم، وسنكون نحن معكم حتى نستأصله. وكانت قريش ترى في قرارة نفسها أن ما جاء به محمد من العقيدة أمر يقبله العقل ولا يرفضه المنطق، ولكن متابعة الآباء والأجداد لها مكانها في نفس قريش، فهي في نزاع داخلي مضطرم، فأرادت أن تستأنس برأي اليهود باعتبارهم أهل دين سماوي، ولهم تجربة دينية عريقة، فقالت لهم: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول، وأهل العلم بما نحن مختلفون عليه مع محمد، أفديننا خير أم دينه؟ فقال اليهود: دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، قالوا ذلك - كذباً وبهتاناً - ليضمّنوا اشتراك قريش معهم في الحرب انتقاماً لبني قينقاع ولبنى النضير الذين أجلاهم الرسول عن المدينة المنورة.

سُرّت قريش بما سمعت، ونشطت لما دعوها إليه من حرب رسول الله، واتفقوا على الحرب وضربوا موعد اللقاء للهجوم على المدينة المنورة. ثم خرج أولئك نفر من اليهود حتى جاءوا غطفان، فدعوههم إلى حرب رسول الله وأخبروهم بما اتفقوا عليه مع قريش، فوافقت غطفان على أن تكون معهم، وحددوا موعد اللقاء للهجوم على المدينة المنورة. وفي الوقت المحدد خرجت قريش بقيادة أبي سفيان وخرجت غطفان يقود بني فزارة فيها

فَمِيسَةَ بْنِ حَصْنٍ، وَيَقُودُ بَنِي مَرَّةَ فِيهَا الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ، وَيَقُودُ مِسْعَرُ بْنُ رُخَيْلَةَ مِنْ تَابِعِهِ
 حَقَّقَ الْمَرْكُ
 لِمَنْ أَشْجَعُ.
 وَبَعَثَ بَنِيهِ
 طِفْلًا
 (ب) التحصن في المدينة وتحاشي الصدام:

علم رسول الله ﷺ - بما بثه من العيون في أنحاء الجزيرة العربية، والتي تأتيه بخبر كل تحرك مشبوه ضد الدولة الإسلامية - بالتحالف اليهودي الوثني، وقدّر أن هذا التحالف يستطيع أن يجمع ضد الدولة الإسلامية ما ينوف عن عشرة آلاف محارب بينما لا يزيد ما عند رسول الله من المجاهدين عن ثلاثة آلاف مجاهد، وأن التورط في صدام مسلح معهم قد يعيد مأساة أحد، ويقوض أركان دولة الإسلام، ولذلك أخذ رسول الله يبحث عن النصر في غير الصدام المسلح. . . . ولكن ما الذي يدفع ذلك السيل البشري عن المدينة، وما توجّه إليها حين توجه إلا ليقوضها على رؤوس أصحابها، وينهي وضع الإسلام فيها؟. وانتهى رسول الله - بعد مشاورة أصحابه - إلى وجوب إقامة حاجز يمنع الصدام المسلح بين الفريقين، ليتمكن رسول الله أن يتصرف بحكمة، ويستعمل الدهاء السياسي، وقد أشار بذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه. ورسم رسول الله مخططاً ذهنياً للمدينة المنورة، فوجدها محصنة من ثلاثة أطراف بحرتين وبساتين، وإن المكان الذي يمكن أن تؤتى منه هو الطرف الرابع، فقرر عليه الصلاة والسلام أن يكون هذا الحاجز في هذا الطرف. وجمع رسول الله كل ما له به من إمكانيات، فحفر خندقاً بين الحرتين (كما هو مبين في الشكل رقم ٥) وعمل في حفر الخندق جميع المسلمين - وعلى رأسهم رسول الله - بكل همة ونشاط، إلا ما كان من المنافقين الذين كانوا لا يخلصون في عملهم، ولا يعملون إلا لئلا ينكشف أمرهم عند المسلمين، فكانوا بين الفينة والأخرى يهربون من العمل. ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن. هرباً من العمل لأن في قلوبهم دخن وفي نياتهم سوء ويودون لو أن الدائرة دارت على رسول الله وعلى دولته، يبدو ذلك في مخاطبتهم رسول الله بلهجة لا تحمل الاحترام، وفي هربهم من العمل في حفر الخندق وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ دَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . .﴾ (١) الخ.



(خريطة رقم ٥)

غزوة الأحزاب

أما المؤمنون المخلصون فقد تفرغوا في العمل وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في الحقوق بحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله، رغبة في الخير واحتساباً، فأنزل الله تعالى في أولئك من المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

(ج) قدوم الأحزاب:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة، بين الجُرُف وزَغابة، في عشرة آلاف من أحابشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد، حتى نزلوا بذَنب نَقَمَى إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع (٢) في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الحصون.

(د) انضمام بني قُرَيْظَةَ للأحزاب:

وخرج حُيَيُّ بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي، صاحب عقد بني قُرَيْظَةَ وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاقده على ذلك وعاهده، فلما سمع كعب بحَيَيِّ بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حبي: ويحك يا كعب! افتح لي. قال: ويحك يا أخي، إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً. قال: ويحك! افتح لي أكلمك. قال: ما أنا بفاعل. قال: والله ما أغلقت الحصن دوني إلا خوفاً أن أكل معك! فأحفظ الرجل، ففتح له، فقال: ويحك يا كعب! جئتكم بعز الدهر وبيحر طام، جئتكم بقریش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنب نَقَمَى إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه. فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر، وبجَهَام (٣) قد هراق

(١) سورة النور، الآية ٦٢.

(٢) جبل في المدينة.

(٣) الجهم: السحاب.

ماء، فهو يردد ويرق ليس فيه شيء، ويحك يا حُبَيِّ! فدعني وما أنا عليه، فإنني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء. فلم يزل حبي بكعب يفتله في الذروة والغارب^(١) حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبريء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين، بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ بن النعمان، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عباد بن دُليم، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، فقال: انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناء عرفه، ولا تفتؤا في أعضاء الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس. فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا من رسول الله ﷺ. وقالوا: مَنْ رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد! فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدة. فقال له سعد بن عباد: دع عنك مشاتمهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة. ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا: عَصَل والقارة! أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع: - خبيب وأصحابه - فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين!

(هـ) ظهور المنافقين:

وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال مُعَتَّب بن قُشير: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقیصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وحتى قال أوس بن قیظي: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة من العدو - وذلك عن ملأ من رجال قومه - فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا فإنها خارجة من المدينة. فثبت رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وواصل المشركون الحصار قريباً من شهر، لم تكن بينهم من حرب إلا الرَّمْيُ بالنبل والحصار.

(١) أي يخاتله ويرأوه. وأصل المثل في البعير، بفعل به ذلك ليسكن ويأنس. الذروة: أعلى السنام. الغارب: الكاهل، وهو ما بين السنام إلى العنق.

أقام رسول الله والمسلمون معه، وعدوهم محاصره، ولم يكن بينهم قتال، إلا أن عمرو بن ود العامري الذي أنخسته الجراح يوم بدر حتى إنه لم يستطع المشاركة في معركة أحد، خرج اليوم مع الأحزاب، وقد ميز نفسه عن الناس بعلامة خاصة به ليرى الناس بلاءه في القتال، إن عمرو بن ود هذا لم يرقه هذا الهدوء وهذا الصمت، فاستنفر جماعة من أبطال قريش وصناديدها فيهم عكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، وضرار بن الخطاب الشاعر، للإغارة على جيش محمد، لعلهم يجزّون محمداً وأصحابه إلى المعركة، واقتحموا الخندق من مكان ضيق فيه، فتصدى لهم علي بن أبي طالب في جماعة من المسلمين، فترجل عمرو بن ود عن فرسه وطلب المبارزة، فبرز له علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال له: يا عمرو إنك كنت قد عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، فقال له عمرو: نعم، قال: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسول الله وإلى الإسلام فقال عمرو: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى التزال فقال له: لم يا ابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك، فقال له علي: لكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو، وعقر فرسه ثم أقبل على علي فتنازلا وتجادلا، فقتله علي، وهرب بقية جماعة عمرو بن ود. وكان شعار أصحاب رسول الله يوم الخندق (حَم لا ينصرون).

(ز) الأساليب السياسية لكسب الحرب :

ولما اشتد على الناس البلاء، بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن، وإلى الحارث بن عوف المري - وهما قائدا غطفان - وعرض عليهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما من الناس عن المدينة، وجرى بين رسول الله وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب، ولكن لم تقع الشهادة، ولأ التوقيع على هذا الكتاب بعد، وأحب رسول الله أن لا يوقع الكتاب قبل موافقة سادة الأنصار عليه، لأنهم هم أصحاب الزرع والثمار، فأرسل إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه فقالا له: يا رسول الله أهو أمر تحبه فنصنعه، أم هو شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم هو شيء تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبؤكُم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام

وهذان له وأعزنا بك وبه نعطيه أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيه إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا.

لقد رأينا أن خطة رسول الله تهدف إلى تفريق كلمة العدو المهاجم، بالمال، أو بالموادعة، أو بالمكيدة، وهنا رأى عليه الصلاة والسلام أن يستخدم المال مع غطفان، فإن نجحت هذه الوسيلة يكون العدو قد خسر ثلث قوته تقريباً وهذا ليس بالأمر الهين، وإذا ما نجحت هذه الطريقة أو طريقة أخرى مع كتلة أخرى من كتل العدو... أمكن لرسول الله أن يبرز لقتال الباقي من جيش العدو، ولكن بعض الصحابة رأى في ذلك بعض الصغار، ولذلك رفض هذا العرض الذي عرضه رسول الله ﷺ، وإنما عرض رسول الله الأمر عليهم، لأنهم هم الذين سيتحملون نتائجه، فلما رأى فيهم العزة والتصميم على الشهادة أو النصر صرف النظر عنه، ولكنه لم يفلته قبل أن يستغل نتائجه أحسن استغلال، فأشاع نبأ هذا الاتفاق مع غطفان بين صفوف الأحزاب، فحطم بذلك تماسك قوات الأحزاب وزعزع وحدتها وتماسكها، ولم يكتف بهذا بل أخذ يواصل التفكير في تدبير مكيدة يدبرها للعدو تفرق كلمته، فوجدها في نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه.

وذلك أن نعيم بن مسعود الأشجعي أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، وكان رسول الله يعرف في نعيم هذا الذكاء الحاد والحيلة الواسعة، وقد كان استأجره أبو سفيان - قائد جيش المشركين - يوم غزوة بدر الأخيرة ليذهب لرسول الله ويخذه عن خوض الحرب مع المشركين، فلما جاء نعيم مسلماً لرسول الله أراد رسول الله أن يستفيد من إمكانياته تلك، وأمره أن يقوم بنفس العمل الذي أوكله إليه المشركون يوم أرسلوه ليخذل المسلمين، لقد أمره رسول الله أن يخذل عنه العدو المتحالف ضده، وبذلك يكون قد حارب عدوه بسلاحه نفسه، وطعنه بخنجره عينه، ولكن طعنة المشركين للدولة الإسلامية يوم بدر الأخيرة كانت طعنة طائشة، إذ لم يستطع نعيم أن يخذل رسول الله عن القتال، ولكن طعنة رسول الله لعدوه كانت القاضية، ولا نشك في أن رسول الله شرح لنعيم الموقف شرحاً كاملاً ورسوم له مخططاً ثم أمره بالمسير إلى التنفيذ. فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قُريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال: يا بني قُريظة، قد عرفتم وُدِّي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم. فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه

أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم. لا تقدرّون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تنأجزوهم، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي!.

ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه، نصحاً لكم، فاكتموا عني، فقالوا: نفعل. قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً. ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلي وعشيرتي، وأحب الناس إلي، ولا أراكم تتهمونني، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل. ثم قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذرهم ما حذرهم.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من صنع الله لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل، في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر^(١)، فاغدوا للقتال حتى نأجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا، حتى نأجز محمداً، فإننا نخشى إن ضرستكم الحرب أو اشتد عليكم القتال أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا، ومحمد في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه! فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق. فأرسلوا إلى بني

(١) الخف: الإبل. والحافر: الخيل.

قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا. فقالت بنو قريظة، حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم لحق! ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوا، وإن كان غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين محمد في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رُهناً. فأبوا عليهم وخذل الله بينهم.

(ح) نصر الله رسوله:

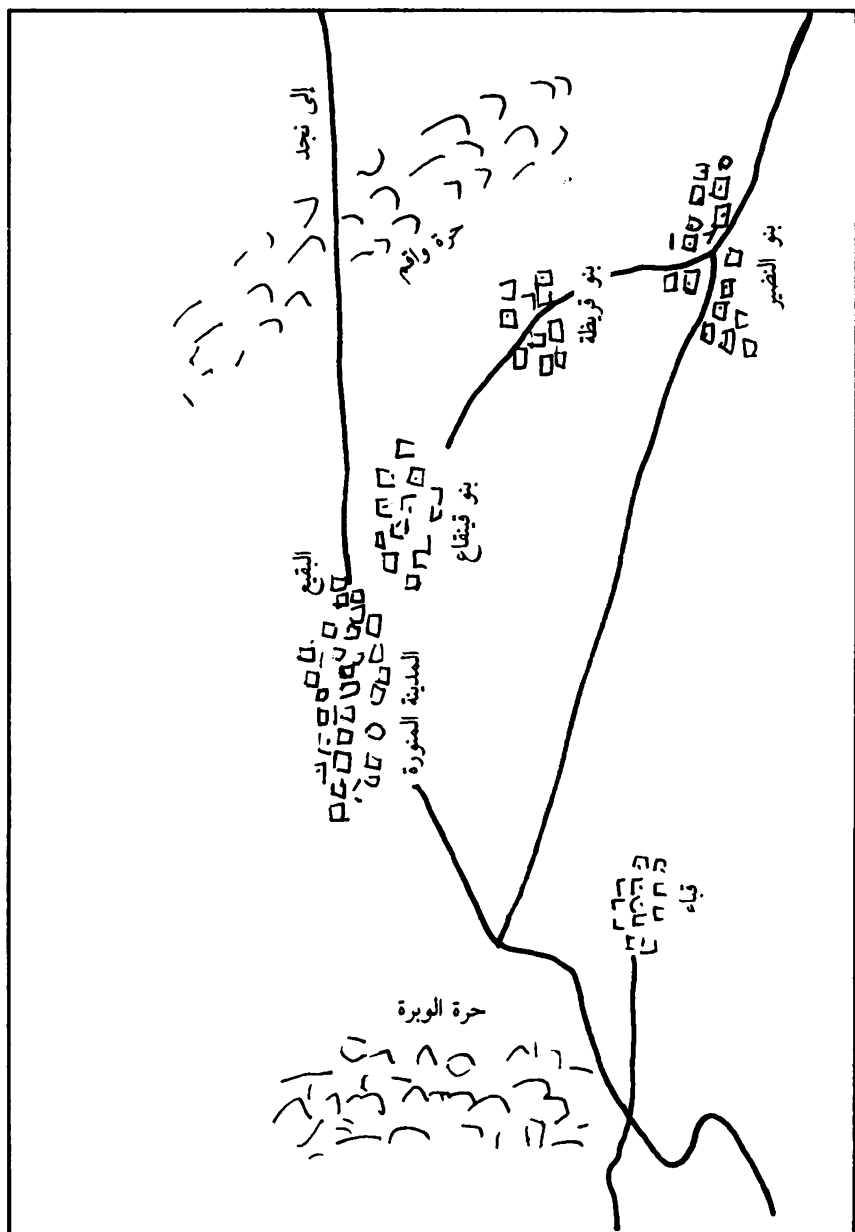
وبعث الله عليهم الريح في ليل شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتقتلع خيامهم.

(ط) حرص الرسول على معرفة أخبار العدو:

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم وما فرق الله من جماعتهم، صلى رسول الله شيئاً من صلاة الليل، ثم دعا حذيفة بن اليمان، فقال له: يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تُحدثن شيئاً حتى تأتينا! قال حذيفة: فذهبت، فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تُقرُّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جلسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان ابن فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء^(١)، فارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي: «أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني» ثم شئت لقتلته بسهم. قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط^(٢) لبعض نسائه، فلما رأي أني أدخلني إلى رجليه، وطرح علي طرف المرط، ثم ركع وسجد وإني لفيه. فلما سلم أخبرته الخبر. وسمعت غطفان بما فعلت قريش فرجعوا إلى بلادهم أيضاً. ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة ورجع معه المسلمون، ووضعوا السلاح.

(١) أي خيمة.

(٢) المرط: كساء من صوف أو كتان أو نحوهما يؤتز به وتلفع به المرأة - أي تلف به جميع جسدها -.



(خريطة رقم ٦)
اليهود المحيطون بالمدينة

المبحث الثاني : تصفية بني قريظة

١ - أسبابها :

السبب الحقيقي لغزوة بني قريظة تنفيذ رسول الله المخطط السياسي الذي وضعه لدولة الإسلام ، وقد جاء دور تصفية بني قريظة في هذا المخطط . والسبب المباشر لها : هو نقض بني قريظة العهد الذي كان بينهم وبين الدولة الإسلامية ، وذلك لما حاصرت قريش رسول الله في غزوة الأحزاب ، ذهب أحد زعماء بني النضير - وهم حلفاء قريش في حربها لرسول الله - واتفق مع بني قريظة على نقض العهد مع رسول الله ، ومهاجمة المدينة المنورة من الخلف - كما بينا - ولذلك ما إن انتهت هذه الغزوة وكشفت الغمة حتى هاجم رسول الله بني قريظة لنقضها العهد .

٢ - المسير إلى بني قريظة :

ما إن وصل الناس ضحى اليوم إلى المدينة المنورة راجعين من الخندق حتى أمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصليّ العصر إلا ببني قريظة . وقدم رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة وابتدروا الناس ، فسار علي بن أبي طالب حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ ، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق فقال : يا رسول الله ، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث . قال : «لم؟ أظنك سمعت منهم لي أذى؟» قال : نعم يا رسول الله . قال : «لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً» . فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال : «يا إخوان القردة؛ هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟» . قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولاً . ولما وصل رسول الله ﷺ بني قريظة نزل على بئر من آبارها من ناحية أموالهم يقال لها بئر «أنا» وتلاحق به الناس ، وتأخر أناس في الوصول إلى بني قريظة لعوائق اعترضتهم ، فلم يصلوها إلا بعد العشاء الآخرة ولم يصلوا العصر : لقول رسول الله ﷺ : «لا يصليّ أحد العصر إلا ببني قريظة» . فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة . فما عابهم الله بذلك في كتابه ، ولا عنفهم به رسول الله ﷺ ، لأنهم لم يخطئوا التصرف ، فقد أدركوا أن قيام الدولة الإسلامية والعمل له فرض لازم ، لأنه إن قامت دولة الإسلام أقيمت الصلاة وسائر تعاليم الإسلام : ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا

الصلاة . . . ﴿١﴾ وإن لم تقم دولة الإسلام فلا قيام للصلاة ولا لأحكام الإسلام .
ولذلك كان قيام الدولة الإسلامية هو الهدف الذي يسعى إليه المؤمن ، لأنه الركن
الذي لا تقوم أكثر تعاليم الإسلام إلا به .

٣ - حصار الرسول لهم :

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في
قلوبهم الرعب . وقد كان حيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت
عنهم قريش وغطفان ، وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه . فلما أيقنوا بأن رسول
الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد لهم : يا معشر يهود ، قد نزل بكم
من الأمر ما ترون ، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم . قالوا : وما هي ؟ قال :
نتابع هذا الرجل ونصدق فوائده لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل ، وأنه للذي تجدونه في كتابكم ،
فتأمنون على دماءكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا
نستبدل به غيره . قال : فإذا أبيتم علي هذه فهلتم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد
وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف ، لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن
نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلًا نخشى عليه ، وإن ظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء .
قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش بعدهم ؟ قال : فإن أبيتم علي هذه فإن الليلة ليلة
السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد
وأصحابه غرة . قالوا : نفسد سبتنا علينا ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد
علمت ، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ ! قال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة
واحدة من الدهر حازماً .

٤ - مفاوضتهم رسول الله :

وشدد رسول الله ﷺ الحصار عليهم ، فأرسلوا شأس بن قيس يفادون رسول الله ﷺ ويعرض
عليه أن ينزلوا على الحكم الذي نزل عليه بنو النضير من ترك العتاد والسلاح والخروج
بالنساء والذراري وما حملت الإبل . فأبى رسول الله ﷺ ذلك . فعرض عليه أن تُحقن دماء بني
قريظة ويسلمون للدولة الإسلامية جميع ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة . فأبى رسول الله ﷺ

(١) سورة الحج ، الآية ٤١ .

إلا أن ينزلوا على حكمه . فعاد إليهم شأس وأخبرهم بذلك . ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ : أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، نستشيره في أمرنا . فأرسله رسول الله ﷺ إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرق لهم وقالوا له : يا أبا لبابة ، أترى أن نزل على حكم محمد؟ قال : نعم - وأشار بيده إلى حلقة - إنه الذبيح ، وقد فهم أبو لبابة ذلك من رفض رسول الله ﷺ طلب رسولهم شأس ، لما طلب من رسول الله ﷺ حقن دمائهم . قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي على مكانهما حتى عرفت أنني قد خنت الله ورسوله ﷺ . ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعتُ ، وأعاهد الله : ألا أطأ بني قريظة أبداً ، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً . فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره ، وكان قد استبطأه قال : «أما إنه لو جاءني لاستغفرت له ، فأما إذ فعل ما فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه» .

مرت أيام ستة وأبو لبابة مرتبط بسارية المسجد ، تأتبه زوجته كل وقت صلاة فتحل وثاقه ، فيؤدي صلاته كأحسن ما يكون الأداء ثم يعود إلى ساريتيه يربط نفسه بها . نزلت توبة الله على أبي لبابة ، وأخبر رسول الله ﷺ زوجته أم سلمة بهذه التوبة وقال لها : «لقد تيب على أبي لبابة» . فقالت : أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال : «بلى إن شئت» ، فقامت على باب حجرتها - وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب - فقالت : يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك ! . قال : فثار الناس إليه ليطلقوه ، فقال : لا والله ، حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده . فلما مر عليه رسول الله ﷺ خرجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

بهذه التربية ، وعلى كواهل هؤلاء المخلصين قامت الدولة الإسلامية . وليس جريمة أن يخطئ المرء ، ولكن الجريمة أن يتفياً ظلال خطئه ، وأبو لبابة في ساعة من ساعات الضعف البشري أخطأ ، ولكن لم يرض - وهو ذو النفس الطاهرة الأبية - أن يتمادي في السير في طريق الخطأ ، لأن هذا التماذي هو جريمة نفسية قبل أن يكون جريمة مادية ، ولذلك تاب أبو لبابة إلى الله ورسوله وفعل بنفسه ما فعل تأديباً وندماً حتى تاب الله عليه .

٥ - تحكيم سعد في بني قريظة :

وتشاور بنو قريظة فيما بينهم ، فوجدوا أن قبضة الرسول قد أحكمت عليهم وأنه لا مفر لهم من إجابة رسول الله ﷺ لما يريد ، فترلوا على حكمه ، واتصلوا سرّاً بغوغاء الأوس وبمن لم

يُثْمُ الإيمان في قلوبهم بعد - وكان بين بني قريظة وبين الأوس حلف وولاء - وطلبوا منهم النصر، فتوائب غوغاء الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وإنك قد سبق لك أن عفوت عن بني قينقاع - موالي الخزرج - عندما طلب منك ذلك عبد الله بن أبي بن سلول، ونحن نرجو ألا يكون حظنا أقل من حظهم. وهكذا وقع رسول الله بين نارين. نار عدم استئصال جذور الشر بالقضاء على أعداء الدولة الإسلامية، وتعويد الغوغاء على الاستجابة لمطالبهم ولو كانت معارضة الخط السياسي للدولة، ولا يبعد أن يتكرر هذا الطلب كلما أراد رسول الله أن يتخذ موقفاً حازماً ضد جماعة من أعداء الدولة الإسلامية، وهذا فيه ما فيه من الخطر على الدولة. ونار احتمال تخلخل الصف الداخلي في الدولة الإسلامية إن هو أقدم على تصفية بني قريظة، ولم يكن اتخاذ قرار في هذا الموضوع بالأمر السهل ولذلك أخذ رسول الله يفكر بمخرج سياسي من هذه الأزمة، فوجد أن في إيكال الأمر إلى زعيم الأوس «سعد بن معاذ» أحسن مخرج من هذه الأزمة فقال رسول الله للأوس: يا معشر الأوس ألا تَرْضَوْنَ أن يحكم فيكم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال رسول الله: «فذاك إلى سعد بن معاذ».

ولا يبعد أن يكون رسول الله قد اتفق سراً مع سعد - وهو من خيرة الذين يضعون مصلحة الدولة الإسلامية في المقدمة - على التدبير الذي يجب اتخاذه.

وكان رسول الله قد أمر بأن يجعل سعد بن معاذ - حين أصابه سهم يوم الخندق، فجرحه جرحاً بليغاً - في خيمة الممرضة «رفيدة الأسلمية» وقال: اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب. فلما حكمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطأوا له بوسادة من آدم، وكان رجلاً جسيماً جميلاً، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم! فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التي سمع منه^(١). فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم»^(٢).

(١) أي ما فهمه من قوله: «آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم» إن سعداً رأى قتلهم، فنعاهم قبل موتهم.

(٢) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري. ومن هنا أخذ الفقهاء مشروعية القيام لأولي الفضل من =

فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار. وأما الأنصار فيقولون: قد عم بها رسول الله ﷺ - فأقبل عليه بعض الأنصار فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من ها هنا؟ - في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ. وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له - فقال رسول الله ﷺ: نعم. قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء. قال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»^(١).

أمر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بإنزال بني قريظة من حصونهم وحبسهم بالمدينة في دار كيسة بنت الحارث، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم أتى بالبالغين منهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يُخرج بهم إليه جماعات، وفيهم عدو الله حيي بن أخطب، وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمئة أو سبعمئة، والمكثر لهم يقول: كانوا بين الثمانئة والتسعمئة، وقد قالوا لكعب بن أسد وهو يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً: يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وإنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل! فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ. وأتى بحيي بن أخطب عدو الله، وعليه حلة له وردية اللون قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة، لئلا يسلبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل. فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل! ثم أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل. ثم جلس فضربت عنقه.

ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، تلك التي طرحت الرحي على خلاد بن سويد فقتلته، أما سائر نسائهم وأطفالهم فقد قسمت بين المسلمين وبعث رسول الله ﷺ بحصة الدولة منها إلى نجد فبيعت هناك، واشتري بها سلاح وخيل لتكون عدة للمسلمين في حرب

= المؤمنين. أما قوله ﷺ: «من أحب أن يمتثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار» فهو محمول على الذين يحبون أن يقوم الناس عليهم وهم قعود، ويبقون كذلك وإن طال قعودهم، كما نص على ذلك النووي في شرحه لصحيح مسلم ٩٣/١٢ ط المطبعة المصرية سنة ١٣٤٩ هـ.

(١) جمع رقيق، وهي السماء.

أعداء الدولة الإسلامية . ويظهر أن سعد بن معاذ قد التمس حكمه هذا من قاعدة المعاملة بالمثل المرعية من المعاملات الدولية في الإسلام ، وهذا هو حكم اليهود في أعدائهم إذا ظفروا بهم في الحكم ، ومن أعدل العدل أن يحكم على الإنسان بما يحكم به على غيره ، فقد جاء في التوراة ، سفر التثنية ١٠ - ١٥ ما يلي :

«حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصالح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك ، وإن لم تسالمك ، بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إليك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إليك» .

وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة ، فكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها وهي في ملكه . وقد كان رسول الله ﷺ عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب ، فقالت يا رسول الله ، بل تتركني في ملكك فهو أخف علي وعليك . فتركها . وقد كانت حين سبها قد أصرت على اليهودية وأبت الإسلام فعزلها رسول الله ﷺ . وقد أهتم أمرها ، فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه ، فقال : إن هذا لثعلبة بن سعية يبشرني بإسلام ريحانة . فجاءه فقال : يا رسول الله ، قد أسلمت ريحانة . فسر ذلك من أمرها .

٦ - خسائر المسلمين :

واستشهد في حصار بني قريظة من المسلمين «خلاد بن سويد» طُرِحَتْ عليه رحي فقتل ، و«أبو سنان بن محصن» رضي الله عنهم جميعاً ، ودفنا في مقبرة بني قريظة .

٧ - قصة بني قريظة في القرآن :

وأنزل الله تعالى تأريخ غزوة بني قريظة في القرآن الكريم في سورة الأحزاب فذكر فيها ما نزل من البلاء ، ونعمته عليهم ، وكفايته إياهم ، حين فرج ذلك عنهم ، بعد مقالة من قال من أهل النفاق : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ^(١) فَأَرْسَلْنَا

(١) هم قريش وغطفان وبنو قريظة في الأحزاب .

عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها^(١) وكان الله بما تعملون بصيراً * إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم^(٢) وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً * وإذا يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً^(٣) * وإذا قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً * ولو دخلت عليهم^(٤) من أقطارها ثم سئلوا الفتنة^(٥) لأتوها وما تلثبوا بها إلا يسيراً * ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولئون الأدبار^(٦) وكان عهد الله مسؤولاً * قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلاً * قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً * قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً^(٧) * أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً * يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يوئدوا لو أنهم بادون في الأعراب^(٨) يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً * لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً * ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً * من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً * ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله

(١) هي الملائكة.

(٢) الذين جاؤوهم من فوقهم هم بنو قريظة، والذين جاؤوهم من أسفل منهم هم قريش وغطفان.

(٣) وذلك أن معتب بن قشير مع جماعة كانوا يقولون: إن محمداً يعدنا كنوز كسرى وقصر وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!!

(٤) أي دخلت عليهم المدينة من أقطارها.

(٥) المراد بالفتنة: الرجوع إلى الشرك.

(٦) هم بنو حارثة، وذلك أنهم بعد هربهم من ساحة المعركة يوم أحد أعطوا رسول الله العهد ألا يفروا من معركة بعدها أبداً.

(٧) هم المنافقون.

(٨) وذلك لجبنهم وضعف إيمانهم.

كان غفوراً رحيماً * وردَّ الله الذين كفروا^(١) بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً * وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب^(٢) من صياصبيهم^(٣) وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها^(٤) وكان الله على كل شيء قديراً^(٥).

(١) هم قريش وغطفان.

(٢) هم بنو قريظة.

(٣) أي حصونهم.

(٤) هي أرض خيبر.

(٥) سورة الأحزاب، الآيات ٩ - ٢٧.

٢٥ تصفية الكيان السياسي لبني المصطلق

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : التمهيد لتصفية الكيان السياسي ليهود بني المصطلق

- ١ - سرية محمد بن مسلمة إلى الرقطاء
- ٢ - غزوة بني لحيان
- ٣ - سرية كرز بن زيد إلى العرنين
- ٤ - غزوة ذي قرد
- ٥ - سرية عكاشة إلى الغمر
- ٦ - سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة
- ٧ - سرية أبي عبيدة
- ٨ - سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم
- ٩ - سرية زيد بن حارثة إلى العيص
- ١٠ - سرية زيد بن حارثة إلى الطرف
- ١١ - سرية زيد بن حارثة إلى حسمى
- ١٢ - سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى

المبحث الثاني : تصفية الكيان السياسي لبني المصطلق

- ١ - الغزوة
- ٢ - حوادث هامة
- (أ) نار الفتنة
- (ب) سبي بني المصطلق
- (ج) الإفك

المبحث الأول : التمهيد لتصفية الكيان السياسي ليهود بني المصطلق

كان مخطط رسول الله ﷺ بعد أن صفى بني قُرَيْظَةَ أن يعمل على تصفية جماعة أخرى

من اليهود، ولم يبق من جماعات اليهود المحيطين بالمدينة المنورة ممن لهم كيان سياسي غير يهود بني المصطلق ويهود خيبر. وكان على رسول الله ﷺ أن يقوم بعدة عمليات عسكرية وسياسية قبل الإقدام على تصفيتهم، وكانت أهم هذه الأعمال:

١ - سرية محمد بن مسلمة إلى الرقطاء:

لم يدخل شهر المحرم من السنة السادسة للهجرة حتى جهز رسول الله ﷺ سرية لمحمد بن مسلمة الأنصاري ليسير بها إلى الرقطاء - بطن من بني بكر - وأمره عليه الصلاة والسلام أن يسير الليل ويكمن في النهار، ففعل. وما إن وصلهم محمد بن مسلمة حتى أغار عليهم، وقتل منهم نحواً من عشرة، وفرّ الباقي، واستاق محمد بن مسلمة مائة وخمسين بعيراً، وثلاثة آلاف شاة، وعاد بها إلى المدينة المنورة.

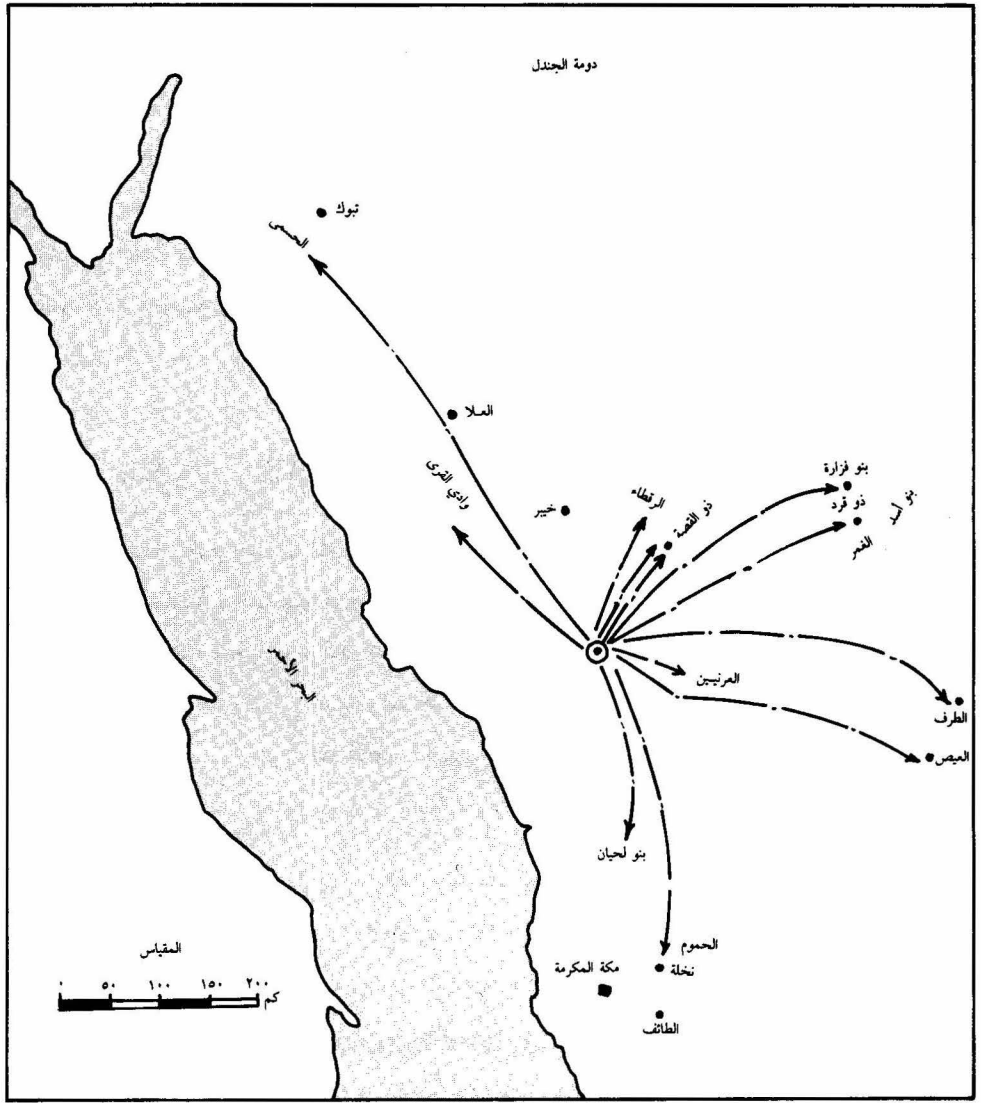
٢ - غزوة بني لحيان:

وما إن دخل شهر ربيع الأول من العام السادس للهجرة حتى خرج رسول الله ﷺ بنفسه إلى بني لحيان.

إن الأسباب البعيدة لهذه الغزوة: هي فرض هبة الدولة الإسلامية، وإظهار قوتها، وإيقاع الرعب في قلوب أعدائها. أما أسبابها المباشرة فهي: ما حدث يوم الرجيع سنة أربع من الهجرة، وذلك أنه قدم وفد من قبيلتي عضل والقارة، فأسلموا فطلبوا من الرسول أن يرسل معهم معلمين، فأرسل معهم جماعة من خيرة الصحابة ولكنهم ما لبثوا أن غدروا بهم في الطريق وقتلوهم، فأمرهم رسول الله، ولما وجد القوة على غزوهم خرج عليهم بهذه الغزوة، انتقاماً لأصحاب الرجيع، وتأديباً للقوم. لأنه لم يتمكن من تأديبهم في ذلك الوقت للظروف التي أحاطت به.

لقد كان من عادة رسول الله إخفاء تحركاته عن عدوه، كما كان من عادته تضليل عدوه، فكان كثيراً ما يخرج بالغزوة لا يدري أحد إلى أين يقصد، وفي هذه المرة أراد رسول الله أن يضلل العدو، فأظهر أنه يريد الشام، ليصيب من القوم غزّة، ويأخذهم على غفلة. فخرج من المدينة فسلّك على غراب - وهو جبل بناحية المدينة على طريقه إلى الشام - ثم على محيص، ثم على البتراء، ثم عدل ذات اليسار فخرج على بين^(١) ثم على صحيرات

(١) بين، بالكسر: واد قرب المدينة.



(خريطة رقم ٧)

التحركات العسكرية الإسلامية بين غزوة بني قريظة وغزوة بني المصطلق

اليمام، ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة، فتابع السير سريعاً حتى نزل على غران^(١) - وهي منازل بني لحيان - إلى بلد يقال له «ساية» فوجدهم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال. فلما نزلها رسول الله ﷺ وأخطأه من غرتهم ما أراد قال: لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أننا قد جئنا مكة، فخرج في مثني راكب من أصحابه حتى نزل عسفان. ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم، ثم قفل رسول الله ﷺ راجعاً. فكان جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين وجه راجعاً: آيئون تائبون إن شاء الله، لربنا حامدون. أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال.

٣ - سرية كرز بن زيد إلى العرييين:

عندما رجع رسول الله من غزوة بني لحيان قدم عليه نفر من قيس كُبة من بجيلة، فاستوبأوا المدينة وأصابهم مرض الطحال حتى كادوا يهلكون، فأخرجهم رسول الله إلى لقاح^(٢) له بفياء الخبر، وكان على هذه اللقاح مولاة يسار، فلما صحّوا عدّوا على يسار فذبحوه وغرزوا الشوك في عينيه واستاقوا اللقاح. فبعث رسول الله في آثارهم كرز بن جابر، فلحقهم، فأتى بهم رسول الله فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم. وإنما فعل بهم رسول الله ذلك قصاصاً كما فعلوا بيسار، عملاً بقوله تعالى: ﴿وإن عاقبتُم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾^(٣).

٤ - غزوة ذي قرد:

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من بني لحيان فلم يبق بها إلا ليالي قلائل حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، في خيل من غطفان على لقاح لرسول الله ﷺ بالغابة^(٤) وفيها ابن أبي ذر الغفاري وامرأة أبي ذر، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح.

(١) غران: واد بين أمج وعسفان.

(٢) اللقاح: الإبل ذات اللبن.

(٣) سورة النحل، الآية ١٢٦.

(٤) الغابة: موقع قرب المدينة من ناحية الشام.

وكان أول من علم بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع السلمي، حين غدا يريد الغابة متوشحاً قوسه ونبله، ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله، ومع الغلام فرس له يقوده. حتى إذا علا ثنية الوداع نظر إلى بعض خيولهم، فأشرف في ناحية سلع ثم صرخ: واصباحاه! ثم خرج مسرعاً في آثار القوم، وكان مثل السبع، حتى لحق بالقوم، فجعل يردهم بالنبل، ويقول إذا رمى: «خذها وأنا ابن الأكوع، اليوم يوم الرُّضْع»^(١). فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هارباً ثم عارضهم، فإذا أمكنه الرمي رمى ثم قال: «خذها وأنا ابن الأكوع، اليوم يوم الرضع». فيقول قائلهم أُوَيْكِعُنَا هو أول النهار. وبلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع، فصرخ بالمدينة: الفرع الفرع، فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ. وكان أول من انتهى إلى رسول الله ﷺ من الفرسان المقداد بن عمرو، ثم عباد بن بشر بن وقش، وسعد بن زيد، وأسيد بن ظهير، وعُكاشة بن مِخْصَن، ومحرز بن فضلة، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وأبو عيثاش عبيد بن زيد. فلما اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أمر عليهم سعد بن زيد، ثم قال: «أخرج في طلب القوم حتى ألحقك بالناس».

وهذا يدل على أنه كان للدولة الإسلامية قوات خفيفة الحركة سريعة التشكيل مستنفرة دائماً، يدفع بها الرسول ﷺ إلى المكان الذي يريد عندما تدعو الحاجة لذلك.

ولما تلاحقت الخيل قتل أبو قتادة الحارث بن ربعي، حبيب بن عيينة بن حصن، وغشاه ببرده، ثم لحق بالناس. وأقبل رسول الله ﷺ في المسلمين، فإذا حبيب مسجى ببرد أبي قتادة، فاسترجع^(٢) الناس وقالوا: قتل أبو قتادة! فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأبي قتادة، ولكنه قتيل لأبي قتادة وضع عليه برده لتعرفوا أنه صاحبه». وأدرك عُكاشة بن محصن أوباراً وابنه عمرو بن أوبار، وهما على بعير واحد، فانظمهما بالرمح فقتلتهما جميعاً، واستنقذوا بعض اللقاح، وسار رسول الله ﷺ حتى نزل بالجبل من ذي قرد، وتلاحق به الناس، وأقام عليه يوماً وليلة. وقال سلمة بن الأكوع: يا رسول الله، لو سرحتني في مئة رجل لاستنقذت بقية السرح وأخذت بأعناق القوم. فقال رسول الله ﷺ: «إنهم الآن ليغبقون»^(٣) في غطفان. وفي رواية أن رسول الله قال له: «ملكك فأسجع» أي قدرت فاعف، «إنهم الآن ليغبقون في غطفان» وإنما رفض رسول الله ﷺ اللحاق بهم لأمرين:

(١) جمع راضع، والراضع: اللثيم، والمعنى: اليوم يهلك اللثام.

(٢) استرجعوا: قالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

(٣) يغبقون: يشربون لبن المساء.

الأول: لأن غزوته هذه ليست غزوة تصفوية، ولذلك اكتفى منها بإشعار العدو بقوة الدولة الإسلامية، وإقامة البرهان له على أنها قادرة على البطش بعducها عندما تريد ذلك.

الثاني: أن غطفان لها من القوة الحربية ما لها، فلم يرغب رسول الله التورط معها بقتال يرهق به قواته، لأنه يدخر هذه القوات للغزوات التصفوية التي خطط لها عليه الصلاة والسلام.

واحتفالاً بالنصر، وتقديراً لجهود الأبطال، فقد صنع رسول الله لهم وليمة في أرض النصر فأكلوا وحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله. ثم رجع بهم رسول الله قافلاً، حتى قدم المدينة. وأقبلت امرأة أبي ذر الغفاري على ناقة من إبل رسول الله حتى قدمت عليه، فأخبرته الخبر، فلما فرغت قالت: يا رسول الله، إني قد نذرت لله أن أنحرها إن نجاني الله عليها! فتبسم رسول الله ثم قال: «بش ما جزيتها أن حماك الله ونجاك بها ثم تنحرينها! إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي، فارجعي إلى أهلك على بركة الله». وذلك درس في السلوك والأخلاق لا ينسى.

٥ - سرية عكاشة إلى الغمر :

وفي شهر ربيع الأول أيضاً وبعد غزوة ذي قرد جهز رسول الله سرية من أربعين رجلاً إلى غمر مرزوق - وهو ماء لبني أسد - يقودها عكاشة بن محصن فخرج عكاشة مسرعاً، ولما علم القوم بقدومه هربوا، فعثر عكاشة وأصحابه على أنعامهم، فاستاقوها، وكانت مائتي بعير، وقدموا بها إلى رسول الله.

٦ - سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة :

وما إن دخل شهر ربيع الثاني حتى جهز رسول الله سرية مؤلفة من عشرة رجال لمحمد بن مسلمة ووجهها إلى بني ثعلبة وبني عوال، وهم بذئ القصة، فوردوا عليهم ليلاً، وهم مائة رجل، فأحاط بهم المسلمون وقتلوهم وجرح محمد بن مسلمة في كعبه، فحملة رجل من المسلمين إلى المدينة، فبعث رسول الله أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً إلى مصارعهم فلم يجدوا أحداً، ووجدوا نعماً وشاء فساقه أبو عبيدة وعاد به إلى المدينة المنورة.

٧ - سرية أبي عبيدة إلى ذي القصة :

وفي شهر ربيع الثاني أيضاً جهز رسول الله سرية لأبي عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً ليهاجم تجمعاً بالمراض - على ست وثلاثين ميلاً من المدينة - أقامته قبائل بني محارب وثلعة وأنمار، فسار إليهم أبو عبيدة ليلاً، ووافى ذا القصة عند خيوط الفجر الأولى، فأغار عليهم، فهربوا وتفرقوا في الجبال فأخذ متاعهم وعاد به إلى المدينة المنورة.

٨ - سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم :

وفي أواخر شهر ربيع الآخر جهز رسول الله لزيد بن حارثة سرية إلى بني سليم بالحموم ببطن نخلة، فأصابوا امرأة من مزينة اسمها حليلة، فأسروها، فدلّتهم على منازل بني سليم، فأصابوا نعماً وشاء وأسرى، وعادوا بذلك إلى رسول الله، فأطلق رسول الله حليلة وأطلق لها زوجها مكافأة لها لما صنعت.

٩ - سرية زيد بن حارثة إلى العيص :

وما أن دخل شهر جمادى الأولى سنة ست للهجرة حتى جهز رسول الله سرية لزيد بن حارثة في سبعين راكباً ليعترض تجارة لقريش تمر بالعيص، فأدركها زيد وأخذ ما فيها ورجع به إلى رسول الله ﷺ، ووقع في الأسر في هذه الغزوة أبو العاص بن الربيع، زوج بنت رسول الله زينب، فأجارت زوجته وأجابها رسول الله إلى جوارها.

١٠ - سرية زيد بن حارثة إلى الطّرف :

وفي نفس الشهر جهز رسول الله بعد ذلك سرية لزيد إلى الطرف - وهو ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة على طريق العراق - فخرج زيد إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلاً فأصاب إبلاً وشاء وعاد بها إلى المدينة المنورة.

١١ - سرية زيد بن حارثة إلى حِسمى :

ولما دخل شهر جمادى الثانية جهز رسول الله سرية لزيد بن حارثة إلى حِسمى وراء وادي القرى من جهة الشام. لما أرسل رسول الله دحية الكلبي إلى قيصر الروم في رسالة

ذهب دحية وبلغه إياها، وعاد دحية، ومعه تجارة له وهدايا حملة إياها قيصر، فعرض له في الطريق الهندي بن عوص في ناس من جذام وسلبوه ما معه، فسمع بذلك نفر من بني الضبيب فنفروا إليه واستردوا لدحية متاعه، فعاد دحية إلى رسول الله فقص عليه الخبر، فرأى رسول الله أن من واجبه تأديب هذه الجماعة العابثة الظالمة، لإشاعة الأمن، وفرض هيئة الدولة الإسلامية. فجهز رسول الله لزيد جيشاً قوامه خمسمائة رجل ومعه دحية، فكان زيد يسير ليلاً ويكمن نهاراً، وأغار عليهم في الصباح فقتل منهم من قتل وفي القتلى الهندي وابنه، وساق من ماشيتهم ألف بعير، وخمسة آلاف شاة، ومن السبي مائة من النساء والصبيان. وتوجه بهم نحو المدينة المنورة.

فرحل زيد بن رفاعة الجذامي إلى رسول الله فدفع إليه كتابه الذي كان قد كتب له ولقومه يوم قدم عليه مسلماً، وطلب من رسول الله أن يطلق لهم من النساء والأولاد من كان حياً، ويرد إليهم أموالهم. ففعل رسول الله ﷺ ذلك، وكان زيد لما يصل بالنعم والسبي المدينة المنورة بعد، فحمل إليه أبو يزيد بن عمرو أمر رسول الله برد النعم والسبي، فامتل زيد رضي الله عنه وردها إليهم. ولم يرد رسول الله لهم أموالهم وسبيهم وفاء بالكتاب الذي كان قد كتبه لزيد بن رفاعة وقومه يوم أسلم - كما توهم بعض كتاب السيرة - لأن هذا الكتاب يبقى ساري المفعول ما تمسكت جذام بعهدتها مع رسول الله ﷺ، أما وإنها قد نكثت به واعتدت فإن هذا الكتاب أصبح منقوضاً، وإن الذي نقضه من بدأ بالاعتداء - وهم جذام - . ولكنه ردها إليهم بنظر سياسي هو غاية في الحكمة وحسن التصرف، ذلك أن هذه الغزوة قد حققت أهدافها من فرض هيئة الدولة الإسلامية، وإقامة البرهان للقبائل العربية أن الدولة الإسلامية قادرة على البطش، بمن تسول له نفسه النيل منها.

وطالما أن هذا الغرض قد تحقق بما لا يدع مجالاً للشك فيه، فما المانع من أن تكسب الدولة الإسلامية قلوب هذه القبيلة مسلمها ومشرکها، وغيرها من القبائل برء أموالها ونسائها وأولادها إليها، وبذلك يتم البرهان لهم أن الدولة الإسلامية لا تبغي تسلطاً بالباطل وسلباً ونهباً وأموالاً، ولكنها تريد أن تقرر الأمن والاستقرار في الربوع في ظل مبادئ الإسلام العادلة المحققة لمصالح الجماعة التي تعيش في ظلها.

١٢ - سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى :

وفي رجب من هذا العام جهز رسول الله سرية لزيد بن حارثة إلى وادي القرى، فلقي

به بني فزارة، فأصيب جماعة من أصحاب زيد، وارث زيد من بين القتلى، ولما قدم زيد المدينة أقسم ألا يمسه رأسه غسل من جنابة حتى يغزو بني فزارة، فلما شفي من جراحه بعثه رسول الله في رمضان إلى بني فزارة بجيش، فقتلهم بوادي القرى، وأسر أم قرفة فاطمة بنت ربيعة بن بدر وبتألهما، وكانت عجوزاً ذات مكانة وشرف، فقتلها زيد لسبها رسول الله ﷺ.

المبحث الثاني : تصفية الكيان السياسي لبني المصطلق

١ - الغزوة ^(١) :

بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن ضرار، فلما سمع رسول الله ﷺ بهم خرج إليهم في شعبان سنة ست حتى لقيهم على ماء يقال له المريسيع، من ناحية قديد إلى الساحل. فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق، وقتل من قتل منهم، ونقل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه.

٢ - حوادث هامة :

وقد حدث في هذه الغزوة حوادث على غاية من الأهمية بحيث لا يسع باحث أن يمر بهذه الغزوة دون أن يذكرها، منها :

(أ) نار الفتنة :

فبينما رسول الله ﷺ على الماء، بعد فراغه من عدوه وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له : جهجاه بن مسعود، يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسانن بن وبر الجهني على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار! وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين! فغضب عبد الله بن أبي بن سلول - وعنده رهط من قومه - فيهم زيد بن أرقم، غلام حدث فقال : أوفعلوها؛ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وجلايب قريش ^(٢) إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة

(١) وتسمى أيضاً غزوة المريسيع.

(٢) لقب كان المشركون يلقبون به من أسلم من المهاجرين.

ليخرجن الأعز منها الأذل! ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم!.

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى إلى رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُر عباد بن بشر فليقتله. فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا، ولكن أذن بالرحيل. وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال ولا تكلمت به! - وكان ابن سلول في قومه شريفاً عظيماً - وقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل! - قالوا ذلك حديثاً على ابن أبي بن سلول، ودفعاً عنه -.

فلما نهض رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكراً ما كنت تروح في مثلها! فقال له رسول الله ﷺ: «أوما بلغك ما قال صاحبكم؟» قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن سلول». قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز! ثم قال: يا رسول الله، أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً. ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي. وبهذا التصرف الحكيم قبر رسول الله ﷺ في مهدها.

ونزلت «سورة المنافقون» في ابن سلول ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: هذا الذي أوفى الله بأذنه. وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان من أمر أبيه فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن سلول فيما بلغك عنه. فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه،

ذهب دحية وبلغه إياها، وعاد دحية، ومعه تجارة له وهدايا حملة إياها قيصر، فعرض له في الطريق الهنيد بن عوص في ناس من جذام وسلبوه ما معه، فسمع بذلك نفر من بني الضبيب فنفروا إليه واستردوا لدحية متاعه، فعاد دحية إلى رسول الله فقص عليه الخبر، فرأى رسول الله أن من واجبه تأديب هذه الجماعة العابثة الظالمة، لإشاعة الأمن، وفرض هيئة الدولة الإسلامية. فجهز رسول الله لزيد جيشاً قوامه خمسمائة رجل ومعه دحية، فكان زيد يسير ليلاً ويكمن نهاراً، وأغار عليهم في الصباح فقتل منهم من قتل وفي القتلى الهنيد وابنه، وساق من ماشيتهم ألف بعير، وخمسة آلاف شاة، ومن السبي مائة من النساء والصبيان. وتوجه بهم نحو المدينة المنورة.

فرحل زيد بن رفاعة الجذامي إلى رسول الله فدفع إليه كتابه الذي كان قد كتب له ولقومه يوم قدم عليه مسلماً، وطلب من رسول الله أن يطلق لهم من النساء والأولاد من كان حياً، ويرد إليهم أموالهم. ففعل رسول الله ﷺ ذلك، وكان زيد لما يصل بالنعيم والسبي المدينة المنورة بعد، فحمل إليه أبو يزيد بن عمرو أمر رسول الله برد النعم والسبي، فامثل زيد رضي الله عنه وردّها إليهم. ولم يرد رسول الله لهم أموالهم وسبيهم وفاء بالكتاب الذي كان قد كتبه لزيد بن رفاعة وقومه يوم أسلم - كما توهم بعض كتاب السيرة - لأن هذا الكتاب يبقى ساري المفعول ما تمسكت جذام بعهدهما مع رسول الله ﷺ، أما وإنها قد نكثت به واعتدت فإن هذا الكتاب أصبح منقوضاً، وإن الذي نقضه من بدأ بالاعتداء - وهم جذام - . ولكنه ردها إليهم بنظر سياسي هو غاية في الحكمة وحسن التصرف، ذلك أن هذه الغزوة قد حققت أهدافها من فرض هيئة الدولة الإسلامية، وإقامة البرهان للقبائل العربية أن الدولة الإسلامية قادرة على البطش، بمن تسول له نفسه النيل منها.

وطالما أن هذا الغرض قد تحقق بما لا يدع مجالاً للشك فيه، فما المانع من أن تكسب الدولة الإسلامية قلوب هذه القبيلة مسلمها ومشرکها، وغيرها من القبائل برّد أموالها ونسائها وأولادها إليها، وبذلك يتم البرهان لهم أن الدولة الإسلامية لا تبغي تسلطاً بالباطل وسلباً ونهباً وأموالاً، ولكنها تريد أن تقر الأمن والاستقرار في الربوع في ظل مبادئ الإسلام العادلة المحققة لمصالح الجماعة التي تعيش في ظلها.

١٢ - سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى :

وفي رجب من هذا العام جهز رسول الله سرية لزيد بن حارثة إلى وادي القرى، فلقى

فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني، وإنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن سلول يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: بل نترقق به ونحسن صحبته ما بقي معنا. وجعل بعد ذلك ابن سلول إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه. فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله، لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

(ب) سبي بني المصطلق:

وكان رسول الله ﷺ قد أصاب منهم سبياً كثيراً فقسمه عليه الصلاة والسلام بين المسلمين، وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، وكانت امرأة حلوة خفيفة الظل، لا يراها أحد إلا وقعت بنفسه، فوقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس بن الشماس، أو في سهم ابن عم له، فكاتبها على نفسها، إن هي أدت له كذا من المال فهي حرة، فخرجت جويرية تسعى وتطرق الأبواب لجمع هذا المال لتستعيد حريتها، فأنت رسول الله ﷺ تستعينه على ذلك وتطلب منه شيئاً من المال - وهذا يرسم لنا صورة واضحة عن صورة رسول الله في نفس الأسرى، فهو يحتل في نفوسهم أجمل مكان رغم ما أوقعه الله بهم من الأسر على يده، فهو عندهم المحسن والمنصف والعادل والكريم - دخلت جويرية على رسول الله فقالت: «يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت بن قيس، أو قالت: لابن عمه، فكاتبته على نفسي، فجئت أستعينك على كتابتي». في هذه اللحظة جالت في رأس رسول الله أفكار عدة، كلها تستصرخه وتحتم عليه أن يقوم بتصرف ما.

فهي من جهة فتاة رُكِّيت في بيت شرف وعز، ولن تطبيق ذل العبودية، ولا يبعد أن تتصرف بأي تصرف لتتخلص من الرق الذي ضرب عليها. وذكر رسول الله أنه هو الذي يقول: «أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم» وفي الأثر: «ارحموا عزيز قوم ذل» وكان ذلك من أخلاقه عليه الصلاة والسلام، فقد أطلق أيضاً سفانة بنت حاتم الطائي لأنها من بيت عز وجاه وشرف. وهي من جهة ثانية فتاة حلوة ملاحه لا يجوز أن تترك تطرق الأبواب تعرض الناس إلى الفتنة، فصيانة هذا الجمال واجب لا بد منه. وهي من جهة ثالثة من قوم اشتد عليهم البلاء، وإن كانوا من خصومه عليه الصلاة والسلام، وليست غاية رسول الله إذلال نفوسهم

يَزْحلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج وهم يظنون أنني فيه كما كنت أصنع، فاحتملوه فشدوه على البعير، ولم يشكوا أنني فيه^(١) ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس. فتلفتت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلي، فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف علي، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رأيته قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة^(٢) رسول الله ﷺ!، وأنا متلففة في ثيابي. قال: ما خلّفك يرحمك الله؟ فما كلمته. ثم قرب البعير فقال: اركبي، واستأخر عني، فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا. فارتعج^(٣) العسكر، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألث أن اشتكت شكوى شديدة، ولا يبلغني من ذلك شيء، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبيي لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أنني قد أنكرت من رسول الله بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكت رحماني ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل عليّ وعندي أُمي تمرضني قال: «كيف تيكمن؟» لا يزيد في ذلك، حتى وجّدت^(٤) في نفسي فقلت: يا رسول الله - حين رأيْتُ ما رأيْتُ من جفائه لي - لو أذنت لي فانتقلت إلى أُمي فمرضتني؟ قال: «لا عليك». قالت: فانتقلت إلى أُمي ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نفهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة. وكنا قوماً عرباً لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف^(٥) التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرها، إنما كنا نذهب في المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعني أم مسطح بنت أبي رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف، فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها^(٦)، فقالت: تعس مسطح! قلت: بش - لعمر الله - ما قلت

(١) لأنها كانت صغيرة السن خفيفة الوزن.

(٢) ظعينة: زوجة.

(٣) ارتعج: تحرك واضطرب.

(٤) الوجد: الحزن.

(٥) كنف: مفردا كنيف، وهو المرحاض.

(٦) المرط: الكساء الذي تلفة المرأة على جسدها.

لرجل من المهاجرين قد شهد بديراً! قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك. قلت: أوقد كان هذا؟. قالت: نعم والله لقد كان. قالت: فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي، ورجعت، فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي، وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً! قالت: أي بنية، هوني عليك الأمر، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثُرْنَ وكثُرَ الناس عليها. قالت: وقد قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم - ولا أعلم بذلك - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي». قالت: وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول، في رجال من الخزرج، مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش. وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ. ولم تكن من نسائه امرأة تناصيني^(١) في المنزلته عنده غيرها. فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً. وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت، تضادني لأختها، فشقيتُ بذلك. وأكبر بها من فرية، وأعظم بها من مؤامرة دنيئة حبكها عقل شيطاني أعماه الحقد.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة قال أسيد بن حضير: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم! فقام سعد بن عباد - وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً - فقال: كذبت لعمر الله، لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا! فقال أسيد: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين!. قالت: وتساور^(٢) الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر، ونزل رسول الله ﷺ - من على المنبر - فدخل عليّ، فدعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى عليّ خيراً وقاله، ثم قال: يا رسول الله، أهلك ولا تعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل! وأما عليّ فإنه قال: يا رسول الله، إن النساء لكثير! وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية فإنها تصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة^(٣) ليسألها، فقام إليها علي بن أبي طالب فضربها ضرباً شديداً ويقول: أصدقي رسول

(١) المناصاة: المساواة.

(٢) تساوروا: تواءموا.

(٣) بريرة: مولاة عائشة.

ولا استرقاق رقابهم، ولكن غايته تصفية كيانهم السياسي ليسلم الأمر للدولة الإسلامية، ولكن الجنود المحاربين ثبت حقهم فيما أصابوه من غنائم وسبي. ولذلك فكر رسول الله أنه إذا ما ضم جويرية إلى أمهات المؤمنين سيتنازل كثير من المسلمين عن حقهم من السبي لأنهم أصهار رسول الله ﷺ، لما يعرف من حب الصحابة وتقديرهم له، وعندئذ يتم لرسول الله ما يريد من إعلاء كلمة الله وتطبيب النفوس وسد باب الفتنة، وجعل القيم العليا في المقدمة. فقال رسول الله لجويرية: «فهل لك من خير من ذلك؟» قالت: وما هو؟ قال «أقضي عنك كتابتك وأتزوجك»، قالت: نعم. قال: «قد فعلت».

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله قد تزوج جويرية، فقال الناس: إن ما بأيدينا من السبي هم أصهار رسول الله، فأطلقوا ما بأيديهم حتى بلغ ما أطلقوه أكثر من مائة أهل بيت من بني المصطلق. وهكذا تحقق ما خطط له رسول الله ﷺ.

(ج) الإفك: ومن هذه الحوادث الهامة التي وقعت في الطريق إلى المدينة المنورة حديث الإفك، ولترك عائشة رضي الله عنها صاحبة القصة تقص علينا قصة الإفك.

قالت السيدة عائشة: كان رسول الله إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرجت قرعتها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ﷺ. وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العلق^(١) لم يهجن اللحم فيثقلن، وكنت إذا رُحِل لي بعيري جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يُرحلون لي ويحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير فيشدونه بحباله ثم يأخذونه برأس البعير فينطلقون به.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك وجه قافلاً حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجتُ لبعض حاجتي وفي عنقي عقد لي، فيه جزع ظفار^(٢)، فلما فرغت انسلت من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه، فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم خلفي، الذين كانوا

(١) العَلَق: جمع عُلقَة، بالضم، وهو ما يتبلغ به من الطعام.

(٢) الجزع: الخرز. وظفار: مدينة باليمن قرب صنعاء.

الله ﷺ. فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أنني كنت أعجن عجبني فأمرها أن تحفظه، فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله!

قالت: ثم دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي أبوي، وعندي امرأة من الأنصار، وأنا أبكي وهي تبكي معي، فجلس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا عائشة، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقي الله، وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده!» فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك فقلص دمعي^(١) حتى ما أحس منه شيئاً؛ وانتظرت أبوي أن يجييا عني رسول الله فلم يتكلموا! وأيم الله لأننا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأنًا من أن ينزل الله فيّ قرآنًا يقرأ به في المساجد ويصلى به، ولكن قد كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئاً يكذب به الله عني، لما يعلم من براءتي، أو يخبر خبراً، فأما قرآن ينزل فيّ فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك!. فلما لم أر أبوي يتكلمان: قلت لهما ألا تجييان رسول الله ﷺ؟ فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه. والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام!

فلما أن استعجما علي^(٢) استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً! والله إنني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أنني منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا يصدقوني. قالت: ثم التمسيت اسم يعقوب فما أذكره، فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾^(٣). فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه^(٤)، فسجى بثوبه ووضعت له وسادة من آدم تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليت، قد عرفت أنني بريئة، وأن الله عز وجل غير ظالمي. وأما أبوي فالذي نفس عائشة بيده ما سري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما، فرقا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس. قالت: ثم سري عن رسول الله ﷺ فجلس وإنه ليتحدر منه مثل الجمان^(٥) في يوم شاتٍ فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك. قلت: بحمد الله.

(١) قلص: ارتفع وأمسك.

(٢) استعجم: لم ينطق.

(٣) سورة يوسف، الآية ١٨.

(٤) تريد أنه أتاه الوحي.

(٥) الجمان: حب كالدر يصنع من الفضة.

ثم خرج إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثه، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة، فضربوا حذهم. قال ابن إسحاق، عن بعض رجال بني النجار: إن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة! قالت: والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله لخير منك!.

قالت: فلما نزل القرآن يذكر من قال من أهل الفاحشة ما قال من أهل الإفك. فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِذ تلقونه بالسُّتْمِ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾^(١). فلما نزل هذا في عائشة وفيمن قال عنها ما قال، قال أبو بكر: - وكان ينفق على مسطح لقربته - والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً، ولا أنفعه بنفع أبداً بعد الذي قال عن عائشة وأدخل علينا.

قالت: فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولَوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

وحديث الإفك هو حلقة في سلسلة الحرب النفسية السياسية التي خطط لها اليهود وأذئابهم من المنافقين ضد الدولة الإسلامية، وإذا ما علمنا ما للعرض من أثر في الحياة العربية، علمنا حجم الأثر الذي ستركه هذه الإشاعة. وقد استطاع المنافقون التغيرير بأفراد من المسلمين، فخاضوا معهم فيما خاضوا فيه من الإفك.

لقد أشاع المنافقون الإفك حتى ترددت أصداؤه في أنحاء الدولة الإسلامية، وهم يعلمون أن الحديث ليس له أصل، وإنما أطلقوه لأنهم يعلمون أن رسول الله لن يقيم حد الزنا على زوجته السيدة عائشة ولا على المتهم صفوان بن المعطل لا لأن عائشة زوجته، ولكن لعدم توفر الدليل المادي على ذلك، وعندها يرجف المرجفون - عبد الله بن أبي بن سلول

(١) سورة النور: الآية ١١ وما بعدها.

وجماعة من المنافقين واليهود - أن محمداً قد تستر على جريمة من أكبر الجرائم - وهي جريمة الزنا - لأن المتهم بها زوجته . وهذا يقدح في رسول الله كنبى ، وكرئيس دولة . أما أن يقدح به كنبى : إذ أنه لو كان نبياً حقاً لما جاز له أن يرضى إيواء زانية في بيته ، فضلاً عن اتخاذها زوجة له .

وأما أنه يقدح به كرئيس دولة : فإن العدالة التي ينادي بها محمد ، والمساواة بين الناس أمام الشرع سرعان ما تصبح أثراً بعد عين إذا ما مست مصالحه الشخصية ، وبذلك يكون حامي الشرع هو أول المنتهكين له . وهذا لا يليق بمسؤول بسيط في الدولة ، فكيف برئيس دولة .

المفتدين

تصفية الكيان السياسي لخير وبقيّة اليهود

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : التمهيد لتصفية الكيان السياسي لخير ويشتمل البنود التالية :

١ - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل

٢ - سرية زيد بن حارثة إلى مدين

٣ - سرية علي بن أبي طالب إلى فدك

٤ - تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية

(أ) أبو رافع

(ب) اليسير بن رزام

(ج) أبو سفيان

٥ - صلح الحديبية

المبحث الثاني : تصفية الكيان السياسي لخير

المبحث الثالث : تصفية بقية الكيانات السياسية لليهود

- إلقاء النوم على المسلمين

المبحث الأول : التمهيد لتصفية الكيان السياسي لخير

كان على رسول الله قبل أن يشرع بتصفية الكيان السياسي لخير أن يقوم بعدة أعمال

تمهيدية منها :

١ - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل :

ففي شعبان أيضاً استدعى رسول الله عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأمره أن يتجهز لسرية يبعثه عليها ، فأصبح وقد اعتم بعمامة سوداء فأدناه رسول الله ثم نقضها ثم عممه بها وأرسل منها من خلفه أربعة أصابع أو نحواً من ذلك وقال له : هكذا يا ابن عوف فاعتم ،

فإنه أحسن وأعرف، ودفع إليه اللواء وقال: خذه يا ابن عوف، اغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم. وبذلك أظهر رسول الله لابن عوف وللناس جميعاً أن الجهاد في سبيل الله لم يشرع لإراقة الدماء، ولا لجبي الأموال، ولكنه شرع لإنقاذ الناس من الظلم ومن الظلمات، وأظهر لهم أن أمر الجهاد ليس مبنياً على الحق، ولكن على الإنصاف. ثم قال رسول الله لابن عوف: «إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم». فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة الجندل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم ملكهم الأصمغ بن عمرو الكلبي - وكان نصرانياً - وأسلم معه ناس كثير من قومه، وفرض ابن عوف على من لم يدخل في الإسلام الجزية، وتزوج تماضر بنت الأصمغ وعاد بها إلى المدينة المنورة، فكان من ولدها أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الفقيه الحافظ العابد.

٢ - سرية زيد بن حارثة إلى مدين :

وفي شعبان أيضاً عقد رسول الله لواء لزيد بن حارثة إلى مدين، فذهب وعاد وقد أصاب سبياً، فبيعوا، ولم يُراعَ في بيعه أن تكون الأولاد مع أمهاتهم، فمَرَّ بهم رسول الله وهم يبكون فقال: ما لهم يبكون؟ فقيل: يا رسول الله فرق بينهم، فقال: «لا تبعوهم إلا جميعاً، ألا لا تفرقوا في البيع بين الأم وابنها، ولا بين الابن وأبيه». وبهذا التصرف تجلت المثل الإنسانية والرحمة بأجلى معانيها فيه عليه الصلاة والسلام.

٣ - سرية علي بن أبي طالب إلى فدك :

وفي شعبان أيضاً أرسل رسول الله علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك لما بلغه أنهم يريدون أن يمدوا خيبر بجماعة لتكون معها في تحالفها الذي عقدته مع قريش ضد الدولة الإسلامية. فسار إليهم علي في مائة رجل: فأغار عليهم، فهربوا من وجهه، فاستولى علي على أنعامهم، وكانت خمسمائة بعير وألفي شاة، وعاد إلى المدينة. واستعجالاً للأمر فقد أرسل رسول الله من يقتل رأس الفتنة في خيبر وهو سلام بن أبي الحقيق.

٤ - تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية :

(أ) تصفية أبي رافع :

كان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق - من يهود خيبر - كثير التحريض على الدولة

الإسلامية حتى إنه جعل لغطفان ومن حوله من قبائل مشركي العرب الجعل العظيم إن هي قامت لحرب رسول الله ﷺ، وشاع أمر أبي رافع وانتشر، وأصبح تحريضه على دولة الإسلام من الأخطار التي يجب أن يوضع لها الحد. وفي يوم من الأيام استأذن جماعة من الخزرج رسول الله في قتله ذباً عن الله ورسوله، فأذن لهم رسول الله بذلك، فخرج له خمسة من الأنصار هم عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة بن ربعي، وخزاعي بن أسود فأمر رسول الله عليهم عبد الله بن عتيك، وأمرهم أن لا يقتلوا وليداً، ولا امرأة. فخرجوا في رمضان، فقدموا خيبر، فطرقوا بابه ليلاً، فخرجت إليهم امرأته فقالت: من أنتم؟ قالوا: ناس من العرب نلتمس المبرة، فأذنت لهم فدخلوا عليه، فقتلوه، وعادوا إلى رسول الله فبشروه بقتله، وكان ذلك في شهر رمضان من سنة ست للهجرة.

(ب) تصفية اليسير بن رزام:

لما قُتِلَ أبو رافع سلام بن أبي الحقيق أمر يهود خيبر عليهم اليسير بن رزام، فأخذ يتصل بغطفان ويجمعها لغزو الدولة الإسلامية، فبلغ ذلك رسول الله، فوجه رسول الله عبد الله بن رواحة مع ثلاثة نفر من أصحابه في رمضان سرّاً، ليستطلعوا أمر اليسير، وليدرسوا أمره، وكيف يمكن أن يؤخذ على حين غرة، فذهبوا؛ وعادوا إلى رسول الله بمعلومات وافية حول الموضوع، فبعث إليه رسول الله عبد الله بن رواحة مع ثلاثين رجلاً من أصحابه، فقدموا على اليسير فقالوا: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له؟ قال: نعم ولي منكم مثل ذلك؟ قالوا: نعم، فقالوا: إن رسول الله بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك، فطمع اليسير بذلك، لعله يصل من وراء ذلك إلى ما يريد، فخرج معهم وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود، يلزم كل رجل من المسلمين رجل من اليهود. حتى إذا وصلوا قرقرة تبار ندم اليسير على خروجه وأهوى بيده على سيف عبد الله بن أنيس الجهني - أحد رجال ابن رواحة - فدفعه عبد الله واقتحمه بسيفه وتبادلا الضربات، وقتل اليسير وشج عبد الله، وقتل كل واحد من المسلمين ملازمه من اليهود إلا واحداً منهم قد هرب. وعادت السرية إلى رسول الله، ورأى رسول الله ما لعبد الله من الشجعة، فتفل رسول الله على شجته، فلم تقح ولم تؤذه.

(ج) تصفية أبي سفيان:

قال أبو سفيان بن حرب - قبل أن يدخل في الإسلام - ألا أحد يقتل لنا محمداً، فإن

أمره هين، إنه يمشي في الأسواق، فأثارة رجل من الأعراب فقال: قد وجدت أجمع الرجال قلباً وأشدهم بطشاً وأسرعهم شداً، فإن أنت قويتني خرجت إليه حتى أغتاله... فقال أبو سفيان: أنت صاحبنا، وأعطاه بغيراً ونفقة وقال له: اكنم أمرك، فخرج الأعرابي حتى أتى المدينة ثم أقبل يسأل على رسول الله، فذُلَّ عليه، فأقبل عليه وهو في مسجد بني عبد الأشهل، فلما رآه رسول الله قال: إن هذا ليريد غدراً، فذهب الأعرابي ليحني على رسول الله فجذبه أسيد بن حضير بداخلة إزاره فإذا بالخنجر، فأسقط بيده، وقال: دمي... دمي... فقال له رسول الله: «أصدقني من أنت؟» قال: وأنا آمن؟ قال: «نعم»، فأخبره بأمره وما جعل له أبو سفيان، فخلى عنه رسول الله ﷺ. ثم إن رسول الله بعث عمرو بن أمية الضمري وبعث معه جبار بن صخر الأنصاري إلى أبي سفيان وقال لهما: إن أصبتما منه غرة فاقتلاه. فدخل مكة، ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلاً، فرآه معاوية بن أبي سفيان فعرفه، فأخبر قريشاً بمكانه فخافوه - وكان فاتكاً في الجاهلية - وأخذوا يبحثون عنه، فهرب عمرو بن أمية، فلقي رجلاً من قريش فقتله لئلا يدل قريشاً عليه، وهما في الطريق أويا إلى كهف فدخل عليهم رجل من بني الدليل، فلم يعرفهما، فجلس وأخذ ينشد:

ولست بمسلم ما دمتُ حياً ولا داني لدين المسلمين

فأمهله عمرو بن أمية فلما نام قتله. وتابعا مسيرهما، فلما وصلا النقيع إذ برجلين من قريش كانت قريش قد بعثتهما عيوناً لها، فصاح بهما عمرو: أن أسلما أنفسكما للأسر؛ فأبيا، فرمى عمرو أحدهما بسهم فقتله، واستأسر الآخر، فأوثقه رباطاً وأتى به المدينة، وجلس عمرو يخبر رسول الله بما حدث، فجعل رسول الله يضحك.

٥ - صلح الحديبية:

(١) أسبابه:

بلغ رسول الله أن تحالفاً عسكرياً عقد بين قريش في جنوب المدينة المنورة، وخير في شمالها، والغاية من هذا التحالف جعل الدولة الإسلامية في المدينة المنورة بين طرفي الكماشة، ثم إطباق فكها عليها وإنهاء الوجود الإسلامي فيها. ولما لم يكن في مقدور رسول الله ﷺ كسر ذلك التحالف عسكرياً بالمواجهة المسلحة، فكر عليه الصلاة والسلام بكسره سياسياً، ولا بد من أن يكون قد جال في خاطر رسول الله ما يلي:

الكعبة في نظر العرب قاطبة ليست ملكاً لقريش، بل هي تراث أبيهم إسماعيل، ولهذا فليس من حق قريش أن تمنع من زيارتها من تشاء، وتجزئ من تشاء. هذه حقيقة لا جدال فيها عند العرب ولا عند قريش نفسها. فمن حق محمد وأصحابه إذن زيارة الكعبة، وفكر رسول الله أنه إذا ما عزم على هذه الزيارة ومشى إليها، فلا بد من أن يواجهه أحد ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأول: أن تمنعه قريش بالقوة من دخول مكة وزيارة الكعبة نظراً لما بينهما وبينه من الدماء. ولكن قريشاً لن تقدم على هذا التصرف لأمرين أولهما: أن هذا سيثير حفيظة العرب ضد قريش لأنها تمنع من يريد تعظيم الكعبة من تعظيمها، وإن أقدمت قريش على هذا العمل، فهو في صالح الدولة الإسلامية قطعاً، لأنه سيثير شقاً في الصف العربي المعادي للدولة الإسلامية، وقريش أعقل من أن تقدم على مثل هذا التصرف. وثانيهما: أن الدولة الإسلامية قد أكدت وجودها في الجزيرة العربية، وأوقعت الرعب في قلب القبائل العربية، وقريش تعلم هذا تمام العلم، ولهذا فإنها لن تجازف بخوض حرب معها.

الاحتمال الثاني: أن تسمح قريش لرسول الله وأصحابه بدخول مكة، ولكن هذا أمر تأباه الكرامة العربية، إذ كيف يطاء القاتل أرض المقتول متمتعاً بحماية ذويه له؟! وعلى فرض أن قريشاً تجاوزت ذلك كله وقبلت دخول محمد وأصحاب محمد فمن يضمن أن لا تقع بعض الحوادث عندما يشاهد الرجل قاتل أبيه وأخيه ينعمان بالأمن والحرية أمامه؟! وإذا ما وقعت بعض هذه الحوادث فلن يكون ذلك في صالح قريش، لأنه سيشتع بين العرب أن قريشاً تقتل في الحرم من أتى لتعظيم الكعبة وأكبر بها من قولة.

الاحتمال الثالث: أن تعرض قريش على الرسول الرجوع دون دخول مكة؛ وهو في هذه الحالة لن يعود إلا بشروط يرضاها، وستبذل له قريش ما يريد خوفاً من الوقوع في أحد الاحتمالين السابقين. كيفما كان الأمر، وأي الاحتمالات الثلاثة قد وقع فهو في مصلحة الدولة الإسلامية إذا نظر إليه سياسياً.

(ب) الخروج للعمرة:

ولذلك أعلن رسول الله أنه يريد أداء العمرة، وجمع الجمع وسار بهم إلى الحديبية، وحدث الاحتمال الثالث، وتمت معاهدة هدنة الحديبية بين قريش والدولة الإسلامية على الشكل المعروف في السيرة وتفصيل ذلك:

إنه ما إن قدم شهر ذي القعدة - وهو من الأشهر الحرم التي لا تنهض فيها العرب إلى

قتال - أعلن رسول الله أنه يريد الخروج إلى مكة معتمراً ومعظماً الكعبة، لا يريد حرباً، ولا يحمل لذلك سلاحاً، واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، دون تمييز بين مسلم ومشرک، وإنما قبل رسول الله إخراج المشركين معه، ليكون ذلك أعون له على تنفيذ مخططه، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه، وليعلموا أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له.

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان^(١) لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا وقد أخرجوا معهم الإبل المدرة للبن ليتزودوا منها وقد نزلوا بذى طوى^(٢) يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم^(٣). فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»^(٤).

إن هذا التصريح السياسي لرسول الله ليدل على صواب تفسيرنا السياسي لهدنة الحديبية، وإن رسول الله لم يرد الحج في الأصل، وإن أظهر ذلك، وإنما كان يريد الحصول على هدنة بينه وبين قريش تمكنه من التحرك العسكري المأمون، ولا نشك بأن هذا التصريح السياسي قد بلغ قريشاً، ولذلك تحولت قريش إلى الهدنة وبدأت فعلاً مفاوضاتها.

ثم قال: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ وإذ برجل من بني أسلم قال: أنا يا رسول الله. فسلك بهم طريقاً وعرّاً كثير الحجارة بين شعاب، أدت بهم إلى الحديبية. ولما رأت خيل المشركين أن المسلمين قد عدلوا عن الطريق أسرعوا لإخبار قريش بذلك. أما رسول الله فإنه ما إن وصل الحديبية حتى بركت ناقته، فقال عليه الصلاة

(١) عسفان: منهل على راحلتين من مكة.

(٢) ذو طوى: موضع قرب مكة.

(٣) كراع الغميم: واد أمام عسفان بثمانية أميال.

(٤) السالفة: صفحة العتق.

والسلام: «حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها». ثم قال للناس: «انزلوا». قيل له: يا رسول الله، ما بالوادي ماء ننزل عليه. فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل به في بئر من تلك الآبار فغرز في جوفه، ففار الماء فيه، حتى أصبحت الإبل والناس ترتوي منه وتزود بالماء.

(ج) تبادل الرسل بين الفريقين:

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أنه بديل ابن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة، فكلّمه وسأله ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت، ومعظماً لحرمة، ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً هذا البيت. فاتهموهم وخاطبوهم بما يكرهون وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا نتحدث بذلك عنا العرب. وإنما اتهمتهم قريش لأنها تعلم أن خزاعة عيبة نصيح^(١) رسول الله ﷺ، مسلمها ومشركها، لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة.

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف، فلما رآه رسول الله مقبلاً قال: هذا رجل غادر. فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلّمه قال له رسول الله ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ. ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة - أو ابن زيان - وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألهون^(٢)، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدي يتجول في طرف الوادي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله^(٣)، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظماً لما رأى. فقال لهم ذلك، فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك. فغضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحدة! فقالوا له: مه، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به. ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي، فخرج حتى

(١) أي خاصته وأصحاب سره.

(٢) يتألهون: يتعبدون ويعظمون الله.

(٣) المحل: الموضع الذي ينحر فيه من الحرم.

أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال : يا محمد، أجمعت أخلاط الناس ثم أتيت قومك لتضربهم بهم !! . إنها قريش قد خرجت، لبسوا جلود النمرور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً.

فأكد له رسول الله ﷺ أنه ما جاء محارباً، وإنما جاء حاجاً، فقام من عند رسول الله وقد رأى احترام وحب أصحاب رسول الله ﷺ لرسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه! ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم. ثم إن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له : «الثعلب» ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، ففعلوا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله، فخلصته الأحابيش وحمته فخلوا سبيله، حتى أتى رسول الله ﷺ. ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال : يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمينني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني : عثمان بن عفان.

وإنما أشار عمر على رسول الله ﷺ، بإرسال عثمان بن عفان، لأن عثمان من بني أمية، وزعامة قريش كانت متمثلة بشخص أبي سفيان الأموي، فقدر عمر أن أبا سفيان لن يتخلى عن قريبه عثمان، وعندئذ سيجد عثمان حامياً يعينه على أداء مهمته. فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته. فخرج عثمان إلى مكة فلقه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل.

(د) بيعة الرضوان :

لما بلغ رسول الله ﷺ أن قريشاً قد قتلت عثمان بن عفان غضب غضباً شديداً وقال : «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا الناس إلى مبايعته على الموت، ووقف تحت شجرة هناك

يتلقى البيعة على ذلك من أصحابه رضوان الله عليهم. وبإيع الناس رسول الله ﷺ، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها، إلا الجد بن قيس، أخو بني سلمة، فكان جابر بن عبد الله يقول: والله لكأنني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقتة، قد لصق إليها يستتر بها من الناس. وسميت هذه البيعة ببيعة الرضوان لقول الله تعالى فيها: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾^(١). . . الآيات. ثم علم رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل. ومهما يكن من أمر هذه البيعة فإنها طمأننت رسول الله ﷺ بأن الصحابة الذين رباهم مستعدون للدفاع عن الدولة التي تحمي العقيدة حتى الموت، وهذه غاية في الوعي السياسي كان يطمح رسول الله ﷺ إلى الوصول إليها، وقد وصل.

(هـ) مفاوضات الصلح :

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : ائت محمداً فصلاحه، على أن يكون في صلحك أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخل علينا بلدنا عنوة أبداً. فأثاه سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل»، وقول رسول الله ﷺ هذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام قد أحاط بخصائص وصفات كل زعيم من زعماء العدو، وبذلك يعطينا درساً عظيماً في الدبلوماسية الدولية. فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم اتفقا على مبادئ الصلح.

ولما رأى الصحابة أن الأمر قد التأم بين المتفاوضين كرهوا هذا الصلح، لأنهم رأوا فيه ذلاً ومهانة، إذ كيف يرجعون إلى المدينة دون أن يؤدوا ما خرجوا إليه من تعظيم البيت، إذ لم يكن الخروج في نظرهم لغاية سياسية، ولكن لأمر ديني محض. ووثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدين في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، أطلع أمر رسول الله، فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى عمر رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألسنت برسول الله؟ قال: «بلى». قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى». قال: أليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطي الدين في ديننا؟ قال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن

(١) سورة الفتح، الآية ١٨.

يُضَيِّعُنِي». فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي، وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً.

(و) نص المعاهدة:

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب «باسمك اللهم» فكتبها.

ثم قال: اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو». فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسم أمك وأبيك. فقال رسول الله ﷺ: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو. اصطلحنا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض. على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم. ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرده عليه. وإن بيننا عيبة مكفوفة^(١)، وإنه لا إسلال ولا إغلal^(٢). وإنه من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه». ثم شهد على هذا الكتاب طائفة من المسلمين وطائفة من المشركين ودخلت خزاعة مع رسول الله ﷺ. ودخل بنو بكر مع قريش.

(ز) وفاء رسول الله بالعقد، ورده أبا جندل:

فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا، وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله ﷺ في نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتليبيه، ثم قال: يا محمد، قد تم الاتفاق على القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فجعل يجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أريد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! فزاد ذلك الناس غيظاً إلى ما بهم من غيظ، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من

(١) أصل العيبة وعاء من جلد يكون فيه المتاع. مكفوفة: مقفلة على ما فيها، يريد: إن في قلوبنا إلا الإخلاص لهذه المعاهدة.

(٢) الإسلال: السرقة الخفية. والإغلal: الخيانة.

المستضعفين فرجاً ومخرجاً! إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم. فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنهم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب! ويدني عمر قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه! ففطن الرجل بأبيه، ونفذت القضية.

(ح) العودة إلى المدينة :

فلما فرغ رسول الله من الصلح أمر أصحابه بالتحلل من إحرامهم بحلق رؤوسهم ونحر هديهم استعداداً للرجوع إلى المدينة، ولكن الصحابه تلكأوا في تنفيذ أمر رسول الله رجاء أن ينزل في ذلك وحي يبطل ما أمضاه رسول الله من المعاهدة، لما ذكرناه من كرههم لها، فأهم ذلك رسول الله فدخل على زوجته مغموماً وذكر لها تلكأ أصحابه في تنفيذ أمره، فأشارت عليه بأن يبدأهم بالتحلل فخرج رسول الله فحلق رأسه ونحر هديه، ولما رأى الناس تحلل رسول الله من إحرامه أيقنوا أن ما أمضاه رسول الله من المعاهدة هو الذي يحبه الله ويرضاه، ولو لم يكن الأمر كذلك لنزل الوحي مسدداً رسول الله ﷺ ولذلك أخذوا يتواثبون يتحللون من إحرامهم بنحر هديهم وحلق شعرهم، ولما انتهوا من ذلك قفلوا راجعين إلى المدينة، وفي الطريق نزل على رسول الله قوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ﴿١﴾. ثم قال تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ ﴿٢﴾. والمراد بالفتح القريب: صلح الحديبية.

(ط) النتائج السياسية لصلح الحديبية :

لقد وصف الله تعالى صلح الحديبية بما حققه من نتائج باهرة لصالح المسلمين بـ «الفتح المبين» فقال تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾، وقد كانت أهم هذه النتائج:

١ - إن قريشاً كانت تعتبر محمداً ﷺ مجرد رجل خارج على القانون، وعلى الأعراف والتقاليد العربية، وإن دولة الإسلام في المدينة المنورة مجرد عصابة من الناس تمكنت من

(١) سورة الفتح، الآيتان ١ و ٢.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢٧.

بلدة واحتمت بها، وتوقيع قريش - والعرب تبع لقريش - معاهدة الحديبية مع الدولة الإسلامية التي يرأسها محمد ﷺ هو اعتراف بهذه الدولة، واعتراف بمحمد ﷺ رئيساً لهذه الدولة.

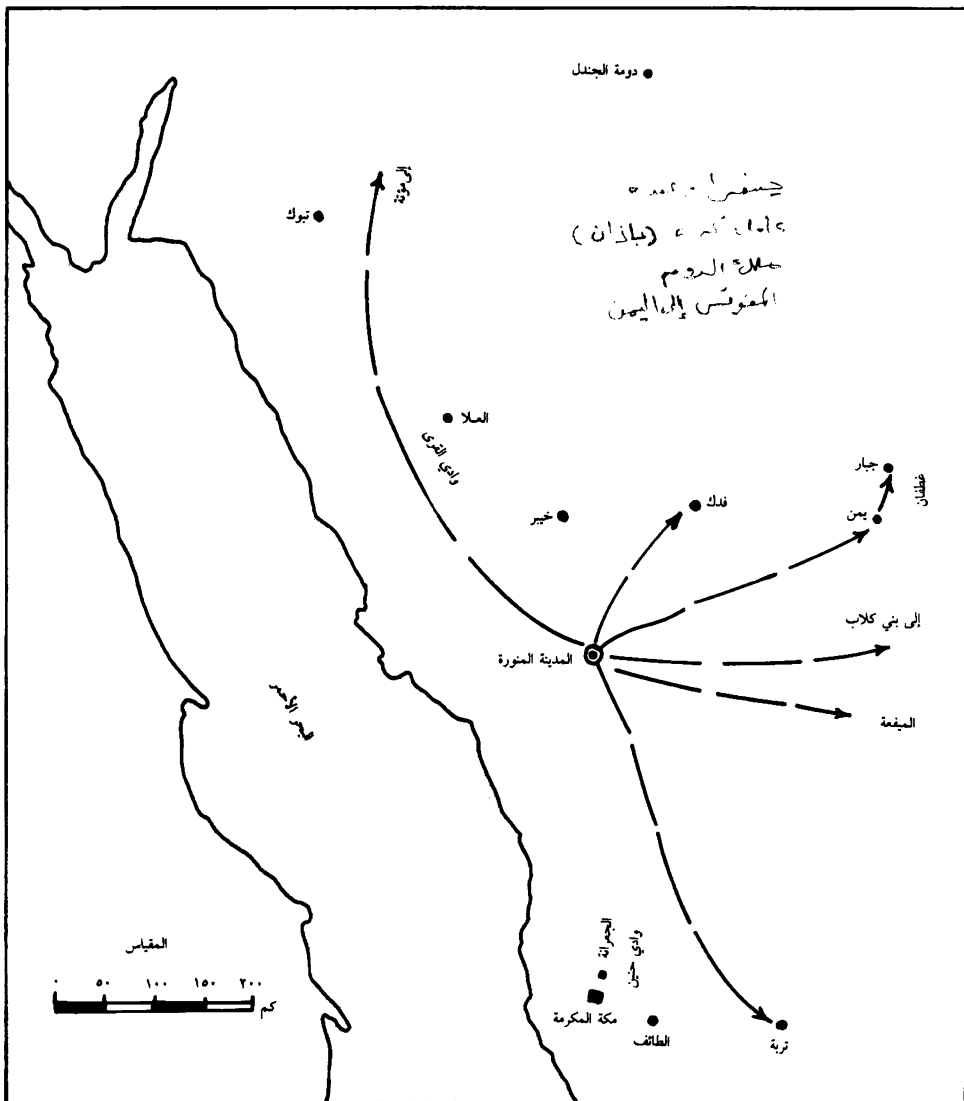
٢ - وقد كانت النتائج التي تمحض عنها بند الالتزام بإيقاف القتال بين قريش والدولة الإسلامية على غاية من الخطورة، إذ أنه أعطى للدولة الإسلامية حرية التحرك السياسي والعسكري دون أية مخاوف. أما التحرك العسكري فقد تمثل في أمرين اثنين أولهما: أن رسول الله ﷺ جعل بيت سراياه هنا وهناك في أنحاء الجزيرة العربية (انظر شكل ٨). وثانيهما: أن الدولة الإسلامية استطاعت - بعد تجميد عداء قريش لها، وأمنها منها - أن تصفي يهود خيبر - كما سنرى - تنفيذاً للمخطط الذي وضعه الرسول عليه الصلاة والسلام في تصفية أعداء الدولة الإسلامية. أما التحرك السياسي فقد تمثل بإرسال الدولة الإسلامية رسلها إلى ملوك الأرض طالبة منهم الاعتراف بالدولة الإسلامية وبنظامها القائم.

٣- إثارة الرأي العام العربي ضد قريش ، لصدها الناس عن بيت الله .

٤ - أما النتائج التي تمحض عنها شرط رد الدولة الإسلامية كل من جاءها مسلماً من قريش فهي: تكوين جماعة من المؤمنين الذين كان يردهم رسول الله تعالى تعلن ولاءها للدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وتهاجم المشركين وقوافلهم وتجاراتهم، والدولة الإسلامية لا تحمل مسؤولية تصرفهم. وقد تكونت هذه الجماعة عندما فرَّ أبو بصير - أحد المؤمنين الجدد - من أسريه بعد أن قتل أحدهم، وأقام على الطريق بين مكة والشام، ثم أخذ يلحق به كل المسلمين الجدد الهاربين من مكة، حتى أصبحت هذه الجماعة - ولا يبعد أن تكون تتلقى إمداداً مادياً ومعنوياً من الدولة الإسلامية في المدينة المنورة - مصدر قلق واضطراب بالنسبة لقريش، مما اضطر قريشاً أن ترسل لرسول الله - رئيس الدولة الإسلامية - وفداً خاصاً تطلب منه الموافقة على إلغاء هذا البند من المعاهدة، وقبول المسلمين القادمين إليه من مكة.

1. الزراعة
 2. الصيد
 3. التجارة
 4. الصناعة
 5. الخدمات
 6. التعليم
 7. الصحة
 8. الثقافة
 9. الرياضة
 10. الترفيه
 11. التكنولوجيا
 12. السياحة
 13. البيئة
 14. السلامة
 15. النقل
 16. المواصلات
 17. الطاقة
 18. المياه
 19. الغذاء
 20. المساكن
 21. البنية التحتية
 22. الخدمات العامة
 23. الخدمات الاجتماعية
 24. الخدمات الصحية
 25. الخدمات التعليمية
 26. الخدمات الثقافية
 27. الخدمات الرياضية
 28. الخدمات الترفيهية
 29. الخدمات التكنولوجية
 30. الخدمات السياحية
 31. الخدمات البيئية
 32. الخدمات الأمنية
 33. الخدمات اللوجستية
 34. الخدمات المالية
 35. الخدمات القانونية
 36. الخدمات الإعلامية
 37. الخدمات الإعلامية
 38. الخدمات الإعلامية
 39. الخدمات الإعلامية
 40. الخدمات الإعلامية

$\frac{d}{dt} \left(\frac{1}{2} m v^2 + U(r) \right) = 0$



(خريطة رقم ٨)

التحركات العسكرية الإسلامية بين فتح خيبر وفتح مكة

١) الخارطة من رسائل الرسول ﷺ التي توضح التحركات العسكرية الإسلامية بين فتح مكة وفتح خيبر، والتي توضح أيضاً التحركات العسكرية الإسلامية في منطقة نجد.

المبحث الثاني : تصفية الكيان السياسي لخير

١ - صعوبة قتال خير وإعداد العدة له :

لا تحسبن أمر خير هيناً، فمدينة خير مدينة ذات حصون منيعة بُنيت بشكل يؤمن الدفاع عن المدينة، وبشكل يستطيع المحاربون الانسحاب من حصن إلى غيره عند سقوطه بيد المهاجمين دون التعرض للخطر .

وكان أهل خير يتوقعون هجوم الدولة الإسلامية عليهم ، بعد أن توضح لديهم مخطط رسول الله في تصفية اليهود في دولة الإسلام ، ولذلك أعدوا لهذا اليوم عدته ، فهم قد جمعوا أموالهم وكنوزهم في «حصن الكتبية» وهو من أقوى حصونهم ، وحشدوا عدداً كبيراً من المقاتلين في «حصن النظاة» وهو حصن ذو ميزة قتالية خاصة . وجندوا عشرة آلاف مقاتل يخرجون كل يوم صفوفاً ينتظرون هجوم الجيش الإسلامي عليهم . وهم بالإضافة إلى هذا كله قد عقدوا معاهدة مع غطفان تقتضي مساندتها إياهم في حربهم للدولة الإسلامية .

ولذلك لم يكن في مقدور رسول الله أن يهاجم خير حتى يجمد جبهة قريش لثلاث تحرك ضده ، وإلى هذا سعى عليه الصلاة والسلام في صلح الحديبية ، وما إن جمّد رسول الله جبهة قريش بمعاهدة الحديبية حتى عاد إلى المدينة المنورة يعد العدة للهجوم على خير ، ومكث عليه الصلاة والسلام ذا الحجة وبعض المحرم يعد العدة ثم سار إليهم .

٢ - المسير إلى خير :

بعد أن أتم رسول الله إعداداته للمسير إلى خير سار إليها في المحرم من السنة السابعة للهجرة ولما أشرف على خير قال لأصحابه : «قفوا» ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : «اللهم ربّ السموات وما أظللن ، وربّ الأرضين وما أقللن ، وربّ الشياطين وما أضللن ، وربّ الرياح وما أذرين ، فإنّا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا باسم الله» .

٣ - مكان نزول جيش المسلمين :

ونزل رسول الله ﷺ بجيشه بوادي الرגיע ، بينهم وبين غطفان ، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خير ، إذ كانت غطفان حلفاء خير على المسلمين كما قدّمنا . ولما سمعت

غطفان بمنزل رسول الله من خير جمعوا له، ثم خرجوا ليساندا اليهود ضده، ولكنهم ما إن ساروا مرحلة حتى سمعوا خلفهم في أموالهم وأهلهم حساً، فظنوا أن المسلمين قد هاجمهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهلهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله وبين خير.

٤ - القتال :

اقرب رسول الله من خير ليلاً، وبات تلك الليلة قريباً منها، فلما كان الصباح هاجمها وعمال خير غادين قد خرجوا لأعمالهم بمكاتلهم ومساحيهم، فلما رأوا رسول الله وجيشه قالوا: محمد والخميس فادبروا هرباً، فقال رسول الله: «الله أكبر، خربت خير، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وجعل رسول الله يستولي على أموال خير مالا مالا، ويفتح حصونها حصناً حصناً، منها ما فتحه بنفسه، ومنها ما أرسل إليه سرية من جيشه ففتحته. فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم، وعنده قتل محمود بن مسلمة، ألقيت عليه منه رchy فقتلته، ثم القموص حصن بني أبي الحقيق، وأصاب رسول الله ﷺ منهم. وبعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق إلى بعض حصونهم ليفتحه، فذهب، واستعصى عليه فتح الحصن فرجع، فبعث في اليوم الثاني إلى ذلك الحصن عمر بن الخطاب. فلم يستطع فتحه ورجع أيضاً، فقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح على يديه، ليس بفزار» فدعا رسول الله علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وهو أرمذ. فقتل عليه الصلاة والسلام في عينه فشفاه الله ثم قال: «خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك»، فأخذها ومضى بها حتى انتهى إلى الحصن ففتحه الله تعالى على يديه. وهكذا سقطت جميع حصون خير في يد رسول الله بما فيها «الشق، والنظاة، والكتيبة، وناعم، والقموص» وغيرها، ولم يبق إلا حصنان منيعان هما «الوطيح، والسلالم» فحاصرهما رسول الله ﷺ وشدد عليهما الحصار بضعة عشرة ليلة.

٥ - الصلح :

ولما أيقنوا بالهلكة وسطوا «محيصة بن مسعود» أخو بني حارثة ليسعى بالصلح بينهم وبين رسول الله ﷺ، وعرضوا على رسول الله أن يحقن دماءهم ويجليهم عن خير، فقبل رسول الله، ولكنهم ما إن نزلوا من حصونهم وأمنوا حتى سألوا رسول الله أن يعاملهم في الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بالزراعة منكم، وأعمر للأرض، فصالحهم

زواج الرسول بصفية:

٦- التأمّر على حياة الرسول بعد الصلح :

المبحث الثالث : تصفية بقية الكيانات السياسية لليهود

١- فذلك:

۲۲۵

رسول الله أن يصالحوه على ما صالحه عليه أهل خيبر من غير قتال، فقبل رسول الله ﷺ ذلك، فكان ما يُحصَل من أموال فذك خالصاً للدولة الإسلامية تصرفه في مصارفه، لأنّ المجاهدين لم يجلبوا عليه بخيل ولا ركاب ولم يحملوا في وجه أهلها سيفاً.

٢- وادي القرى :

أما أهل وادي القرى فإنهم لم يأتوا رسول الله طائعين معلنين الولاء للدولة الإسلامية والانضواء تحت لوائها كما فعل أهل فذك، ولذلك كان على رسول الله ﷺ أن يخضعهم بالقوة، فما إن فرغ ﷺ من خيبر حتى انصرف إلى وادي القرى . فحاصر أهله ليالي، ودعاهم إلى الإسلام فامتنعوا، فقاتلهم وفتحها عنوة، وقسم بين أصحابه ما غنمه منها من أثاث ومتاع، وترك الأرض والنخل في أيدي أصحابها - اليهود - وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر .

٣- تيماء :

ولما سمع أهل تيماء من اليهود ما حلّ بأهل وادي القرى، جاؤوا فصالحوا رسول الله على الجزية، فأقاموا ببلادهم، وأرضهم في أيديهم .
إلقاء النوم على المسلمين ودلالته السياسية :

لما أتم رسول الله تصفية جميع الكتل السياسية لليهود متخذاً لذلك خيبر قاعدة له، انصرف منها عائداً إلى المدينة المنورة، وسار حتى أجده وأصحابه المسير، وكانوا قد بلغوا آخر الليل، فأحب رسول الله أن يريح جنوده ويعطهم فرصة للنوم، وحتى لا يفاجأوا وهم نيام أحب أن يوكل أمر حراستهم وإيقاظهم لصلاة الصبح إلى رجل منهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام؟ أي يوقظنا لصلاة الفجر - قال بلال: أنا يا رسول الله أحفظه عليك . فتزل رسول الله ﷺ ونزل الناس فناموا، وقام بلال يصلي، فصلى ما شاء الله عز وجل أن يصلي، ثم استند إلى بعيه واستقبل الفجر يرمقه، فغلبته عينه فنام، فلم يوقظهم إلا مس الشمس . وكان رسول الله ﷺ أول من هب من نومه فقال: «ماذا صنعت بنا يا بلال: قال: يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك . قال: «صدقت» ثم اقتاد رسول الله بعيه غير كثير، ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس، ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ بالناس، فلما سلم أقبل على الناس فقال: «إذا نسيتم الصلاة فصلوها

إذا ذكرتُموها، فإنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿أقم الصلاة لذكري﴾^(١).

ويبدو لي - والله أعلم - أنَّ في إلقاء النوم على رسول الله وعلى المسلمين في هذه المرحلة بالذات، وبعد التصفية النهائية للكيانات السياسية لليهود يحمل معنى خاصاً، وكأنَّ الله تعالى يقول للمسلمين الآن تستطيعون النوم بطمأنينة وأمان لأنَّ المصدر الخطير للخوف على مستقبلكم قد زال.

بقي أن يقال: أولاً يمكن أن يتم ذلك دون فوات للصلاة؟ أقول: إنَّ النوم حادثة طبيعية لا تلفت النظر، ولذلك كان لا بد من أن يرافقه حادثة أخرى تنبه الناس إليه، فكانت هذه الحادثة هي فوات الصلاة.

(١) سورة طه: الآية ١٤.

تصفية الكيان السياسي للمشركون

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : التمهيد لتصفية الكيان السياسي للمشركون

البند الأول : العمل على زيادة القوة البشرية للمسلمين

١ - استقدام مهاجري الحبشة

٢ - التوسع في النشاط الدبلوماسي لكسب مؤيدين للدولة الإسلامية

البند الثاني : رفع الكفاءة التقنية في صناعة الأسلحة

البند الثالث : القيام بالعديد من الأعمال العسكرية

١ - سرية إلى تربة

٢ - سرية إلى بني كلب بنجد

٣ - سرية إلى بني مرة بفدك

٤ - سرية إلى ميفعة

٥ - سرية إلى يَمَن وجبار

٦ - عمرة القضاء

٧ - غزوة مؤتة

المبحث الثاني : تصفية الكيان السياسي للمشركون

ال الجولة الأولى : في مكة

ال الجولة الثانية : في حنين

ال الجولة الثالثة : في الطائف

ال الجولة الرابعة : في الجعرانة

العودة إلى مكة

المبحث الأول : التمهيد لتصفية الكيان السياسي للمشركون

بعد تصفية الكيانات السياسية لليهود كلهم في الجزيرة العربية ، لم يبق أمام رسول الله

فيها إلا القضاء على الكيان السياسي للعرب المشركين .

وكان عليه أن يعمل لذلك بكثير من الدقة والذكاء، لأنّ نتيجة مقابله لهذا العدو ستحدد مصير الدولة الإسلامية، وإنّ المتأمل للمرحلة الراهنة في السيرة النبوية يجد أنّ رسول الله ﷺ عمل على تقوية المسلمين بزيادة قوتهم البشرية، ورفع كفاءتهم التقنية في صناعة الأسلحة، كما عمل على إضعاف عدوه بمهادنة أو ضرب القبائل المنتشرة هنا وهناك، والتي يحتمل أنّ تمده بمادة القتال، كل ذلك تمهيداً لتصفية الكيان السياسي للمشركين كما سنرى تفصيل ذلك في البنود التالية :

البند الأول : العمل على زيادة قوة المسلمين البشرية :

ولتحقيق ذلك فقد عمد رسول الله ﷺ إلى ما يلي :

١ - استقدام المسلمين المهاجرين إلى الحبشة :

لقد تركنا المسلمين المهاجرين من مكة إلى الحبشة بإمارة جعفر بن أبي طالب ينعمون فيها بالحرية الدينية، ويتحركون فيها في مجال الدعوة بلطف وحذر، وقلوبهم تتحرق شوقاً لرسول الله، وللعمل قريباً منه، وقد بلغهم النجاح الكبير الذي حققته الدولة الإسلامية في المجال السياسي والعسكري والاجتماعي، إذ لا بد من أن يكون الرسول قد أعلمهم بذلك وطلب منهم العودة إلى بلادهم، فغادروا ليشاركوا في بناء الدولة الإسلامية، لأنّ كل مسلم له دوره في هذه الدولة الناشئة، وهي بحاجة لكل واحد من هؤلاء المخلصين، وخاصة بعد أن تسرب المنافقون إليها بتخطيط خبيث من اليهود. وكان وصول هؤلاء المهاجرين في حين اشتغال المسلمين في حصار بعض حصون خيبر.

وما إن وطئت أقدامهم المدينة المنورة حتى سألوا عن رسول الله، فأخبروا أنّه بخير، وأنّه الآن يحاصر حصون خيبر، فالتحقوا به هناك ليكونوا له يداً على أعداء الله، ولكن ما إن وصلوا حتى كان رسول الله قد انتهى من فتح خيبر، ففرح بهم رسول الله فرحاً شديداً، وقبّل أميرهم جعفر بن أبي طالب وقال كلمته المشهورة، ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر. وهكذا انضمت كفاءات جديدة للدولة الإسلامية لتزيدها قوة ورسوخاً، وتعينها في مضيتها لتحقيق أهدافها.

٢ - التوسع في النشاط الدبلوماسي لكسب مؤيدين للدولة الإسلامية :

ما إن استقرت الأوضاع الداخلية في الدولة الإسلامية بالقضاء على اليهود، وما إن

اعترفت بالدولة الإسلامية جميع الكتل السياسية التي يمكنها أن تلعب بميزان القوى في المنطقة العربية من يهود وعرب حتى جعل رسول الله يرسل رسله إلى رؤساء الدول في العالم، وحملهم رسائل إليهم تدعوهم إلى الإيمان بالمبادئ التي نزلت عليه من السماء وإلى الاعتراف وتأييد الدولة الإسلامية التي قامت لنصرة هذه المبادئ وتطبيقها. فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الاسكندرية، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعبد ابني الجندى الأزديين ملكي عُمان، وبعث سليط بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي إلى ثمامة بن أثال، وهودة بن علي الحنفين، ملكي اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين، وبعث شجاع بن وهب الأزدي إلى الحارث بن شمر الغساني ملك تخوم الشام.

البند الثاني : رفع الكفاءة التقنية في صناعة الأسلحة :

كان على رسول الله ﷺ أن يفكر بامتلاك الأسلحة الفعالة كما فكر بالإمكانات البشرية، خاصة وأن ما لاقاه في قتال خيبر ذات الحصون المنيعه، فتح عينيه على وجوب تطوير الأسلحة، إذ ما يفعل السيف أمام الحصون. وكما أن خيبر ذات حصون، فإن الطائف ذات حصون أيضاً، ولا بد من أن يسير لفتح الطائف في يوم من الأيام، كل هذا جعله يرسل عروة بن مسعود الثقفي وغيلان بن سلمة إلى جرش في الأردن لتعلم صناعة العزادات والدبابات والمنجنيقات، وهي أضخم الآلات الحربية آنذاك، ليتم تصنيعها محلياً. وإن التاريخ ليحدثنا بأنهما ذهبا وتعلما هذه الصنعة ثم رجعا إلى رسول الله ﷺ وصنعاها له، واستخدمها عليه الصلاة والسلام في حصاره للطائف.

البند الثالث : القيام بالعديد من الأعمال العسكرية :

كان على رسول الله ﷺ أن يقوم بالعديد من الأعمال العسكرية قبل التوجه لفتح مكة وتصفية الكيان السياسي للمشركين بقصد ضرب الروافد التي يمكن أن ترفد قريشاً بالقوة إذا ما نشبت الحرب بين الدولة الإسلامية وبين قريش. إن هذه الروافد - أعني القبائل - وإن كانت كل واحدة منها لا تشكل قوة مرهبة بذاتها، ولكنها إذا صبت في مسيل واحد، وضممتها قيادة واحدة يمكنها أن تكون قوة لها فعاليتها.

١ - سرية إلى تربة :

فوجه عليه الصلاة والسلام عمر بن الخطاب مع جماعة من المجاهدين في شهر شعبان من العام السابع للهجرة إلى تربة وما إن وصلها حتى فرّ القوم من وجهه، فعاد دون أن يلقي كيداً.

٢ - سرية إلى بني كلب بنجد :

ثم جهز سرية في شعبان أيضاً إلى بني كلب بنجد، يقودها أبو بكر الصديق، فسار أبو بكر بالمجاهدين حتى وصل بني كلب، ففاجأهم بالقتال، فقتل منهم ناساً، وسبى آخرين وعاد إلى المدينة المنورة.

٣ - سرية إلى بني مُرة بفدك :

وفي شعبان أيضاً جهز رسول الله ﷺ سرية بقيادة بشير بن سعد، وأمره أن يسير بها إلى بني مرة بفدك فاشتبك معهم في قتال، وانتصر عليهم، واستاق أنعامهم ولكنه جرح في المعركة، فلجأ إلى اليهود بفدك فبقي عندهم أياماً إلى أن استراح ثم عاد إلى المدينة المنورة.

٤ - سرية إلى الميِّفة :

ثم جهز سرية في رمضان لغالب بن عبد الله الليثي إلى أهل الميِّفة بنجد، فأغار عليهم وقتل بعضاً منهم واستاق نعمهم إلى المدينة المنورة، وفي هذه السرية لقي أسامة بن زيد رجلاً من العدو، فرفع في وجهه السيف ليقتله، فقال الرجل: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فاعتبر أسامة قوله هذا خدعة يريد أن ينجو بها من القتل، ولم يعتبرها عنواناً على إيمانه فقتله، فأخبر الله بذلك رسوله، فلما عاد أسامة ولقي رسول الله ﷺ قال له رسول الله: «يا أسامة من لك بلا إله إلا الله؟» فقال: يا رسول الله إنما قالها تعوذاً، فقال رسول الله: «هلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب». ونزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١). وقيل: إن هذه الآية نزلت في سرية أخرى سنة ثمان وكان أسامة أميرها.

٥ - سرية إلى يَمَن وجُبَار :

وفي شوال جهز رسول الله سرية لبشير بن سعد الأنصاري قوامها ثلاثمائة رجل،

(١) سورة النساء، الآية ٩٤.

وأمره بالسير إلى يَمَن وجبار من أرض غطفان، فَإِنَّ جموعاً تجمع هناك ضد الدولة الإسلامية، فسار إليهم بشير، فهربوا، فاستاق بشير أنعامهم وعاد إلى المدينة المنورة.

٦ - عمرة القضاء :

ثم خرج الرسول في ذي القعدة في الشهر الذي صَدَّه فيه المشركون معتمراً عمرة القضاء، مكان عمرته التي صدَّوه عنها، وخرج معه المسلمون ممن كان صُدَّ معه في عمرته تلك، وهي سنة سبع. فلمَّا سمع به أهل مكة خرجوا، وتحدثت قريش بينها: إِنَّ محمداً وأصحابه في عسرة وجهد وشدة. واصطفوا له عند دار الندوة، لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطجع بردائه^(١) وأخرج عضده اليمنى ثم قال: «رحم الله امرءاً أراه اليوم من نفسه قوة» ثم استلم الركن، وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه، حتى إذا واره البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هروك كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرهما.

وشعرت قريش بخطورة مكث رسول الله في مكة، إذ أَنَّ محمداً ما إنَّ حل مكة حتى بدأ نشاطه واتصالاته، بل وأخذ ينشئ صلوات ودَّ بينه وبين بعض بيوتات مكة، حتى إنَّه خطب وعقد نكاحه على ميمونة بنت الحارث، وإنَّ حديث الناس عنه وعن مبادئه أخذ يجد طريقه في أندية القوم ومجتمعاتهم، وشعرت بأنَّ قلوب الكثيرين أصبحت تميل إليه، وهي تود إخراجَه من مكة في الحال لولا أنَّها أصبحت تخشى بأسه وسلطانَه، ولم يعد أمامها خيار، وليس لها منفذ إلا مطالبة بالتمسك بمنطوق اتفاق الحديبية الذي يقضي بعدم بقائه في مكة أكثر من ثلاثة أيام، وأوكلت قريش إلى حويطب بن عبد العزى مطالبة رسول الله وملاحقته لتنفيذ هذا البند من الاتفاق. وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث أتاه حويطب بن عبد العزى وقال له: يا محمد إنَّه قد انقضى أجلك^(٢) فاخرج عنا. فقال النبي ﷺ: «وما عليكم لو تركتموني فأعرستُ بين أظهركم وصنعتُ لكم طعاماً فحضرتموه!» قالوا: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا.

قد يقال: ما دام رسول الله قد حصل على ما يريد من الهدنة في العام الفائت، فلماذا عاد في هذا العام إلى العمرة من جديد؟ والجواب على ذلك من وجهين:

(١) اضطجع: ادخل تحت عضده اليمنى وجعل طرفه على منكبه الأيسر.
(٢) أي الأجل الذي اتفق عليه في صلح الحديبية وهو ثلاثة أيام.

وجه ديني: وهو أن رسول الله شرع في عمرة ولم يتمها، فوجب قضاؤها عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾^(١).

وجه سياسي: وهو:

١ - أن محمداً لو لم يقم بعمرة القضاء لأذاعت قريش في العرب، أن محمداً لم يرد بقدومه يوم قدم إلى الحديبية تعظيم الكعبة، وإنما قدم للتحرش بقريش، ولإثارة الفتنة في البلد الحرام، وفي ذلك ما فيه من النتائج التي ليست في صالح الدولة الإسلامية.

٢ - وقيام الرسول بعمرة القضاء إظهار لقوة جنود الدولة الإسلامية، وقوة بأسهم، ولذلك فإن رسول الله أسبهم اللباس الخاص الذي يظهر مواطن القوة في أجسادهم، وأجرى لهم العرض العسكري الرائع في الطواف والسعي، موصياً جنوده بإظهار كل ما لديهم من قوة وبأس، قائلاً: «رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة».

٣ - وإجراء العرض العسكري في بلاد العدو يحمل الكثير من المعاني السياسية، ومن أبرز تلك المعاني التفوق الساحق للدولة الإسلامية.

٤ - وإن محمداً يخطط لفتح مكة وتصفية وضع قريش فيها، وعمرة القضاء تعتبر استطلاعاً جديداً لأرض المعركة المقبلة، إذ قد يكون اعترى مواقع مكة بعض التغيير، وكسباً لقلوب بقيت معزولة عنه هناك في مكة.

٧ - غزوة مؤتة^(٢):

(أ) سببها:

أرسل رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي إلى أمير بصرى من قبل الروم شرحبيل بن عمرو الغساني ليلبغ رسالة الإسلام ويدعوه إليها، فقبض عليه شرحبيل وأوثق رباطه وضرب عنقه، فكان هذا العمل إهانة كبيرة للدولة الإسلامية لا يجوز السكوت عليها، ولذلك جهز رسول الله جيشاً ليؤدب ذلك الأمير العربي شرحبيل الذي باع نفسه للرومان.

(ب) الجيش الإسلامي:

وقدر رسول الله أن الرومان - سادة شرحبيل - قد يتحركون لحماية عميلهم شرحبيل،

(١) سورة محمد، الآية ٣٣.

(٢) مؤتة: قرية من أرض اللقاء في بلاد الشام، وهي الكرك اليوم.

ولذلك فإنّ رسول الله وضع في هذا الجيش كلّ إمكانيات الدولة الإسلامية، فبلغ قوامه ثلاثة آلاف مجاهد وهو أكبر جيش بعثه حتى الآن، وقدر رسول الله أنّ الخسائر ستكون كبيرة في هذا الجيش، وأنّ الجيوش تؤتى من قبل قوادها، فعين له ثلاثة قواد يتولون القيادة على التوالي، كلّما قتل قائد استلم القيادة بعده قائد آخر، هم: زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة.

وفي عالم السياسة رأس مال الدول سمعتها، وقد تحقق بسمعتها وهيبتها ما لا تحقّقه بجيوشها، ولذلك لم يتأخر رسول الله في إرسال هذا الجيش رغم تقديره لعدم تكافؤ القوى ولحجم الخسائر التي سيمنى بها، إنفاذاً لسمعة الدولة الإسلامية.

وتجهز الناس ثم تهيؤوا للخروج، فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم، فلما ودّع عبد الله بن رواحة مع من ودّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى، فقالوا له ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أمّا والله ما بي حب الدنيا، ولا صباة بكم، ولكنني سمعت رسول الله يقرأ آية من كتاب الله عز وجل، يذكر فيها النار: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾^(١). فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود! فقال المسلمون: صحبتكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين!. فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربةً ذات فرغ تقذف الزبداً^(٢)
أو طعنةً بيديّ حرّانٍ مُجهزة بحربةٍ تُنفذُ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدّتي أرشدهُ الله من غارٍ وقد رشداً

وسار الجيش حتى نزل بمعان من أرض الشام، وبلغه أن هرقل الروم قد نزل مآب من أرض اللقاء في ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجُذام والقيّن وبهراء وبلّيّ مئة ألف منهم، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإنّما أن يمدنا بالرجال وإنّما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله

(١) سورة مريم، الآية ٧١.

(٢) الفرغ: السعة. والزبد: رغوة الدم.

به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين : إما ظهور وإما شهادة . فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة . وهذا الكلام من ابن رواحة رضي الله عنه مع ما فيه من الإيمان والصدق والتشوق إلى الجنة إلا أنه يعتبر مجازفة بجند المسلمين ، وما كان رسول الله ليوافق عليها لو علم بها ، بدليل استحسانه فيما بعد انسحاب خالد بن الوليد بجنده من هذه المعركة القاصمة ، ولأبدلهم به رأياً آخر يكون به إنقاذ سمعة الدولة الإسلامية بأقل الخسائر .

(ج) الصدام المسلح :

ولما عزم الناس على ملاقاته الجموع الهادرة من أعداء الدولة الإسلامية ساروا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب ، بقرية من قرى البلقاء يقال لها مَشَارَف ، ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ، فالتقى الناس عندها ، فتعباً لهم المسلمون فجعلوا على ميمتهم رجلاً من بني عُذرة يقال له قبطة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له عباية بن مالك . ثم التقى الناس واقتتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى كثرت فيه الجراح ، واشتد نزيف الدم منه حتى لقي الله شهيداً ثم أخذها جعفر فقاتل بها على فرسه الشقراء ، ولكنه لم يلبث أن نزل عنها فعقرها ، ثم قاتل القوم راجلاً حتى قتل وهو يقول :

يا جذا الجنة واقترباها طيبةً وبارداً شربها
والروم رومٌ قد دنا عذابها كافرةً بعيدةً أنسابها
علي إذ لاقيتها ضرابها

وحكى ابن هشام أن جعفرأ أخذ اللواء يمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل ، رضي الله عنه ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء . ولما قتل جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، ثم تقدّم بها وهو على فرسه وهو يخاطب نفسه بهذه الأبيات :

أقسمت يا نفس لتنزلنّه لتنزلنّ أو لتكـرهنّه
إن أجلب الناس وشدوا والرّنة^(١) مالي أراك تكـرهنّ الجنّة
قد طال ما قد كنت مطمئنّة هل أنت إلا نطفة في شنة^(٢)

(١) أجلبوا: صاحوا واجتمعوا. الرنة: صوت فيه ترجيع شبيه بالبكاء.

(٢) النطفة: الماء القليل الصافي. الشنة: السقاء البالي.

وقال أيضاً:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلي فعلهما هديت

ثم خاض غمار الحرب فأحسن فيها وأجاد، ويذكر كتاب السيرة أن ابن رواحة كان منزوياً ناحية يطلب شيئاً من الراحة فاتاه ابن عم له بشيء من لحم فقال: شد صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت! فأخذه من يده ورفع إلى فمه، وقبل أن يضع اللقمة في فمه رن في أذنه صوت الناس، فقذفها من يده وقال: «وأنت في الدين!» ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل. ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم، أخو بني العجلان، فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم، وقاتل بهم بقية النهار، ولما أرخى الليل سدوله بدل مواقع جنده، وأرسل من يثير الغبار من بعيد ليوهم العدو أنه قد جاء المدد ولما أصبح جعل يقاتل وينسحب، فظن العدو الظنون، فانحسر جيش العدو، وكانت الغلبة للمسلمين.

(د) إخبار الرسول باستشهاد القادة:

وأبلغ الوحي رسول الله بما كان في جيش مؤتة من الابتلاء، وما كان من استشهاد قادة هذا الجيش، وحدث بذلك أصحابه، فقال ﷺ: «أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً» ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون. ثم قال: «ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً». ثم قال: «لقد رُفِعوا إليَّ في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سرير صاحبيه، فقلت: عم هذا؟ ف قيل لي: مضيا وتردد عبد الله بعض التردد، ثم مضى».

(هـ) العودة إلى المدينة المنورة:

وجمع خالد بن الوليد رضي الله عنه جنده وعاد بهم إلى المدينة المنورة، ولما دنوا من المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون. ولقيهم الصبيان يسرعون، ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة، فقال: «خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر». فأتى بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه. وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون:

يا فرار! فررت من سبيل الله! . فيقول رسول الله ﷺ: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكُرار إن شاء الله تعالى» .

المبحث الثاني : تصفية الكيان السياسي للمشرकिन

لم تكن تصفية هذا الكيان لتحسم في جولة واحدة نظراً لكثرة العدو وشراسته، مما استدعى خوض جولات عديدة نفصلها فيما يلي :

الجولة الأولى في مكة

١ - مقدمة :

أقام رسول الله بعد موقعة مؤتة جمادى الآخرة ورجباً من سنة ثمان للهجرة ثم إن بني بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت على خزاعة، وكان الذي هاج ما بين بكر وخزاعة أن رجلاً من بني خزاعة، واسمه مالك بن عباد - وحلف الحضرمي يومئذ إلى الأسود بن رزن - خرج تاجراً، فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بني الأسود بن رزن الديلي : سلمى، وكلثوم، وذؤيت فقتلوه عند حدود الحرم . فبينما بنو بكر وخزاعة على ذلك حجز بينهم الإسلام، وتشاغل الناس به . فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش، كان فيما شرطوا لرسول الله ﷺ وشرط لهم : أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه . فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده . هذه معلومات نرى أنه لا بد منها قبل الحديث عن فتح مكة .

٢ - أسباب فتح مكة :

الأسباب الحقيقية لفتح مكة هي تنفيذ المخطط الذي وضعه رسول الله ﷺ لتصفية أعداء الدولة الإسلامية، وبعد أن تمت له تصفية الكيان السياسي لليهود لكافة طوائفهم وفئاتهم جاء دور تصفية الكيان السياسي والديني للعرب الوثنيين في الجزيرة العربية، ولما كانت قريش هي حجر الزاوية في هذا الكيان فإن تصفية كيان قريش سيتبعه بالضرورة استسلام العرب الذين يدينون بدينها، لأن الأصنام إن عجزت عن حماية قريش، وقريش خادماتها

وحاميتها، فهي عن حماية غيرها أعجز، وهذا ما كان بالفعل، فإنه بعد تصفية كيان قريش لم تبق إلا فلول سهل على الدولة الإسلامية القضاء على مقاومتها فيما بعد. أما السبب المباشر لفتح مكة فإنه لما كانت الهدنة اغتتمها بنو الدليل من بني بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأراً بأولئك النفر الذين أصابوا منهم - بني الأسود بن رزن - عند حدود الحرم.

فخرج نوفل بن معاوية الديلي - وهو من بني الدليل - يومئذ قائدهم، ولكن لم تكن كل بني الدليل تابعة له، وهاجم خزاعة ليلاً وهم على ماء لهم يسمى «الوتير» فقتل منهم رجلاً، ونشب القتال بينهم، وأمدت قريش حلفاءها بني بكر بالسلاح وبالرجال مما اضطر خزاعة إلى الانسحاب إلى الحرم لتحتمي به، ولكن نوفل بن معاوية - قائد بني بكر - أمر جماعته بدخول الحرم وقتال خزاعة فيه، فأطاعه فريق من قومه، مما اضطر خزاعة إلى اللجوء إلى دار «بديل بن ورقاء الخزاعي» ودار حليف لهم آخر يسمى «رافع» في مكة ليحتموا بها، بعد أن أصاب منهم بنو بكر ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله، وهذا ما دعا عمرو بن سالم الخزاعي إلى الخروج إلى حليفه رسول الله والاستنجاد به، فشد رحاله مسرعاً نحو المدينة المنورة، فلما وصلها توجه نحو المسجد ورسول الله فيه وحوله أصحابه فوقف بين يديه وأخذ ينشد ويقول:

يا ربّ إني ناشدُ محمداً	حلفَ أئبنا وأبيهِ الأئلد ^(١)
قد كُتِمَ والدًا وكُنّا ولداً	ثمّة أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرأ أعُتد ^(٢)	وَادُعُ عبادَ الله يأتوا مددا
فيهم رسولُ الله قد تَجَرَّدَا	إن سيمَ خسفاً وجهُهُ تَرَبَّدَا
في قَيْلَقٍ كالبحر يجري مزبدا	إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا	وجعلوا لي في كداء رُصدا ^(٣)
وزعموا أن لست أدعو أحدا	وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
هم يئونا بالوتير هجدا	وقتلونا رُغعا وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم!» ثم عرض لرسول الله ﷺ سحابة

(١) ناشد: طالب ومذكر. الأئلد: القديم.

(٢) أعتد: من العتيد، وهو الحاضر.

(٣) كداء: موضع بأعلى مكة. رصدا: جمع راصد، وهو المرتقب.

في السماء فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب، ثم خرج بُدَيْل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبره بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة. وقد قال رسول الله ﷺ للناس: «كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشد العقد ويزيد في المدة»، ورجع بدیل بن ورقاء إلى مكة دون أن يعرف ما عزم عليه رسول الله ﷺ من الأمر.

٣- حرص قريش على السلام:

ومضى بدیل بن ورقاء وأصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعسفان قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ ليشد العقد ويزيد في المدة، بعد أن شعرت بتورطها في إمداد حلفائها من بني بكر لضرب خزاعة حلفاء رسول الله مع علمها بأنها لم تعد تقوى على الوقوف في وجه الدولة الإسلامية، وخاصة بعد أن صفى رسول الله الكيان السياسي لجميع خصومه من اليهود، ودانت له كثير من قبائل العرب بعد صلح الحديبية وهادته قبائل أخرى كثيرة. رأت قريش أنّ من الحكمة أن تسوي أمورها مع الدولة الإسلامية وتحافظ على خيط السلام، فأرسلت أبا سفيان ليقوم بهذه المهمة، فمضى أبو سفيان إلى المدينة المنورة وفيما هو في الطريق لقي بدیل بن ورقاء فقال له: من أين أقبلت يا بدیل؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ. قال: «تسيرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي». قال: أوما جئت محمداً؟ قال: «لا». فلما راح بدیل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن جاء بدیل المدينة لقد علف بها النوى، فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها ففته فوجد فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بدیل محمداً!.

وأسقط بيد أبي سفيان وعلم أنّ الحرب واقعة لا محالة، وأنّ الدائرة فيها ستدور على قريش. فقام مسرعاً نحو المدينة المنورة، ومن البديهي أن يتوجه أول ما يتوجه إلى بيت ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله ﷺ لتكون عوناً له عند رسول الله على تحقيق ما يريد، ولكنه لم يلبث أن خاب فآله لما رآه من جفاء ابنته له وتمسكها بإرضاء رسول الله، ظهر له ذلك عندما قدم بيتها فجلس على فراش زوجها رسول الله، فطوته عنه فقال: يا بنية، ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ. قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر! ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلّمه فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلّمه وطلب منه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: «ما أنا بفاعل!»، ثم أتى عمر بن الخطاب

رسول الله أن تجهزيه؟ قالت: نعم، قال: فأين تريه يريده؟ قالت: لا والله ما أدري. وفي اللحظة المناسبة أعلم رسول الله جنده أنه متوجه نحو مكة، قلعة الشرك والمشركين، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها. وكان لحاطب بن أبي بلتعة في مكة أهل ومال كثير: فأحب أن يحتاط لهما، فكتب كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بمسير رسول الله إليهم، ودفع هذا الكتاب إلى مولاة لبعض بني عبد المطلب اسمها «سارة» كانت مغنية، وجعل لها جعلاً، وطلب منها أن توصل هذا الكتاب إلى قريش، أراد حاطب بذلك أن يصانع قريشاً، حتى إذا ما كان النصر لرسول الله على المشركين فاز كرجل من المسلمين وسيعود إليه ماله، وإن كان النصر لقريش على رسول الله يكون له يد عند المشركين لعلها تنصفه في استرداد ماله، أخذت سارة الكتاب ووضعت بين طيات شعرها ووضفت عليه قرونها ثم خرجت من المدينة.

وعلم رسول الله بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب والزيبر بن العوام رضي الله عنهما فقال: أدركا المرأة، قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما أجمعنا له في أمرهم. فخرجا حتى أدركاها، ففتشا رحلها طلباً للكتاب فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي بن أبي طالب: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، ولتخرج لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك! فلما رأت الجد منه قالت: أعرض. فأعرض، فحلت قرونها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه، فأتى به رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ حاطباً فقال: «يا حاطب ما حملك على هذا؟» فقال: أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكنني كنت امرء أليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليه. فقال عمر بن الخطاب: دعني فلاضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق! فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

فأنزل الله تعالى في حاطب صدر سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَوَدَّعُوا بِاللَّهِ رَيْبَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَالْأَسْتَهْمُ بِالسُّوءِ وَوَدَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ

لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براءؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده^(١) إلى آخر القصة .

٥ - المسير نحو مكة :

ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن الحصين الغفاري وخرج لعشر مضمين من رمضان من سنة ثمان للهجرة، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه، حتى إذا كانوا بالكديد، بين عسفان وأمع، أضر، ثم مضى حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين، فيهم جميع المهاجرين والأنصار لم يتخلف منهم أحد، وفيهم ألف من مزينة وقرابة ألف من سليم . فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش فلم يأتهم خبر عن رسول الله ﷺ، ولا يدرون ما هو فاعل . وهناك كلف عليه الصلاة والسلام عمه العباس بن المطلب أن يبحث له عن رجل من المشركين، من ذوي الحاجات كالحطابين وبائعي الألبان ونحوهم ليحمله إلى قريش خبر وصول رسول الله ﷺ بجيشه الكبير، إثارة للسلامة وتجنباً لإراقة الدماء، لأن رسول الله ما جاء إلا لتصفية الوجود السياسي لقريش، ولكن إذا ما ركب قريش رأسها وحملت السيف مدافعة عن وجودها السياسي فسيضطر رسول الله إلى حربها حرباً لا هوادة فيها ولو أدى الأمر إلى تصفيتها تصفية جسدية بفعل الحرب الضروس التي تنشب بين القوتين الإسلامية والقرشية، وعندها سيكون الجرح عميقاً وأليماً، لأن أهل مكة القرشيين في جملتهم أقارب وأرحام للمهاجرين من المسلمين، وسيضطر الواحد من المسلمين أن يقتل ابنه أو أباه بيده . ولذلك أثر رسول الله طريق السلامة وحل المسألة بالطرق الدبلوماسية .

ولعل رسول الله قد أسر بهذا كله لعمه ومبعوثه «العباس بن عبد المطلب» وطلب منه التصرف على هذا الأساس، وأعطاه رسول الله بغلته البيضاء فأجلسه عليها وطلب منه سرعة التصرف .

(١) سورة الممتحنة، آيات ١ - ٤ .

فكلمه فقال: «أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ، فوالله لو لم أجد إلا الذر^(١) لجاهدتكم به!» ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي عنها، وعندها الحسن بن علي غلام يدب بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله. فقال: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بُنيك هذا فيجير بين الناس^(٢)، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بني ذاك: أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ، وذلك أدب علمه القرآن المسلمين بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾^(٣) وتلك سياسة عليا لا بيت فيها إلا رئيس الدولة. فالتفت أبو سفيان إلى علي بن أبي طالب وقال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحنى. قال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجز بين الناس، ثم الحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله ما أظن، ولكني لا أجد لك غير ذلك. فعمل أبو سفيان بمشورة علي، فأتى المسجد والناس فيه مجتمعون، فوقف عليهم فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، فلم يرد عليه أحد، فركب بعيره وتوجه نحو مكة، فلما قدم قريشاً قالوا: ما وراءك. قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما رد علي شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعتوه فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد! قال: لا، قالوا: ويلك! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت؟ قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

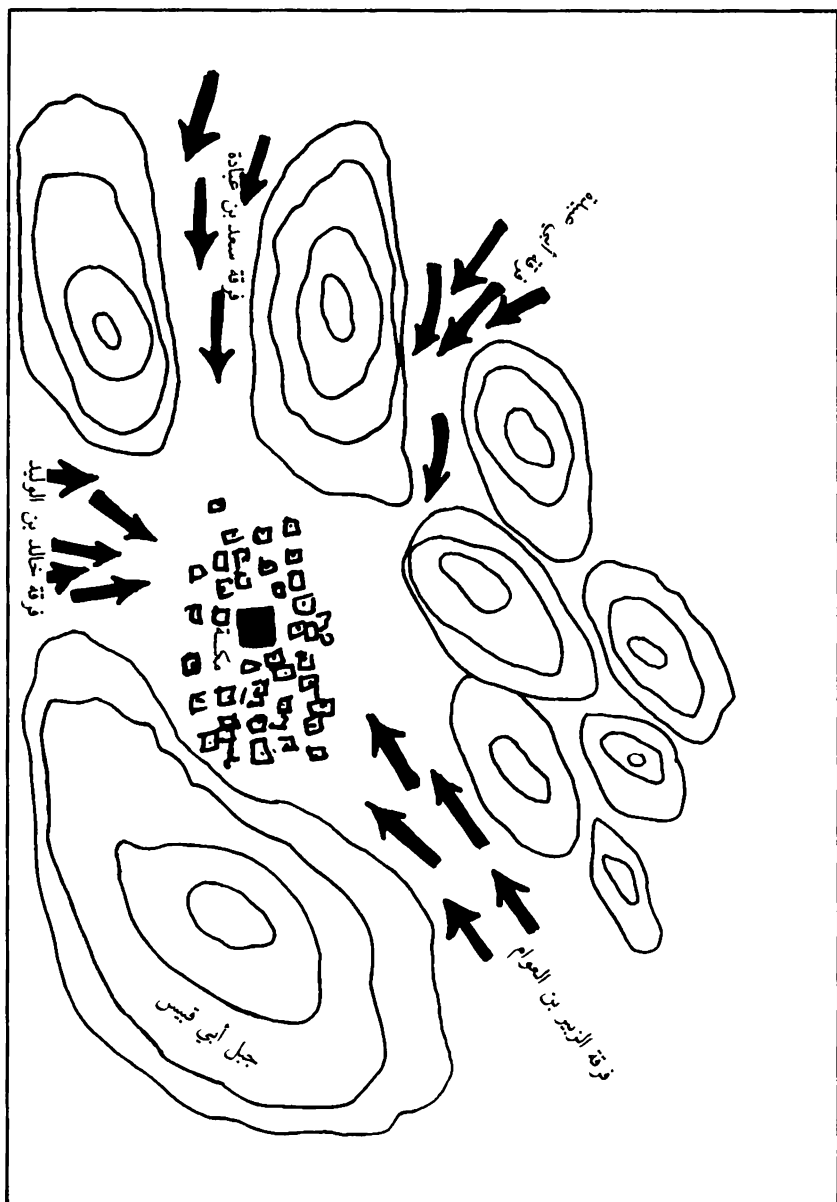
٤ - تجهز رسول الله للقتال:

أمر رسول الله الناس بالتجهز للقتال دون أن يُعلم أحداً وجهته التي يقصد إليها، حتى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل على ابنته عائشة زوج رسول الله وقال لها: هل أمرك

(١) الذر: صغار النمل.

(٢) أن يدخلهم في جواره: ويتقدمهم من مؤاخذه الرسول ﷺ لهم.

(٣) سورة الحجرات، الآية ١.



(خريطة رقم ٩)

دخول الجيش الإسلامي مكة المكرمة

يقول العباس: فجلست على بغلة رسول الله البيضاء، فخرجت عليها حتى جئت الأراك، فقلت: لعلي أجد بعض الخطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوا قبل أن يدخلها عليهم عنوة.

قال: فوالله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً، ويقول بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب^(١). ويقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها! قال: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة - كنية أبي سفيان - فعرف صوتي فقال: أبو الفضل - كنية العباس - قلت: نعم. قال: ما لك فذاك أبي وأمي؟ قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قریش والله! قال: فما الحيلة؟ فذاك أبي وأمي. قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ، فاستأمنه لك. فركب خلفي، ورجع صاحبه، فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته. حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من هذا؟ وقام إلي، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد.

ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة فسبقت بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء. فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلاضرب عنقه. قلت: يا رسول الله، إني قد أجزته! ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت: والله لا ينجيه الليلة دوني رجل! فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف، فقال ﷺ: «مهلاً يا عباس، فلاسلامك يوم أسلمت، كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم». ثم قال رسول الله ﷺ: «أذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به».

فذهبت به إلى رحلي فبات عندي، - ونحن لا نشك في أن العباس حاور أبا سفيان أثناء الليل، وأقنعه بضرورة الحل السلمي وتجنب إراقة الدماء، وأن قریشاً لا طاقة لها بحرب الدولة الإسلامية - يقول العباس: فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه

(١) حمشتها الحرب: أحرقتها وصليت بنارها.

رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك^(١) أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد! قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً! فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قبل أن تضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق فأسلم.

امتنصاص الحقد:

قال العباس: قلت يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً. قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

لقد قلنا: إن رسول الله ﷺ يؤثر العافية في المسائل الداخلية، ويبذل كل جهده لامتنصاص النعمة، وزرع بذور المحبة في قلوب شعبه، وبذلك وحده يضمن ولاء الشعب له، وإخلاصه لدولته. فهذا أبو سفيان بن حرب دخل الإسلام دون أن يخلص الود لرسول الله، وهو بدخوله هذا قد عصم دمه من أن يراق، ولكنه بما يكنه في صدره من حقد على رسول الله يستطيع أن يفعل الكثير، يستطيع أن يفعل على الأقل - وهو الزعيم المطاع في مكة - كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول في المدينة المنورة. وكان على رسول الله - وهو السياسي الحكيم - أن يمتص هذا الحقد من قلب أبي سفيان، ويبرهن له بأن المكانة التي كانت له عند قريش، لن تنتقص شيئاً في الإسلام إن هو أخلص له وبذل في سبيله، وأرسل رسول الله من ينادي: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. . . . إن رسول الله قد اشترى بهذا أبا سفيان، وعداوة أبي سفيان، وامتص الحقد من صدره، وذلك هو تصرف السياسي الحكيم. وكان على رسول الله أن يمتص الحقد من قلوب أهل مكة، ويبرهن لهم أنهم كانوا مخطئين في عداوته، ولذلك فإنهم ما إن اجتمعوا أمامه يحملون قلوبهم بأيديهم من الخوف حتى قال لهم رسول الله: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: - وقلوبهم ترتعش من الخوف، والظنون تذهب بهم أنه لن ينجو منهم أحد - «خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم» قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فقفزت قلوبهم فرحاً وأيقنوا أنهم كانوا مخطئين في عداوتهم لمحمد ودولته.

(١) ألم يأن لك: ألم يحن لك.

لقد اشترى محمد بالعفو قلوب هؤلاء، وقد كان باستطاعته قتل رجالهم أو تعذيبهم أو... ولكن لا بد وأن يكون الرسول ﷺ فكر ألف مرة بهذا، وقلب فيه وجوه النظر وتساءل: كيف يتم له الأمن والاستقرار في أرض شعبها ضده، وكيف تستمر في الوجود دولة وشعبها يحاربها... إنه الفناء الذي لا راد له. فكان من السياسة الحكيمة أن يعطي زعيم مكة، ويعفو عن أهل مكة الذين حملوا السيف في وجهه عشرين سنة كاملة، يعفو ويعطي لا عن محبة، ولكن ليشتري قلوبهم وسيوفهم بهذا العفو وهذا العطاء. ورأى رسول الله ﷺ أن من الحكمة ألا ينصرف قائد حرب قريش (أبو سفيان) إلى قومه حتى يرى قوة المسلمين، وترسخ القناعة في نفسه بأن قريشاً لا طاقة لها بحرب الدولة الإسلامية، وإن عليها أن تكف عن الحرب وتحقق الدماء، إذ ليس من هدف الدولة الإسلامية إراقة الدماء ولكن التمكين لدين الله في الأرض، فإذا تم ذلك بغير إراقة الدم لم يبح العدول عنه إلى غيره.

ولذلك كله أمر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بإعداد عرض عسكري خاص يظهر قوة المسلمين المادية والمعنوية، وأمر العباس أن يوقف أبا سفيان في مكان مشرف عينه له ليمر أمامه العرض ويرى جند الله. ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس، من هذه؟ فيقول العباس: سليم فيقول: ما لي ولسليم. ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فيقول العباس: مزينة. فيقول: ما لي ولمزينة. حتى نفذت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا يسأل العباس عنها، فإذا أخبره بهم قال: ما لي ولبني فلان، حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته «الخضراء»^(١) فيها المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ فقال العباس: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً!! فقال العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذن قلت: النجاء^(٢) إلى قومك!

أبو سفيان يحذر قريشاً من الحرب:

ولما انتهى العرض العسكري وقد أخذ من أبي سفيان كل مأخذ أذن له رسول الله بالانطلاق إلى قومه في مكة حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا

(١) قال ابن هشام: إنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها.

(٢) النجاء: الإسراع.

محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ! فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحِميت الدَّسم الأحمس ^(١) ، قُبِّح من طليعة قوم ^(٢) . قال : ويلكم ، لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ! قالوا : قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ! ففرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

٦ - دخول مكة :

أما رسول الله فإنه قسم جيشه إلى أربع فرق ، بعدد منافذ مكة ، فرقة يقودها أبو عبيدة بن الجراح ، وفرقة يقودها الزبير بن العوام ، وفرقة يقودها سعد بن عباد ، وفرقة يقودها خالد بن الوليد - الذي أسلم والتحق بالرسول - وأمر رسول الله قادة الفرق ألا يقتلوا إلا إذا اضطروا للقتال . وأحاطت الفرق بمكة ثم دخلتها من منافذها دون قتال ، إلا ما كان من بعض المتهورين الذين توجهوا إلى منفذ من منافذ مكة ليمنعوا الجيش الإسلامي من دخولها ، وشاءت إرادة الله أن يكون قائد هذه الفرقة الداخلة من هذا المنفذ هو خالد بن الوليد الذي قاد أحد فرق جيش المشركين التي كانت سبباً في هزيمة المسلمين يوم أحد ، فتصدى خالد لتلك الشرذمة التي اعترضت طريقه فحطمها ثم مضى قدماً حتى التقى ببقية فرق الجيش الإسلامي عند الكعبة المشرفة . وعندها أيقنت قريش بأنه لم يبق لها من رجالها وأبطالها أحد ، فكلهم ما بين مقتول بأسيا ف المسلمين أو مسلم موالٍ للدولة الإسلامية فكان لا مناص لها من إعلان استسلامها . لم يدخل رسول الله مكة مزهواً بالنصر كعادة القادة الفاتحين ، بل دخلها مظهراً غاية التواضع لله ، حتى قال عبد الله بن أبي بكر : إنه ﷺ وقف بذى طوى وهو راكب راحلته ، معتجراً بشقة برد حبرة حمراء ، خافضاً رأسه حتى إن لحيته لتكاد تمس واسطة الرحل تواضعاً لله ، لما رأى ما رأى من إكرام الله تعالى له بالفتح .

٧ - إزالة آثار الشرك :

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة على راحلته قصد الكعبة ، وكانت قريش قد نصبت حولها الأصنام وشدت قوائم هذه الأصنام بالرصاص ، فجعل رسول الله ﷺ يحطم هذه الأصنام ويقول : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ^(٣) حتى لم يبق منها

(١) الحميت : زق السمن . الدسم : الكثير الشحم . الأحمس : الشديد اللحم شبهته بالزرق لَصَحْمِهِ وَسِمَنِهِ .

(٢) الطليعة : الذي يحرس القوم .

(٣) سورة الإسراء ، الآية ١٧ .

صنم، ثم أمر أن يُجمع له الناس. ثم طاف بالبيت سبعة أشواط على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده، وحاول فضالة بن عمير الليثي قتل رسول الله وهو يطوف بالبيت فلما دنا منه قال رسول الله: «أفضالة؟» قال: نعم، فضالة يا رسول الله، قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك رسول الله ثم قال: «استغفر الله»، ثم وضع يده على صدره فسكن قلب فضالة، فكان فضالة يقول: «والله ما رفع يده عن صدري حتى كان ما من خلق الله شيء أحب إلي منه». ثم دعا رسول الله عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها وجال فيها، فوجد حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ورأى صور الملائكة على جدران الكعبة فطمسها، ورأى صورة إبراهيم عليه السلام وفي يده الأزام يستقسم بها، فطمسها، وقال: «قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شأن إبراهيم والأزلام؟» ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾^(١) وهكذا أزال رسول الله كل مظاهر التناقض بين عقيدة الدولة الإسلامية والعقائد الأخرى، لأنه لا سيادة في البلاد لغير عقيدة الدولة.

٨ - العفو العام:

ثم خرج رسول الله ووقف على باب الكعبة، والناس أمامه قد اجتمعوا فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحج. ألا وقيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾^(٢). يا معشر قريش: ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

٩ - تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية:

ورغم أن رسول الله قد أصدر العفو العام عن المشركين، إلا أنه لم يعف عن أشخاص بأعيانهم، وأهدر دمهم، فأمر بقتلهم أينما وجدوا ولو تحت أستار الكعبة، لأنهم تولوا التحريض ضد الدولة الإسلامية وتأليب الناس عليها، وكان من هؤلاء:

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٧.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.

- عبد الله بن سعد: أخو بني عامر بن لؤي: وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله لأنه قد كان أسلم وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي، فارتد مشركاً راجعاً إلى قريش، ولما علم بإهدار الرسول دمه لجأ إلى عثمان بن عفان، وكان أخاه للرضاعة، فغيبه عثمان حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة، فاستأمن له، فقدم إلى رسول الله ﷺ تائباً مسلماً وحسن إسلامه، وولاه عمر بن الخطاب أثناء خلافته بعض الأعمال في الدولة الإسلامية.

- عبد الله بن خطل: رجل من بني تميم بن غالب، إنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً، فبعثه رسول الله ﷺ مصداقاً وبعث معه رجلاً، وكان معه مولى له يخدمه، وكان مسلماً، فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً فيصنع طعاماً، فنام، فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً. فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً. ولم يلبث أن وقع عبد الله بن خطل تحت يد سعيد بن حريث المخزومي وأبي برزة الأسلمي فقتلاه. وكانت له قيتان «فرتني» وصاحبتهما، وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما معه، فقتلت إحداهما وهربت الثانية حتى استؤمن لهما من رسول الله ﷺ، فأمنها، فعادت.

- الحويرث بن نقيذ: وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ ويؤلب على الدولة الإسلامية في مكة، فلم يلبث حتى قتله علي بن أبي طالب.

- مقيس بن صُبابه: وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله لقتله الأنصاري الذي كان قد قتل أخاه خطأ، ورجوعه إلى قريش مشركاً، فلم يلبث مقيس أن وقع تحت يد نُمَيْلَةَ بن عبد الله فقتله.

- سارة: مولاة لبني عبد المطلب، وكانت تؤذي رسول الله ﷺ وتؤلب الناس عليه في مكة، ولما علمت بأن رسول الله ﷺ أهدر دمها اختفت، وبقيت كذلك حتى استؤمن لها، فأمنها رسول الله ﷺ.

- عكرمة بن أبي جهل: ولما علم عكرمة بأن رسول الله ﷺ أهدر دمهُ هرب إلى اليمن، وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له من رسول الله ﷺ فأمنه فخرجت في طلبه إلى اليمن حتى أتت به رسول الله ﷺ، فأسلم.

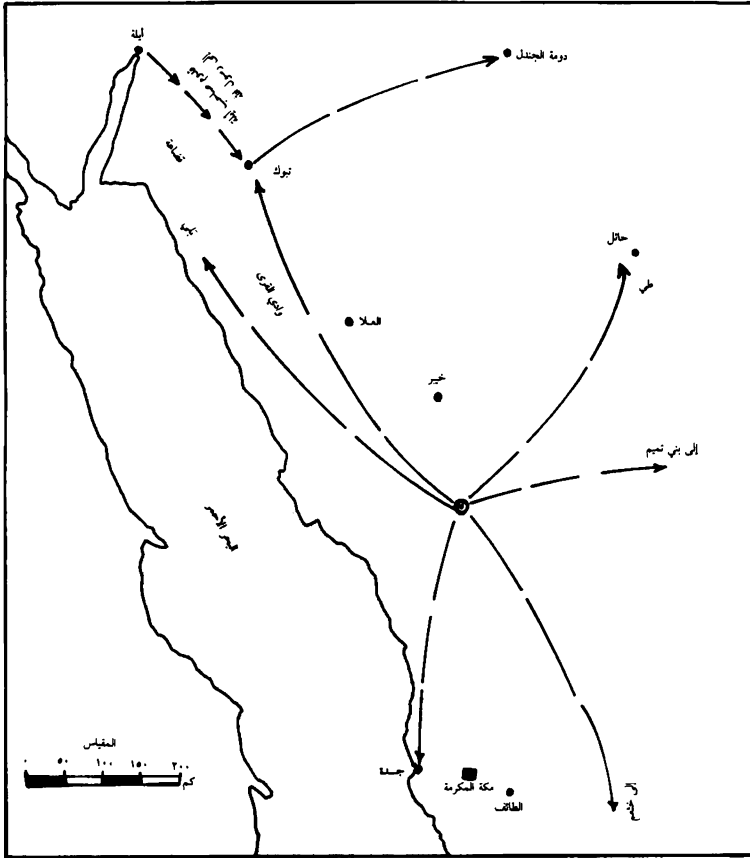
١٠ - بر ووفاء:

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله اجتمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فلم يلتفت رسول الله ﷺ إلى

قول علي وقال: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعي له. فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء».

١١ - إعلان سيادة الدولة الإسلامية على مكة :

وأمر رسول الله ﷺ بلائاً أن يصعد الكعبة ويرفع صوته بالأذان معلناً بهذا الأذان أنّ السيادة بعد الآن هي لله لا يشاركه فيها أحد «الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله» وأن رسول الله هو الذي يبلغ عن الله ما يرضاه الله من الأنظمة لهذه الدولة الحاكمة باسم الله «أشهد أنّ محمداً رسول الله» وأنّ على الناس جميعاً أن يُقبلوا طائعين إلى مساندة هذه الدولة التي جعلت هدفها القضاء على الظلم والظلمات ونشر العدل في الأرض «حي على الفلاح». فهذا الأذان ما هو إلا إعلان سياسي أكد فيه الرسول سيادة الدولة الإسلامية الحاكمة بأمر الله على البلاد المفتوحة .



(خريطة رقم ١٠)

الحركات العسكرية الإسلامية بين فتح مكة إلى ما بعد غزوة تبوك

إنَّ النصر الذي حازه المسلمون في مكة أثار حفيظة القبائل العربية الضاربة حول مكة، وفي مقدمتها قبيلة هوازن التي نهضت لجمع ما تبقى من العرب المشركين لحرب الدولة الإسلامية وكان يقود هذه القبيلة مالك بن عوف النصري، واستطاع مالك هذا أن يجمع إلى قومه هوازن قبيلة ثقيف ونصر وجُشَم كلها، وسعد بن بكر، وناساً من بني هلال وهم قليل، وخالفه من بطون هوازن كعب وكلاب فلم ينضم له أحد ذو شأن منهم. وكان في بني جُشَم: دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخاً مجرباً. وفي ثقيف: سيدان لهم. وفي الأحلاف: قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب. وفي بني مالك: ذو الخمار سبيع بن الحارث بن مالك، وأخوه أحمر بن الحارث. وكانت القيادة العامة لمالك بن عوف النصري.

فلما أجمع مالك السير إلى رسول الله ﷺ ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس^(١) اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة في شجار له^(٢) يقاد به. فلما نزل قال: بأيّ واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرر^(٣) ولا سهل دهس^(٤)، ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم. قال: أين مالك؟ قيل: هذا مالك، ودعي له، فقال: يا مالك، إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإنّ هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام! ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ قال: سقت مع الناس أموالهم ونساءهم. قال: ولم ذاك؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم. فأنكر عليه دريد تصرفه هذا وقال له: راعي ضأن والله؟ وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعلك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك، ثم قال: ما فعلت كعب وكلات؟ قالوا: لم يشهدا منهم

(١) أوطاس: واد في ديار هوازن بين حنين والطائف.

(٢) الشجار: شبه الهودج مكشوف الأعلى.

(٣) الحزن: المرتفع من الأرض. الضرر: الذي فيه حجارة محددة.

(٤) الدهس: اللين الكثير التراب.

أحد. قال: غاب الحد^(١) والجذ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب! ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلات، فمن شهدا منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر. قال: ذاك الجذعان^(٢) من عامر، لا ينفعان ولا يضران! يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم البيضة^(٣) بيضة هوازن إلى نحر الخيل شيئاً. ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعلياً قومهم، ثم ألق الصُّبَاءَ^(٤) على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك قد أحرزت أهلك ومالك. قال: والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وكبر عقلك! والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري - وكره أن يكون لدريد بن الصمة فيها ذكر أو رأي - فقالوا: أطعناك. فقال دريد بن الصمة: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني.

يا ليتني فيها جَذَعٌ^(٥) أُخْبْتُ فيها وأَصْعُ^(٦)
أَقوْدُ وَطَفَاءُ الزَّرْمَعِ^(٧) كأنها شاةٌ صدع^(٨)

ثم قال مالك للناس: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد!

٢ - استعداد الرسول للمعركة:

ولما سمع بهم نبي الله ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيهم بخبرهم. فانطلق ابن حدرد فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ، وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر. فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ليلقاهم ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً له وسلاحاً،

(١) الحد: الشجاعة والحدة.

(٢) الجذع: الضعيف في الحرب، كأنه الجذع من الإبل.

(٣) البيضة: الجماعة.

(٤) جمع صابىء، كانوا يسمون المسلمين بذلك لأنهم خرجوا عن دين الوثنية إلى الإسلام.

(٥) الجذع: الشاب.

(٦) الخيب والوضع: ضربان من السير.

(٧) الوطفاء: الطويلة الشعر. الزمع: الشعر الذي فوق مربوط القيد.

(٨) الشاة: الوعل. الصدع: الوسط بين العظيم والحقير.

فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال: يا أبا أمية، أعرنا سلاحك هذا نلحق فيه عدونا غداً. فقال صفوان: أغضباً يا محمد؟ قال: «بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك». قال: ليس بهذا بأس! فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح. وهذه مرة أخرى يتعاون فيها رسول الله مع كافر للقضاء على كافر، وقد قدمنا الكلام على ذلك.

٣- القتال بين الفريقين :

ثم خرج رسول الله ﷺ ومعه ألفان من أهل مكة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة المنورة، فكانوا اثني عشر ألفاً. واستعمل رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس على مكة أميراً على من تخلف عنه من الناس. ثم مضى رسول الله ﷺ على وجهه يريد لقاء هوازن. وتابع الجيش الإسلامي طريقه ليلاً، ولما استقبل وادي حنين انحدر في واد من أودية تهامة شديد الانحدار، وكانت هوازن قد سبقت الجيش الإسلامي إلى هذا الوادي ونصبت فيه كميناً للجيش الإسلامي، وعند ظهور الخيوط الأولى من الفجر هاجمت هوازن الجيش الإسلامي وشدت عليه شدة رجل واحد. ففرق جيش المسلمين من قوة الضربة، ولم يثبت مع رسول الله ﷺ إلا عشرة من الصحابة هم أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبد، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث وابنه جعفر. وكان ممن ثبت مع رسول الله ﷺ أم سليم بنت ملحان وكانت مع زوجها أبي طلحة، فالتفت رسول الله ﷺ فرأها وقد حزمت بطنها ببرد لها وهي حامل بعبد الله بن أبي طلحة، ومعها جمل أبي طلحة وقد خشيت أن يغلبها الجمل فأدنت رأسه منها وأدخلت يدها في جزامته مع الخطام، فقال لها رسول الله ﷺ: «أم سليم؟ قالت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل، فقال رسول الله ﷺ: «أويكفي الله يا أم سليم؟» وكان مع أم سليم خنجر، فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟ قالت: خنجر أخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به، فقال أبو طلحة مزهواً بما قالته زوجته: ألا تسمع ما تقوله أم سليم الرميضاء يا رسول الله؟

فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر- وكان ما زال يحمل الأزام في كنانته على ما يروى -.

وصرخ جبلة بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم! وتوجه شيبة بن عثمان ليقتل

رسول الله، فعصمه الله منه. وكان الأحسن ألا يشترك في الجهاد أحد من أهل مكة، لأنهم لم يقدموا ما يثبت إخلاصهم للدولة الإسلامية بعد، ولكن ثقة رسول الله بجنوده الذين فتحوا مكة، وقلة عدد عدوه جعله يتساهل في أمر هؤلاء. وكان العباس عم رسول الله ﷺ آخذاً بلجام بغلته البيضاء وكان امرأً جسيماً شديد الصوت، ورسول الله يقول حين رأى ما رأى من الناس: أين أيها الناس، فلم ير الناس يلوون على شيء، فقال: يا عباس، اصرخ يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السُّمرة^(١). قال: فأجابوا: لبيك لبيك! فيذهب الرجل ليشني بعيه فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيه ويخلي سبيله، فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مئة اقتحم بهم رسول الله جيش المشركين، فاقتتلوا أشد قتال. وأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون فقال: «الآن حمي الوطيس»!.

وقتل علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار حامل لواء المشركين، فانهزمت هوازن، وثبتت ثقيف، فكثر فيها القتل حتى قتل منها تحت رايتها سبعون رجلاً، فلم يلبث حامل لوائها أن قتل فتفرق شملها وانهزمت. ووقف القائد العام لقوات المشركين في حنين «مالك بن عوف النضري» في فوارس من قومه وقال لهم: قفوا حتى يلحق بكم ضعفاؤكم، ولم يزل واقفاً، ينظم الانسحاب من المعركة حتى لحق به سائر جنوده المنهزمين، وتلك مفخرة نسجلها لمالك، فإنه لم يكن ككثير من القواد أول المنهزمين. وأثناء الانسحاب قتل المسلمون من قتلوا، وأسروا من أسروا. ومما يذكر في هذه الموقعة أن رسول الله ﷺ مرّ بامرأة كان خالد بن الوليد قد قتلها، والناس مجتمعون حولها، فقال: «ما هذا؟» قالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد، فقال رسول الله لبعض من معه: «أدرك خالداً فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً» - أي عبداً يستعان به بالقتال ولا رأى له فيه -.

ولم يكن هذا النهي من رسول الله تديباً طارئاً، بل كان سياسة دائمة انتهجها عليه الصلاة والسلام، إذ لما كان هدف الدولة الإسلامية من الجهاد إزالة السلطة الظالمة الباغية المتسلطة على العباد، المانعة عنهم نور الإسلام، المقيمة الحجب بينهم وبينه، فإن السيف لا يجوز أن يرفع إلا على تلك السلطة ومن يدافع عنها، ويمدها بأسباب الوجود، وليست المرأة المعزولة عن ذلك ولا الطفل من ذلك في شيء، ولذلك لا يجوز قتلهم، كما لا يجوز قتل السكان الأمنين الذين لم يرفعوا السيف دفاعاً عن السلطة الظالمة الواقعة في وجه

(١) السمرة: الأحذوتة في الليل. ويا أصحاب السمرة: يا من تسمرون بقراءة القرآن والصلاة.

دين الله، أما من رفع السيف منهم في وجه الإسلام دفاعاً عن الظلم فقد وجب قتاله وقتله .
٤ - آثار المعركة :

(أ) سرية أبي عامر الأشعري إلى أوطاس :

تجمع في أوطاس بعض فلول المنهزمين في حنين ، فأرسل النبي ﷺ عليهم بسرية يقودها أبو عامر الأشعري ، فاستشهد ، فاستلم القيادة من بعده أبو موسى الأشعري فنصره الله عليهم ، وهربوا إلى الطائف .

(ب) البت بالأسرى :

أتي بالأسرى مقيدين إلى الرسول وكان فيهم «بجاد» من بني سعد بن بكر ، وقد كان رسول الله أمر بالبحث عنه والإتيان به لما كان له من الأثر في التأييد على الدولة الإسلامية . أما باقي الغنائم والسبي فقد نقل إلى الجعرانة . وكان من بينهم «الشيما بنت الحارث بن عبد العزى» أخت رسول الله من الرضاعة ، فلما أتوا بها رسول الله قالت : يا محمد أنا أختك من الرضاعة فقال رسول الله : «وما علامة ذلك؟» قالت : عضه عضضتنيها في ظهري وأنا مُتَوَرِّكْتُكَ ، فعرف رسول الله العلامة ، فبسط لها رداءه وأجلسها عليه وخيرها بين الإقامة عند رسول الله مكربة وبين العودة إلى أهلها ، فاختارت العودة إلى أهلها ، فجهزها رسول الله وأرجعها إلى أهلها .

(ج) المكافآت :

ونادى رسول الله في جنده «من قتل قتيلاً فله سلبه» مكافأة للذين أخلصوا الجهاد ، وأبلوا البلاء الحسن ، وتشجيعاً لهم على البلاء في المعارك القادمة . فتقدم «أبو قتادة» إلى رسول الله فقال : يا رسول الله والله لقد قتلت قتيلاً ذا سلب فأجهضني عنه القتال ، فما أدري من استلبه ، فقال رجل من أهل مكة : صدق يا رسول الله ، وسلب ذلك القتل عندي ، فارضه عني من سلبه ، فقال أبو بكر الصديق : لا والله لا يرضيه منه ، تعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن دين الله تقاسمه سلبه؟! فقال رسول الله ﷺ : «صدق ، أردد عليه سلبه» .

الجولة الثالثة في الطائف

١ - أسبابها

مضت الفلول المنهزمة من حنين ، فعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو

نخلة، وتوجه بعضهم إلى الطائف، ولاحق رسول الله من اجتمع منهم في أوطاس ونخلة. فهربوا منها ولجأوا إلى الطائف وهكذا أصبحت الطائف معسكراً يجمع جميع فلول حنين وأغلقوا عليهم أبواب المدينة واستعدوا للقتال أشد الاستعداد. وإنما فضلوا اللجوء إلى الطائف، لأن الطائف مدينة محصنة بحصون قوية تحميهم من هجوم جنود الدولة الإسلامية.

٢ - حصار الطائف:

وتقدم الجيش الإسلامي نحو أسوار الطائف بعد الفراغ من حنين، فرماهم أهل الطائف من وراء السور الحصين بالنبل، فقتلوا منهم عدداً دون أن يفلح المسلمون في دخول مدينة الطائف، فأمر رسول الله جنوده بالابتعاد عن السور، واكتفى رسول الله بحصار الطائف، فحاصرها بضعاً وعشرين ليلة ورمى أسوار الطائف بالمنجنق الذي صنعه الخبراء المسلمون بعد عودتهم من البعثة التي أرسلهم رسول الله فيها إلى بلاد الشام لتعلم صناعة المنجنقات والدبابات.

ورأى رسول الله أن يستخدم الدبابات التي تحمي المحاربين بهياكلها الضخمة ليتقدم فريق من المسلمين محتمين بها لفتح ثغرة في سور الطائف ليدخل منه المسلمون المدينة، ولكن ما إن تقدّم الجنود محتمين بهذه الدبابات حتى أرسل عليهم أهل الطائف سكك الحديد محمية بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنان ثقيف، وما إن بدأ المسلمون بقطعها حتى أرسل أهل الطائف لرسول الله يقولون: يا محمد لا تقطعها ولكن خذها لأصحابك، أو اتركها لله وللرحم.

٣ - فك الحصار عن الطائف:

وقال رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق وهو محاصر ثقيفاً: «يا أبا بكر، إني رأيت أني أهديت لي قبة^(١) مملوءة زبداً، فنقرها ديك فهراق ما فيها» فقال أبو بكر: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد. فقال رسول الله ﷺ: «وأنا لا أرى ذلك». ثم إن خويلة بنت حكيم السُّلمية، وهي امرأة عثمان، قالت: يا رسول الله، أعطني إن فتح الله عليك الطائف حلي بادية بنت غيلان، أو حلي الفارعة بنت عقيل - وكانتا من أكثر نساء ثقيف حلياً فقال لها

(١) القبة: القدح.

رسول الله ﷺ: «وإن كان لم يؤذن لي في ثقيف يا خويله؟» فخرجت خويله فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب، فدخل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما حديث حدثنيه خويله زعمت أنك قلته؟ قال: «قد قلته»، قال: أوأذن لك فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا». قال: أفلا أؤذن بالرحيل؟ قال: «بلى». قال: فأذن عمر بالرحيل، وأخذ الجيش الإسلامي يستعد للرحيل، وتقدم رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع عليهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم اهد ثقيفاً واث بهم». وقدم على رسول الله ﷺ في إقامته ممن كان محاصراً بالطائف عبيد، فأسلموا، فأعتقهم رسول الله ﷺ. ولما أسلم أهل الطائف فيما بعد طالب الحارث بن كلدة بأولئك العبيد فقال رسول الله ﷺ: «لا، أولئك عتقاء الله». وجميع من استشهد بالطائف من أصحاب رسول الله ﷺ اثنا عشر رجلاً: سبعة من قريش، وأربعة من الأنصار، ورجل من ليث.

الجولة الرابعة في الجِعْرانة

١ - فك الحصار:

بعد فك الحصار عن الطائف توجه رسول الله ﷺ بمن معه من الناس إلى الجعرانة حيث أمر بجمع الغنائم فيها، ليغرس في أعماق جنده: أن الله الذي أنعم عليهم بكل هذه النعم، وأورثهم أرض عدوهم وأموالهم وأنفسهم لم يحجب نصره عنهم على أهل الطائف إلا لحكمة يعلمها هو سبحانه وتعالى. وصل رسول الله ﷺ الجعرانة، وفي الجعرانة من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل أربعة وعشرون ألفاً، ومن الشاء أكثر من أربعين ألفاً، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية، وما إن وصلها حتى أتاه وفد هوازن يلتمسون العفو عنه، فقالوا له: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن من الله عليك.

٢ - إطلاق السبي:

وقام رجل من هوازن يقال له زهير يكنى بأبي صرد من بني سعد بن بكر، فقال: يا رسول الله، إن ما في الحظائر هم عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملأنا للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائذته علينا، وأنت خير المكفولين! فقال رسول الله ﷺ: «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟» فقالوا: يا رسول الله، خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا

إيمان وقر في صدورهم، ولكن ابتغاء منافع الدنيا، وسار هؤلاء مع رسول الله إلى حنين، قبل أن يتلقوا من آداب الإسلام ما يهذب نفوسهم ويقوم سلوكهم، وما إن وصل هؤلاء مع رسول الله إلى الجعرانة حتى قالوا: يا رسول الله، اقسم علينا فيأنا من الإبل والغنم! حتى ألجأوه إلى شجرة فاختطفت منه رداؤه، فقال: «أدوا علي ردائي أيها الناس، فوالله إن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعلما لقسمته عليكم، ثم ما ألقيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذباً». ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها ثم قال: «أيها الناس، والله ما لي من فيثكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيطة^(١)، فإن الغلول^(٢) يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً^(٣) يوم القيامة». فجاء رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله، أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لي دبر^(٤). فقال: «أما نصيب منها فلك!» قال: أما إذا بلغت هذا فلا حاجة لي بها. ثم طرحها من يده.

٥ - إعطاء المؤلف قلوبهم:

وأعطى رسول الله ﷺ المؤلف قلوبهم، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس يتألفهم ويتألف بهم قومهم، فأعطى أبا سفيان بن حرب مئة بعير، وأعطى ابنه معاوية مئة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مئة بعير، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مئة بعير، وأعطى سهيل بن عمرو مئة بعير، وأعطى حويطب بن عبد العزى مئة بعير، وأعطى العلاء بن جارية الثقفي مئة بعير، وأعطى عيينة بن حصن مئة بعير، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مئة بعير، وأعطى مالك بن عوف النصري مئة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مئة بعير، فهؤلاء أصحاب المئين. وأعطى دون المئة رجالاً من قريش: منهم مخزومة بن نوفل الزهري، وعمير بن وهب الجهمي، وهشام بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي. وأعطى سعيد بن يربوع المخزومي خمسين من الإبل، وأعطى عدي بن قيس السهمي خمسين من الإبل. وأعطى عباس بن مرداس أباعر^(٥) فسخطها، فعاتب فيها رسول الله ﷺ فقال:

(١) الخياط: الخيط. والمخيطة: الإبرة.

(٢) الغلول: الشيء المسروق من الغنيمة.

(٣) الشنار: أقبح العار.

(٤) الدبر: الذي به الدبر، وهي القروح.

(٥) أباعر: مفردها بعير، وهو الحمل البازل للذكر والأنثى، وجمع بعير: بعران. وجمع بعران: أباعر.

وأبناءنا، فهو أحب إلينا. فقال لهم: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم».

وإنما أراد رسول الله بذلك أن لا تتزعزع الثقة بين الشعب والسلطة الحاكمة وذلك أساس في العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم». فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو إلى رسول الله ﷺ. وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا. وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سليم: بلى، ما كان لنا فهو إلى رسول الله ﷺ. فقال عباس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني. وقال رسول الله ﷺ: «أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض. من أول سبي أصيبه، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم».

٣- إرضاء قائد جيش حنين وإسلامه:

وفكر رسول الله بأنه لو استطاع أن يجتذب قائد جيش حنين «مالك بن عوف» إلى صفه بأية وسيلة كانت لكان في ذلك كسب عظيم، فسأل وفد، هوازن عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف. فقال رسول الله ﷺ: «أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مئة من الإبل». فأخبر مالك بذلك، فخرج سراً من الطائف قاصداً رسول الله، لأنه خاف أن تعلم ثقيف بما قال رسول الله فيشددوا المراقبة عليه ويمنعوه من الخروج إلى رسول الله ﷺ، فأمر براحلته فهيئت له وأمر بفرس له فأتي به إلى الطائف، فخرج ليلاً فجلس على فرسه، فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس، فركبها فلحق برسول الله ﷺ، فأدركه بالجعرانة أو بمكة، فرد عليه أهله وماله، وأعطاه مئة من الإبل، وأسلم وحسن إسلامه. فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه وتلك القبائل: ثمالة، وسلمة، وفهم، فكان يقاتل بهم ثقيفاً، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه، حتى ضيق عليهم.

٤- المطالبة بتقسيم الغنائم:

بعد فتح مكة دخل في الإسلام ناس من الأعراب لم يكن الدافع لهم إلى الإسلام

كانت نهابا تلافيتها
وإيقاظي القوم أن يرقدوا
فأصبح نهبى ونهب العبيد
وقد كنت في الحرب ذا تدرا
إلا أفائل أعطيتها
وما كان حصن ولا حابس
وما كنت دون امرئ منهما

بكرى على المهر في الأجرع^(١)
إذا هجع الناس لم أهجع^(٢)
سد بين عينة والأقرع^(٣)
فلم أعط شيئا ولم أمنع^(٤)
عديد قوائمها الأربع^(٥)
يفوقان شيخي في المجمع^(٦)
ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال رسول الله ﷺ: «اذهبوا به فاقطعوا عني لسانه» فأعطوه حتى رضي فكان ذلك قطع لسانه الذي أمر به رسول الله ﷺ.

٦ - اعتراض الأنصار على التوزيع :

لما أعطى رسول الله ﷺ قريشاً وقبائل العرب ما أعطى من تلك العطايا دون أن يعطي الأنصار منها شيئا، غضب بعض الأنصار وكثر بينهم اللغظ حتى قال قائلهم : لقي - والله - رسول الله ﷺ قومه ! فدخل سعد بن عباد على رسول الله فقال : يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيئا ! قال : «أين أنت من ذلك يا سعد؟» قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي . قال : «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة» . فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم . فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار .

فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : «يا معشر الأنصار ،

(١) النهاب : جمع نهب ، وهو ما ينهب ويغنم . والأجرع : المكان المسهل .

(٢) لم أهجع : لم أتم .

(٣) العبيد : اسم فرس العباس .

(٤) ذا تدرا : ذا دفع عن قومي . لم أعط شيئا : أي شيئا طائلا .

(٥) الأفائل : جمع أفيل ، وهو الصغير من الإبل .

(٦) شيخي : يريد به أباه مرداسا . ويروى «شيخي» بتشديد الياء ، يريد أباه وجده ويروى «يفوقان مرداس» .

ما قاله بلغتنى عنكم، وجدة^(١) وجدتموها علي في أنفسكم! ألم آتكم ضللاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم! قالوا: بلى، والله ورسوله آمن وأفضل^(٢)! ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله: الله ورسوله آمن والفضل! قال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم: أتيناك مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم لعاعة^(٣) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً^(٤) وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار! اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار». قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً. ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا.

٧ - السياسة الحكيمة في هذا التوزيع :

إن أمر أموال هوازن وسبائها يستحق منا وقفة، إذ حدث فيها ما لم يُعهد من رسول الله فعله من قبل، فهو عليه الصلاة والسلام آخر توزيع الغنائم إلى ما بعد غزوة الطائف، وهو قد ردّ السبي - النساء والأولاد - إلى ذويهم، وهو لم يعط المجاهدين من الغنائم التي أحرزوها شيئاً، وإنما أعطاها غيرهم، فلا بد من أن يكون وراء ذلك مخططاً سياسياً أعده رسول الله ﷺ فما هو هذا المخطط؟

أما تأخيره توزيع الغنائم: فلأن رسول الله كان يعد هذه الغنائم ليعالج بها وضعاً سياسياً معيناً قد نشأ بعد فتح مكة، إذ أن العرب المحيطين بمكة ما إن رأوا قريشاً ترمي السلاح تحت سنابك خيل الدولة الإسلامية حتى جمعت جموعها لتلقاه في حنين، ونصر الله رسوله على جموع حنين. إن ذلك يعني أن انتصار رسول الله في مكة وفي حنين لن يمر بسلام، فإن القلوب تفور حقداً وإن أظهرت الانقياد لرسول الله، لعمق الجراح التي صنعها يوم فتح مكة ويوم حنين.

(١) الجدة: الغضب.

(٢) أمن: أكثر منة، وهي النعمة.

(٣) اللعاعة، بالضم: البقية اليسيرة.

(٤) الشعب: الطريق بين جبلين.

ثم إن رسول الله لن يمكث طويلاً في مكة ليعالج كل ناشئة في مكة وما حولها بحكمته، بل هو سيعود إلى عاصمة دولته - المدينة المنورة - وهذا يتطلب منه معالجة الموقف قبل مسيره إلى المدينة المنورة معالجة حاسمة، يمتص بها العداوة، ويغرس فيها شجرة المحبة في القلوب . . . ولكن كيف . . . ؟ وما هو السبيل إلى ذلك . . . ؟

وجد محمد ﷺ بثاقب نظره أن سبيل ذلك هو المال، ولذلك انتظر، ولم يقسم الغنائم بين الفاتحين، انتظر لعل هوازن تأتبه طائعة تائبة إلى الله ورسوله، فيرد إليها أموالها، وبذلك يشتري عداوتها بمالها، ويخرج من المعركة وقد كسب القلوب، وكسب القلوب هو النصر الحقيقي الذي يسعى إليه الأنبياء، والسياسيون المحنكون . . . ولكن هوازن أبطأت عليه . . . ثم أبطأت حتى مضت بضع عشرة ليلة، وكان على رسول الله أن يتصرف بسرعة، لأن ثمة أوضاعاً جديدة في مكة - بعد الفتح - تنتظره، ولا بد وأن يسرع لقول كلمة الفصل فيها قبل أن يرجع إلى المدينة المنورة لينهمك في التحضير لفتح جبهة الشمال مع الروم. وإذا كانت هوازن لم تأت فكيف يتصرف بهذه الغنائم على ضوء تلك السياسة التي رسمها؟ نظر رسول الله إلى هذه الغنائم فوجدها تتألف من سبي (نساء وأولاد) وأموال (إبل وغنم وفضة ونحوها).

وتفحص رؤساء القبائل وأشراف مكة الذين انقادت إليه أجسادهم ولم تنقد إليه قلوبهم، ورجح احتمال انتقاضهم عليه بعد أن يوليهم ظهره إلى المدينة، فجعل يعطيهم من هذا المال (الإبل والأغنام والفضة ونحوها) حتى قلب عداوتهم حباً، يقول صفوان بن أمية، وقد كان من ألد أعداء الرسول عليه الصلاة والسلام «ما زال رسول الله يعطيني من غنائم حنين، وهو أبغض الخلق إليّ، حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه». وهكذا اشترى قلوبهم بالمال، وضمن ولاءهم له بذلك الحطام، وإنها لعمرى السياسة الحكيمة، شراء العدو بالمال خير من إخضاعه بالسيف، لأن من اشترته بالمال ضمنت ولاء قلبه وسيفه، ومن أخضعته بالسيف حطمت سيفه وزدت النار في قلبه ضرماً، ولا بد لنار القلوب من أن تندلع في يوم من الأيام، وهذا هو الأمر الذي لم يدركه كثير من الصحابة رضوان الله عليهم، وعلى رأسهم طائفة من الأنصار فاضطر رسول الله أن يشرح لهم سياسته ويقول لهم: «أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً وولتكم إلى إسلامكم» ولما تبينت لهم سياسة رسول الله أذعنوا وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً. أما السبي (النساء والأولاد) فقد أبقاهم رسول الله في يده ولم يوزعهم على المخلصين من أصحابه - وهم

الفاتحون - الذين لا طمع لهم بمال ولا حطام، وإنّما أبقاهم ليسترضي بهم هوازن إذا أتته تائبه. وإنّما قدر رسول الله أن هوازن لن تتخلى عن نسائها وأبنائها مقابل توبة تبديها له، ولا يبعد أن يكون رسول الله قد أرسل في الخفاء من يحثها على القدوم إلى رسول الله، ولذلك كان رسول الله ينتظر قدومها، وقد أخر توزيع الغنائم من أجل ذلك. وحدث ما توقعه رسول الله، فقد قدمت هوازن تائبة معلنة إسلامها، طالبة رد ذراريها وأموالها، ولكن توبتها وصلت متأخرة، فقد وزع رسول الله الأموال على من لا تتقاد قلوبهم في هذه المرحلة إلا بالمال، فقال لهم رسول الله: «يا معشر هوازن أبنائكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟» وهو يعلم أنهم لا يعدلون بنسائهم وأولادهم الدنيا بما فيها، فقالوا: بل نساؤنا وأبنائنا أحب إلينا.

ولما كان رسول الله قد وزع النساء والأولاد على أصحابه، وكان سحبهم من أيديهم فيه شيء من الحرج، فقد لجأ عليه الصلاة والسلام إلى تصرف سياسي جعل الصحابة يتسابقون إلى رد ما في أيديهم من نساء هوازن وأبنائها، إلا نفر يسير منهم، اشترى الرسول ما في أيديهم من السبي على أن يعرضهم عنه من أول غنيمة يصيبها، وكان ذلك التصرف السياسي الرائع - كما ذكرناه قبل قليل - أن قال رسول الله لهوازن: «إذا ما صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيك عند ذلك وأسأل لكم». فلما صلى رسول الله الظهر بالناس قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به رسول الله، فقال رسول الله: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقال الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله... وطابت نفس هوازن برد نسائها وأبنائها، وقدرت لرسول الله عمله، فأخلصت له الود.

وهكذا عملت السياسة ما لم يعملها السيف، فصلى عليك الله يا سيدي يا رسول الله يا من علمت الناس التصرف الحكيم.

العودة إلى مكة المكرمة:

لما انتهى رسول الله من توزيع الغنائم التي كان قد أمر بنقلها إلى الجعرانة لما فيه مصلحة الدولة الإسلامية، أمر بحصة الدولة من هذه الغنائم - وهو الخمس - أن ينقل إلى مِجَنَّةَ ويحفظ فيها، ثم توجه عليه الصلاة والسلام إلى مكة المكرمة ليطمئن على الأوضاع فيها قبل مغادرته المنطقة، وليشرف بنفسه على ردود الفعل التي خلفها توزيع الأموال

- الغنائم - بسخاء على رؤساء القبائل وذوي النفوذ فيها، خاصة وأن زعماء قريش قد نالهم من هذا العطاء الشيء الكثير مما لم يكونوا يحلمون به. وطالما أن الداخل إلى مكة لا بد من أن يدخل محرماً ويؤدي حق الله تعالى فيها بعمره، فقد قصد رسول الله أداء العمرة أيضاً تبعاً. وما إن وصل رسول الله ﷺ مكة، وأدى العمرة، وأقام فيها قليلاً حتى سمع جميع الألسن تلهج بذكره وتثني عليه، وتلوك اللوم على ما سبق لها من عداوته. ولما اطمأن رسول الله إلى أنه ليس في أوضاع مكة ما يعكرها، وأن أمرها على خير ولّى عليها عتاب بن أسيد وعين له راتباً كل يوم درهماً، ثم أمر بما أودعه من الغنائم في مجنة أن ينقل إلى المدينة ليستعين به في تدبير شؤون الدولة الإسلامية، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة المنورة.

الجولة الخامسة تصفية جيوب المعارضة في الجزيرة العربية

بعد أن تمت تصفية الكيانات السياسية لمراكز الثقل في العرب (قريش، هوازن، ثقيف الخ...) بقيت هناك جيوب معارضة سياسية للدولة الإسلامية قد انتشرت هنا وهناك في أنحاء الجزيرة العربية، وترك هذه الجيوب من الخطورة بمكان، لأنها ستكون مصدر إزعاج للدولة الإسلامية، ولذلك ما إن عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة حتى بدأ يجهز لها السرايا لإخضاعها لسلطة الدولة الإسلامية وسيادتها. وكان من هذه السرايا:

١ - سرية إلى بني تميم:

في المحرم من سنة تسع من الهجرة جهز رسول الله ﷺ لعينة بن حصن الفزاري سرية قوامها خمسون فارساً من العرب ليس فيهم أحد من المهاجرين ولا الأنصار، وأمره بالإغارة على بني تميم فكان يسير بهم الليل ويكمن النهار، ولما أغار عليهم هربوا من وجهه فساق عينة مواشيهم، والعديد من نسائهم وأولادهم وجاء بهم المدينة المنورة. ولكنهم ما لبث أن تبعه وفد منهم أعلنوا طاعتهم وولاءهم كما سيأتي ذكره في وفد بني تميم.

٢ - سرية إلى خثعم:

وفي صفر بعث رسول الله قطبة بن عامر في عشرين رجلاً إلى حي من خثعم بناحية وادي بيشة، فشن قطبة الغارة عليهم، واقتلوا اقتتالاً شديداً، وكانت الغلبة للمسلمين، فساقوا النعم والنساء إلى المدينة المنورة.

٣ - سرية إلى طيء:

وفي ربيع الأول بعث رسول الله علي بن أبي طالب في خمسين ومائة رجل من

الأنصار إلى طيء ليهدم صنمها «الفلس» فذهب، فهدمه وأحرقه، ورجع بسبي ونعم وفضة إلى المدينة، وفي السبي سَفَانَة بنت حاتم الطائي.

٤ - سرية إلى جدة:

بلغ رسول الله أن ناساً من الحبشة نزلوا جدة، فبعث إليهم رسول الله علقمة بن محرز في ثلاثمائة مجاهد في ربيع الآخر، فما أن رآوه حتى هربوا منه، فلما رجع تعجل بعض القوم إلى أهلهم، فأذن لهم وأمر عليهم عبد الله بن حذافة، وكانت به دعاية، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا ناراً يصطلون عليها، فقال لهم عبد الله: عزمت عليكم إلا ألقىتم أنفسكم في النار، وما عليكم إلا طاعتي، لأنني أميركم، ولما رأى من بعض القوم استعداداً للتنفيذ، أخبرهم أنه كان يمازحهم، ولما عادوا أخبروا رسول الله بذلك فقال ﷺ: «من أمركم بمعصية فلا تطيعوه».

٥ - سرية إلى جباب وبلج:

وفي ربيع الثاني أيضاً بعث رسول الله عكاشة بن محصن مع جماعة من المسلمين إلى جباب وبلج - قبيلتان من قضاة - فأخضعهم وعاد إلى رسول الله ﷺ.

فتح جبهة القتال مع الروم

بعد أن عادت السرايا التي بثها رسول الله في الصحراء العربية لتصفية جيوب المقاومة فيها وكلها تحمل النصر للدولة الإسلامية، دانت الصحراء لرسول الله، وأعلنت ولاءها للدولة الإسلامية، وبهذا يكون قد آن الأوان لفتح جبهة الروم ومن دان لها بالولاء من متنصرة العرب حيث أخذ يعد العدة للمسير إلى تبوك.

ويشتمل ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : غزوة تبوك

المبحث الثاني : بسط سلطان الدولة الإسلامية على نصارى الشمال المواليين

للرومان

المبحث الثالث : بعث أسامة بن زيد

المبحث الأول : غزوة تبوك

١ - أسباب غزوة تبوك :

الأسباب البعيدة والحقيقية لهذه الغزوة - غزوة تبوك - هي تنفيذ المخطط السياسي والعسكري الذي وضعه رسول الله ﷺ للدولة الإسلامية . أما الأسباب المباشرة فهي : أن الروم لما بلغها انتصار رسول الله ﷺ الساحق على اليهودية وعلى الوثنية، وتصفية أمرهما في الجزيرة العربية، شعرت أن حدودها أصبح يهددها الخطر، خطر قيام دولة فتية قوية بجوارها، هذه الدولة التي أنهت أوضاع اليهود، ثم أوضاع الوثنية، لا بد وأن تكون منهمكة في دراسة أوضاع النصارى، وأن المعركة بينهما لا بد قائمة، ولذلك رأت دولة الروم أن تجهز جيشاً ينهي وضع هذه الدولة قبل أن يستفحل أمرها، فجهزت جيشاً قوامه أربعين ألف مقاتل لترحف به إلى الجزيرة العربية، وتنتهي به أسطورة الدولة الإسلامية .

٢ - تجهيز الجيش الإسلامي :

علم رسول الله - بما له من عيون - بأنباء ذلك الجيش الذي حشدته الروم لحربه ، فأمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم وأن لا يتخلف منهم أحد ، وكان ذلك في شهر رجب ، وكان الناس في عسرة من أمرهم ، حيث اشتد الحر ، وأجدبت الأرض ، وطابت الثمار ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالها ، ويكرهون الخروج في الحال التي هم عليها . وكان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، قلما يخرج في غزوة إلا كَتَى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يقصده ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس ، لبعد الشقة وشدة الزمان ، وكثرة العدو ، ليتأهب الناس بما يلزم ، وليعدوا للأمر عدته .

قلنا إن المسلمين كانوا في ضيق وشدة ، ولم يكن لدى أغلبهم ما يتجهز به للقتال ، كما أنه لم يكن لدى الدولة الإسلامية ما يكفي لتجهيز هذا الجيش ، ولذلك نذبت الناس إلى التبرع لهذا الجيش ، فبرع الصحابة ولم يقصر منهم أحد ، وكان من أشهر الذين بذلوا المال لهذا الجيش بسخاء عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي جهز بماله الخاص ثلث الجيش ، عشرة آلاف مجاهد ، ثم جاء بألف دينار وضعها في حجر رسول الله ، فجعل الرسول يقلبها بيديه ويقول : « ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم » - الترمذي - . وتبرع عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية فضة ، وتبرع غيرهم وغيرهم حتى سدت حاجة الجيش . وتخلف عن رسول الله ﷺ فلم يلتحق بالجيش أصناف من الناس . فمنهم من تخلف لمرض في قلبه ونفاق كالجد بن قيس حيث قال له رسول الله ﷺ : « يا جد ، هل لك في جلاد بني الأصفر - الروم » - فقال : يا رسول الله : ائذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وقال : « قد أذنت لك » . ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية من سورة التوبة : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإنَّ جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ^(١) . أي : إن كان قد خشي الفتنة من نساء بني الأصفر ، وليس ذلك به ، فما سقط به من الفتنة ، بتخلفه عن رسول الله ﷺ ، والرغبة بنفسه عن نفسه أكبر . يقول : وإن جهنم لمن ورائه . ومنهم من اعتذر بشدة الحر ، فأوصى بعضهم لبعض قائلين : لا تنفروا في الحر ، زهادة في الجهاد ، وشكاً في الحق ، وإرجافاً برسول الله ﷺ ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم : ﴿ وقالوا

(١) سورة التوبة ، الآية ٤٩ .

لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلاً وليكوا كثيراً أجزاء بما كانوا يكسبون»^(١). ومنهم من تخلف مع عبد الله بن أبي بن سلول حين ضرب معسكره قريباً من جبل ذباب في المدينة المنورة، وكان معه ما يقرب من نصف الناس، فلما سار رسول الله تخلف عنه ابن سلول مع جماعة من المنافقين وأهل الريب. ومن المؤمنين من تخلف عن رسول الله لمهمة أوكلها إليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كعلي بن أبي طالب، حيث أوكل إليه رسول الله مهمة الإشراف على أسر وعائلات الذاهبين إلى الجهاد مع رسول الله. فأشاع المنافقون أن رسول الله ما أمر علياً بالتخلف في المدينة إلا تخلصاً منه، فلما سمع علي ذلك أخذ سلاحه ولحق برسول الله وهو بالجرف فقال له: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استقلتني، وتخفت مني، فقال له رسول الله: «كذبوا، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي» فرجع علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى المدينة المنورة.

وجاء جماعة من الأعراب الضاريين حول المدينة المنورة من بني غفار - وهم على ما هم عليه من الجهل بمرامي الإسلام البعيدة - يعتذرون لرسول الله ويشرحون ما هم فيه من الضيق وعدم القدرة على الخروج معه إلى الجهاد، فلم يقبل رسول الله عذرهم، وأمرهم بالخروج، فانضم إليه جماعة منهم، وقعد عن الجهاد جماعة آخرون دون أن يستأذنوا رسول الله في القعود، فأنزل الله فيهم: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾^(٢). وكاد أن يتخلف عن الجيش جماعة من أكثر الناس إخلاصاً وأعظمهم إيماناً بالله ورسوله، لما هم فيه من الفقر وضيق الحال وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم: من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلي عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة، وعبد الله بن المغفل المزني - وبعض الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني - وهرمي بن عبد الله أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري حيث أتوا رسول الله وطلبوا منه أن يجهزهم للجهاد لأنهم لا يملكون ما يجهزون به أنفسهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون. فلقي ابن يامين بن عمير بن كعب النضري أبا ليلي عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل، وهما يكيان فقال: ما يكيكما؟ قال: جئنا

(١) سورة التوبة، الآية ٨١.

(٢) سورة التوبة، الآية ٩٠.

رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه. فأعطاهما جملاً، وزودهما شيئاً من تمر، فخرجا مع رسول الله ﷺ.

وأبطأت النية بجماعة من أصحاب رسول الله ﷺ حيث صادف ذلك لحظة ضعف تعري الإنسان أحياناً فيطيع هواه، ثم لما يستيقظ قلبه ويقوى يتدم أشد الندم على ما كان منه لحظة الضعف، وهذه الفئة من الصحابة أبطأت النية بهم حتى تخلفوا عن رسول الله ﷺ من غير شك ولا ارتياب، منهم: كعب بن مالك بن أبي كعب، ومرارة بن ربعي، وهلال بن أمية، وأبو خيثمة، وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم. ولما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع^(١). ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين^(٢) لهما في بستانه قدرشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيات له فيه طعاماً، فلما دخل قام على باب العريش فنظر امرأتيه وما صنعتا له فقال: رسول الله ﷺ في الشمس والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهياً، وامرأة حسناء، في ماله مقيم؟؟! ما هذا بإنصاف. ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيثا لي زاداً. ففعلتا، ثم قدم جملة فارتحلته ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله، فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنباً فلا عليك أن تتخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ. ففعل، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة!» فقالوا: يا رسول الله ﷺ، هو والله أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة^(٣)» ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر. فقال له رسول الله ﷺ خيراً، «ودعا» له بخير.

٣- المسير إلى تبوك:

ثم مضى رسول الله ﷺ سائراً، فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون: يا رسول الله،

(١) ثنية الوداع: ثنية مشرفة على المدينة يمر بها من يريد مكة.

(٢) العريش: سقف من القصب ونحوه محمول على عمد، يستظل به.

(٣) أولى لك: كلمة فيها معنى التهديد، وهي اسم سمي به الفعل ومعناها فيما قال المفسرون: دنوت من الهلكة.

المبحث الثاني : بسط سلطان الدولة الإسلامية

على نصارى الشمال الموالين للرومان

إذا فات لقاء رسول الله الروم فإنه لن يفته توطيد الأمر للدولة الإسلامية في الشمال، تلك المنطقة التي تعتبر من أخطر المناطق، نظراً لتمتعها بحماية الروم، لأنها على دينهم - النصرانية - ولأنها تشكل الدرع الواقى للدولة الرومانية ضد هجمات العرب .

ورأى زعماء المنطقة الشمالية أن الدولة الإسلامية التي أصبحت قادرة على اجتياح حدود الدولة الرومانية قد أصبحت قادرة على تصفيتهم في الوقت الذي تشاء، وأن هذا اليوم آت ولا بد .

١ - ولذلك فإنه ما إن حل رسول الله تبوك، حتى أتاه يُحَنَّة بن رُؤبة صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ، وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتاباً هذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رُؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم^(١) في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه من بر أو بحر» .

٢ - ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد، فبعثه إلى أكيدر دومة، وهو أكيدر بن عبد الملك، رجل من كندة كان ملكاً عليها وكان نصرانياً، فقال خالد: يا رسول الله كيف لي به وسط بلاد كلب وأنمار وجندي قليل؟ فقال رسول الله ﷺ لخالد: «إنك ستجده يصيد البقر» . فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين وفي ليلة مقمرة صائفة، وهو على سطح له ومعه امرأته: فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر، فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله . قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد فتزل فأمر بفرسه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له حسان، فركب وخرجوا معه برماحهم، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ فأخذته، وقتلوا أخاه، وقد كان عليه قباء من ديباج مزركش بالذهب، فاستلبه خالد، وبعثه إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه، فلما راه

(١) السيارة: القافلة، والقوم يسرون .

المسلمون شخصت أبصارهم وجعلوا يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه، فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون من هذا، فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا». ثم إن خالد أقدم بأكيدر على رسول الله ﷺ، فحقن له دمه وصالحه على الجزيرة، ثم خلى سبيله، فرجع إلى قريته، ولكن أكيدر ما لبث أن نقض العهد في زمن أبي بكر الصديق، فحاصره خالد بعد أن عاد من العراق إلى الشام فقتله. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، وكان ذلك في شهر رمضان من سنة تسع للهجرة.

المبحث الثالث: العودة لقتال الروم «بعث أسامة بن زيد»

كان بعث أسامة بن زيد في السنة الحادية عشرة للهجرة - أي بعد قدوم الوفود على رسول الله ﷺ، وإنما قدمناه عليها لعرض جميع الأعمال الحربية التي قام بها رسول الله ضد الروم في مكان واحد. وكانت الأسباب البعيدة والحقيقية لبعث أسامة بن زيد رضي الله عنه تنفيذ المخطط السياسي والعسكري اللذين وضعهما رسول الله ﷺ حين وضع اللبنيات الأولى للدولة الإسلامية، وتنفيذاً لهذا المخطط فقد فتح رسول الله جبهة الروم بعد أن صفى اليهود ودانت له العرب، واضطرته الظروف أن يستعجل بعقد لواء غزوة مؤتة إنفاذاً لكرامة الدولة الإسلامية، فعقده وثبت جيش مؤتة أمام حشود الروم وصنائعهم من العرب، وهو بذلك قد وضع الحربة في نحر دولة الروم وإن لم يغرزها فيها، ثم أراد رسول الله أن يغرز حربته في نحر دولة الروم في غزوة تبوك، فأعد لها عدتها، ولكن الروم جبت عن اللقاء، وفرت من أرض المعركة قبل وصول الرسول ﷺ، وها هو اليوم يمعن في غرز حربته في نحر دولة الروم ويجهز جيشاً لأسامة بن زيد رضي الله عنه.

وكانت الأسباب المباشرة لهذا البعث أن فروة بن عمرو الجذامي كان والياً من قبل الروم على معان وما حولها من بلاد الشام، فاعتنق الإسلام، وبعث إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامه فأغضب ذلك الروم فجردوا له حملة أتت به، فضربوا عنقه على ماء بفلسطين يقال له «عفراء» ثم صلبوه، وتركوه مصلوباً لئلا يسلك غيره مسلكه من الدخول في الإسلام. فأعد رسول الله جيشاً عظيماً فيه كبار الصحابة بقيادة أسامة بن زيد، وأمر أسامة أن يدخل بجيشه حدود الروم، ليرهب الروم بذلك، وليعيد الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود الرومانية، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الروم لا مُعَقَّب له، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه الحتوف دون أن ينهض للعادي أحد، وليؤكد رسول الله أن الدولة

تخلف فلان، فيقول: «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه». حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره، فقال: «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه». وتلوم^(١) أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحملة على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازل، فظفر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر». فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»^(٢). وكان الجيش الإسلامي يتقدم نحو تبوك بحذر شديد، ولكن جيش الروم ما إن سمع بتقدم جيش المسلمين حتى أثر الاختفاء من ساحة المعركة وتحاشى الصدام، لأنه أدرك أن الصدام لن يكون في صالحه، إذ أن الدولة الرومانية لم تنس يوم مؤتة بعد، اليوم الذي قابل فيه ثلاثة آلاف من المسلمين مائتي ألف مقاتل روماني، وخرج المسلمون من المعركة ظافرين مكبدين العدو أضعاف ما تكبدوه من الخسائر، فكيف تورط اليوم في صدام مسلح معهم وقد استعدوا له كل الاستعداد، وأتوا يخترقون الحدود؟! إنهم لو لم يجدوا في أنفسهم الكفاءة والقدرة على انتزاع النصر لما خرجوا من بلادهم يجتاحون حدود الامبراطورية الرومانية. ووصل رسول الله ﷺ تبوكاً فلم يجد أحداً من جنود الرومان.

(١) تلوم تمكث وانتظر.

(٢) عن عبد الله بن مسعود، قال: لما نفى عثمان أبا ذر إلى الريزة. وأصابه بها فذرّه، لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلّامه، فأوصاهما، أن غسلاني وكفّناي، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمر بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه. فلما مات فعلا ذلك به، وضعاه على قارعة الطريق وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عُمّار فلم يرعهم إلا بالجنّازة على ظهر الطريق، قد كادت الإبل تطوّها، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه. قال: فاستهل عبد الله بن مسعود يبيكي ويقول: صدق رسول الله ﷺ: تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروه. فكان ذلك تصديقاً لقول رسول الله ﷺ يوم تبوك وبرهاناً جديداً على نبوته عليه الصلاة والسلام.

الإسلامية حامية للمسلمين في جميع أنحاء الأرض إذا ما أصيبوا بظلم. ففي يوم الإثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة للهجرة فرض رسول الله على الناس بحثاً إلى الشام وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاة، وأمره أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس وسار مع أسامة بن زيد المهاجرون الأولون فلم يتخلف منهم أحد. وخرج أسامة بجيشه إلى ظاهر المدينة المنورة، فعسكر بالجرف - قرب المدينة - وتوفي رسول الله قبل أن يسير الجيش، فسير أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ.

إسلام أهل الطائف «ثقيف»

ما إن قدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان، حتى قدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف .

١ - سببه :

وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ لما فك الحصار عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفي - وكان مطاعاً من ثقيف - حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: «إنهم قاتلوك» وقد عرف رسول الله أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم، فقال عروة: يا رسول الله، لن يفعلوا فأنا أحب إليهم من أبكارهم. فأذن له رسول الله ﷺ، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام، رجاء أن لا يخالفوه، لمتزلته فيهم، فلما أشرف لهم على عليّة له^(١) وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله. فقيل لعروة: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفوني معهم. فيروى أن رسول الله ﷺ قال فيه: «إن مثله في قومه لكمثل صاحب يس في قومه». ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً، تشاوروا فيها طويلاً ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب الدولة الإسلامية التي دانت لها الجزيرة العربية وأخذت تخترق حدود الدولة الرومانية.

فأجمعوا على أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً كما أرسلوا عروة، فكلّموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير، وعرضوا ذلك عليه فأبى أن يفعل، خشية أن يصنع به - إذا رجع - كما صنع بعروة، وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجلاً. فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك، فيكونوا ستة، فبعثوا مع عبد ياليل الحكم بن عمرو بن

(١) العلية: الغرفة العالية.

وهب بن معتب، وشرحيل بن غيلان بن سلمة بن معتب، ومن بني مالك: عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان أخا بني يسار، وأوس بن عوف أخا بني سالم، ونمير بن خرشة بن ربيعة أخا بني الحارث، فخرج بهم عبد ياليل، وهو أمير القوم وصاحب أمرهم. فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة وجدوا بها المغيرة بن شعبة يرعى في نوبته خيل الجهاد لأصحاب رسول الله ﷺ. وكانت رعيتهما نوباً على أصحابه ﷺ - فلما رآهم ترك الركاب عند الثقفين وهرع مسرعاً ليشر رسول الله ﷺ، بقدمهم عليه، فلقه أبو بكر الصديق قبل أن يدخل على رسول الله ﷺ، فأخبره بأن وفد ثقيف قد قدموا يريدون البيعة والإسلام، وأن يشرط لهم رسول الله ﷺ شروطاً ويكتبوا من رسول الله ﷺ كتاباً في قومهم وبلادهم وأموالهم. فقال أبو بكر للمغيرة: أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه. ففعل المغيرة، فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ، فأخبره بقدمهم عليه، ثم خرج المغيرة إلى الثقفين فروّج الظهر معهم، وعلمهم كيف يحيئون رسول الله ﷺ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية.

٢ - لا مساومة في أمر العقيدة:

ولما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب لهم قبة في ناحية مسجده، فكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ. حتى كتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي كتب كتابهم بيده، وكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم، وقد كان فيما سألوه رسول الله ﷺ أن يدع لهم اللات، لا يهدمها ثلاث سنين. فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم، حتى سألوا شهراً واحداً بعد مقدمهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى، وإنما يريدون بذلك، فيما يظهرون أن يتسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذرائعهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها، وقد كانوا سألوه - مع ترك اللات - أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه»، فقالوا: يا محمد، سنقيمها وإن كانت دناءة. فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم أمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سناً، وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم

القرآن، فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إني قد رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

٣- رجوع الوفد وهدم اللات :

فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ليهكما اللات، فخرجا مع القوم، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال: ادخل أنت على قومك، وأقام أبو سفيان بماله بذئ الهدم^(١) فلما دخل المغيرة بن شعبة علاها يضربها بالمعول، وقام قومه - بنو معتب - يحمونه خشية أن ترميه ثقيف بسهم كما رمت عروة من قبل، وخرج نساء ثقيف حاسرات الرؤوس يبكين على اللات. فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليها، أرسل إلى أبي سفيان حليها وكان مجموع مالها من الذهب والجزع^(٢). وهنا لا بد لنا من الوقوف عند اختيار رسول الله ﷺ أبا سفيان بالذات لهدم اللات.

إن أبا سفيان حتى الآن ما زال يحنو على الأصنام، رغم أنه شهد أنه لا إله إلا الله، ولذلك فإن رسول الله ﷺ أراد أن يكون أبو سفيان في بعث اللات ليحطم آخر آماله بالعودة إلى الأصنام. ثم إن وفد ثقيف قد أعرب في مباحثاته مع رسول الله أن في ثقيف اليوم أناساً ما زالوا يدينون بالولاء لللات، ولذلك اختار رسول الله حامي الأصنام الأول سابقاً - وهو أبو سفيان - ليهدم اللات، فإذا ما رآه بأم أعينهم انهارت آمالهم، وطرحوا روح المقاومة جانباً، واستسلموا للدين الجديد، دين الإسلام. فتأمل بُعد نظر رسول الله ﷺ في تصرفاته.

٤ - قضاء بعض الديون من مال اللات :

وقد كان أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسود قدما على رسول الله ﷺ قبل وفد ثقيف - حين قتل عروة - يريدان فراق ثقيف، وأن لا يجامعاهم على شيء أبداً، فأسلما فقال لهما رسول الله ﷺ: «توليا من شئتما» فقالا: نتولى الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «وخالكما أبا سفيان بن حرب؟» فقالا: وخالنا أبا سفيان. فلما أسلم أهل الطائف ووجه

(١) ماء لبكي وراء وادي القرى.

(٢) الجزع: ضرب من الخرز فيه بياض وسواد.

رسول الله ﷺ أبا سفيان والمغيرة إلى هدم اللات سأل رسول الله ﷺ أبو مليح بن عروة أن يقضي عن أبيه ديناً كان عليه من مال الطاغية، فقال له رسول الله ﷺ: «نعم». فقال له قارب بن الأسود: وعن الأسود يا رسول الله فاقضه - وعروة والأسود أخوان لأب وأم - فقال رسول الله ﷺ: «إن الأسود مات مشركاً». فقال قارب لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، لكن تصل مسلماً ذا قرابة - يعني نفسه - إنما الدّين عليّ، وإنما أنا الذي أُطلب به. فأمر رسول الله ﷺ أبا سفيان أن يقضي دين عروة والأسود من مال اللات. فلما جمع المغيرة مالها قال لأبي سفيان: إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقضي عن عروة والأسود دينهما. فقضى عنهما. وكان كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لهم: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين. إن عِصَاةَ وَج^(١) وشجره لا يعضد^(٢). وصيده لا يقتل، من وجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يجلد وتترع ثيابه، فإن تعدى ذلك أحد، فإنه يؤخذ فيبلغ به النبيّ محمداً، وإن هذا أمر النبي محمد رسول الله ﷺ وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله، فلا يتعداه أحد فيظلم نفسه فيما أمره به محمد رسول الله ﷺ». وبذلك دك آخر معقل من معاقل الشرك والمقاومة في الجزيرة العربية، ودانت الجزيرة كلها للدولة الإسلامية.

(١) العضاه: مفردها عضاهه، وهي كل شجرة لها شوك، ووج: موضع بالطائف.
(٢) لا يعضد: لا يكسر.

الباب السادس

إعلان سيادة الدولة الإسلامية على جميع الجزيرة العربية وانضواء الناس تحت هذه السيادة

ويشتمل أربعة فصول :

الفصل الأول : إعلان سيادة الدولة الإسلامية على جميع الجزيرة العربية

الفصل الثاني : انضواء الناس تحت سيادة الدولة الإسلامية

الفصل الثالث : توجيه الأمراء والمعلمين إلى أنحاء الجزيرة العربية

الفصل الرابع : إعلان أهداف ومبادئ الدولة الإسلامية

إعلان سيادة الدولة الإسلامية على جميع الجزيرة العربية

بعد أن دانت الجزيرة العربية بكاملها للدولة الإسلامية كان لا بد لهذه الدولة من إعلان سيادتها على جميع بقاع الجزيرة، وإعلان النظام العام الذي يجب على كل مواطن في هذه الدولة احترامه والالتزام به.

وإن هذا الإعلان لا بد وأن يكون في اجتماع عام تحضره القبائل العربية كلها. فإن أحسن زمان ومكان له هو موسم الحج. ولذلك أمر رسول الله أبا بكر الصديق أن يكون أمير الناس في الحج لهذا العام، ليقم للناس حجهم، وكانت كل فئة من الناس تؤدي حجها على نهجها وطريقتها، المسلمون يؤدونه على نهجهم، والمشركون يؤدونه على نهجهم بما فيه من إشراك.

وما إن مضى أبو بكر بالناس حتى نزلت على رسول الله ﷺ سورة التوبة (براءة) بإنهاء جميع العهود المفتوحة بين رسول الله والمشركون من قبائل العرب، والتي كانت تنص على حرية التدين والولاء، وكان ذلك أمراً طبيعياً بعد أن دالت دولة الشرك المتمثلة في قريش، وأصبح الأمر للدولة الإسلامية، وأصبحت السيادة والحاكمة في جميع أنحاء الدولة الإسلامية لشريعة الله تعالى، فهي تطبق على الجميع. وترك الله فرصة لذوي العهود المحدودة الأجل من المشركون لتسوية أوضاعهم بينهم، وانضوائهم تحت لواء الدولة الإسلامية كمواطنين مؤمنين صالحين يبذلون الولاء إليها إلى نهاية عهودهم، ومن لم يكن له عهد منهم أو كان له عهد مفتوح ضربت له مدة أربعة أشهر، لا عذر له بعدها أبداً إن رأت الدولة الإسلامية تصفية وضعه بالشكل الذي تراه مناسباً، لأنه ليس من أمن الدولة في شيء أن تمنح حرية العمل، بل ليس من أمنها في شيء أن ترعى مواطنين لا يدينون لها بالولاء، بل ويتآمرون مع عدوها عليها لتقويض أركانها السياسية والفكرية.

تكليف علي بإعلان النظام العام :

دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأمره أن يلحق بأبي بكر الصديق الذي سار بالناس إلى الحج ، حتى إذا ما اجتمع الناس في مجتمعهم الكبير في منى أعلن لهم النظام الجديد المتمثل في خمسة بنود :

البند الأول : إنه لا يدخل الجنة كافر .

البند الثاني : إنه لا يجوز أن يحج بعد هذا العام مشرك .

البند الثالث : إنه لا يجوز أن يطوف حول الكعبة عريان .

البند الرابع : من كان له مع الدولة الإسلامية عهد موقت فعنده محفوظ إلى مدته المحددة .

البند الخامس : من لم يكن له عند الدولة الإسلامية عهد أو كان له عهد مفتوح أعده فله مدة أربعة أشهر يجمع فيها أمره ويختار طريقه ، فإن آمن بالله ورسوله وأعلن ولاءه للدولة الإسلامية فهو آمن وهو رجل من المسلمين ، وإن أبى إلا الإقامة على الشرك ومناوئة الدولة فإن الدولة هي التي ستتولى علاجه بالطريقة التي تختارها . وهذه البنود الخمسة هي التي نزلت بها سورة التوبة (براءة) حيث قال تعالى^(١) : ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأنَّ الله مخزي الكافرين * وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين^(٢) ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم * إلا الذين عاهدتم من المشركين^(٣) ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين * فإذا انسلخ الأشهر الحرم^(٤) فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إنَّ الله غفور رحيم﴾^(٥) .

(١) أي لأهل العهد العام من أهل الشرك .

(٢) أي بعد هذه الحجة .

(٣) وهم أهل العهود الخاصة إلى وقت محدد .

(٤) يعني الأشهر الأربعة التي ضربها لهم أصلاً .

(٥) سورة التوبة ، الآيات ١ - ٥ .

فخرج عليّ على ناقه رسول الله العضاء حتى أدرك أبا بكر في الطريق فلما رآه أبو بكر قال: أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، كلُّ أداه على طريقته، المسلمون على طريقتهم والمشركون على طريقتهم، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمر به رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته». وأجلّ الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى ما منهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا مَنْ كان له عند رسول الله عهد إلى مدة، فهو له إلى مدته. لقد جاء فرض النظام العام ومحو الشرك هذا بعد أن صفى رسول الله أوضاع قريش في مكة، وسوى أمره مع القبائل الكبرى، وبسط سلطانه على الجزيرة العربية بأكملها وأصبحت السيادة السياسية المطلقة للدولة الإسلامية، لقد أعلن فيه أن عهد الأصنام قد انقضى، وأن مرحلة جديدة قد بدأت، وما على الناس إلا أن يدينوا لهذه المرحلة الجديدة.

لقد قضى رسول الله قرابة اثنين وعشرين عاماً وهو يدعو إلى نبذ الأصنام، ولم يترك حجة إلا ساقها لهم، ولا برهاناً ساطعاً إلا بسطه لهم، ولكن الشيطان نفخ في أنوفهم فأبوا إلا إهدار كرامة الإنسان بسجوده للأصنام، وقد آن الأوان لإنقاذ هذه الكرامة، إنهم مرضى يرفضون تجرع الدواء، فكان من الحكمة أن يُجَزَّعوه كرهاً أو طوعاً ليبلّوا من مرضهم، وإلا فلا أمل في الشفاء. من هذا المنطلق انبثق قانون محو الشرك. وطار الناس بنص هذا القانون ومعناه إلى الآفاق، فارتعدت لسماعه قلوب، وانفتحت له قلوب، وعلمت القبائل أن الأمر جد، وأن عهد الوثنية قد انقضى فعلاً، فأخذت ترسل وفودها معلنة إسلامها ودخولها في التوحيد.

الفصل الثاني

انضواء الناس تحت سيادة الدولة الإسلامية

لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، وضرب رسول الله أمد أربعة أشهر لقبائل العرب المشركين لكي يقرروا مصيرهم بأنفسهم قبل أن تتخذ الدولة الإسلامية منهم موقفاً معيناً، ضربت إليه وفود العرب آباط الإبل من كل وجه معلنة إيمانها وولاءها: وفد بني عبد قيس، وتميم، وعامر، وبني حنيفة، وطيء، والأزد، وهمدان، وتجب، وبني ثعلبة، وبني سعد هذيم من قضاة، وفزارة، وأسد، وبهراء، وبلي، ومرة، وخولان، ومحارب، وصداء، وغسان، وسلامان، والنخع، وكندة، وزبيد، وغامد، وغيرها . . . وتحقق قول الله جل شأنه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾^(١).

١ - وفد بني تميم:

وفد على رسول الله ﷺ عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي في أشرف بني تميم: منهم الأقرع بن حابس التميمي والزُّبرقان بن بدر التميمي أحد بني سعد. وعمرو بن الأهم، والحبحاب بن يزيد. وفي وفد بني تميم: نعيم بن يزيد، وقيس بن الحارث وقيس بن عاصم أخو بني سعد، في وفد عظيم من بني تميم، ومعهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري. وقد كان الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن شهدا مع رسول الله فتح مكة وحينئذ والطائف، فلما قدم وفد تميم كانا معهم، فلما دخل وفد بني تميم المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: أن اخرج إلينا يا محمد! فأذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد جئناك نفاخر فأذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: «قد أذنت لخطيبكم فليقل». فقام عطارد بن حاجب، فقال: «الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، وهب لنا أموالاً عظماً نفعل فيها المعروف،

(١) سورة النصر.

وجعلنا أعزَّ أهل المشرق، وأكثره عدداً، وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن يفاخرنا ليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكننا نحيا^(١) من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك. أقول هذه لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا». ثم جلس فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس أخى بني الحارث من الخزرج: «قم فأجب الرجل في خطبته». فقام ثابت، فقال: «الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيه من أمره، ووسع كرسيه علمه^(٢) ولم يك شيء قط إلا من فضله. ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسباً^(٣)، وأصدقه حديثاً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه، واتممه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين. ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس حسباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فعلاً. ثم كان أول خلق أجابه واستجاب لله حين دعاه رسول الله: نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه. ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم^(٤)». وقام شاعرهم «الزبرقان بن بدر» لينشد قصيدة بين يدي رسول الله، فاستمهل الرسول حتى يقدم حسان بن ثابت، فلما قدم حسان قام الزبرقان فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منّا الملوك وفينا تنصب البيع^(٥)
وكم قسرنا من الأحياء كلهم عند الثَّهاب وفضل العزِّ يتبع
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس القرع^(٦)

(١) أي نستحي.

(٢) الكرسي ما أحاط بالسموات والأرضين، كما فسره السهيلي هنا.

(٣) أي أكرم الخلق.

(٤) تأمل الفرق بين الكلمتين، فكلمة عطارد أفعمتها روح الجاهلية، إنه تفاخر بالأموال والأولاد، وكلمة ثابت مفعمة بروح الإيمان، ترد الفضل كله لله، وأنه ما ملك من ملك إلا بإرادة الله وقدرته، ولكن ذلك لا يعفي المؤمن من العمل الدائب والجهد المخلص لنصرة الله ونصرة رسوله.

(٥) البيع: مواضع الصلوات والعبادات للنصارى، وقيل لليهود واحدها بيعة، بكسر الباء.

(٦) القرع: سحاب رقيق يكون في الخريف، واحده قرعة، بفتح القاف والزاي فيهما.

بما ترى الناس تأتينا سراتهم
فتنحر الكوم عبطاً في أرومتنا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم
فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه
إننا أئينا ولا يأبى لنا أحد

من كل أرض هويّاً ثم نصطنع^(١)
للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا^(٢)
إلا استقادوا فكانوا الرأس يقطع
فيرجع القوم والأخبار تسمع
إننا كذلك عند الفخر نرتفع

فلما فرغ الزبرقان قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: «قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال». فقام حسان فقال:

إن الذوائب من فهير وإخوتهم
يرضى بهم كل من كانت سريره
قوم إذا حاربوا ضروا عدوّهم
سجية تلك منهم غير محدثة
إن كان في الناس سباقون بعدهم
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم
إن سابقوا الناس يوماً فاز سبقهم
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم
لا ييخلون على جارٍ بفضلهم
إذا نصبنا لحيٍّ لم ندب لهم

قد يئنون سنة للناس تتبّع^(٣)
تقوى الإله وكلّ الخير يصطنع
أو حاولوا النفع في أشياءهم نفعوا
إن الخلائق فاعلم شرّها البدع^(٤)
فكلّ سبق لأدنى سبقهم تبع
عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا^(٥)
أو وازنوا أهل مجدٍ بالندى متعوا^(٦)
لا يطبعون ولا يردّيه طبع^(٧)
ولا يمشّهم من مطمع طبع^(٨)
كما يدبّ إلى الوحشية الذرع^(٩)

(١) هويّاً: سراعاً.

(٢) الكوم: جمع كوما، وهي الناقة العظيمة السنام. وعبطاً: أي من غير علة. والأرومة: الأصل: أي أن الكرم أصيل فينا.

(٣) الذوائب: الأعالي، واحدها ذؤابة، وأراد ههنا السادة.

(٤) السجية: الطبيعة والخلقة.

(٥) أوهت: أضعفت وهدمت.

(٦) متعوا: زادوا وظهروا عليهم، من قولهم متع النهار، إذا ارتفع.

(٧) لا يطبعون: أي لا يتدنسون.

(٨) الطبع: بفتح الطاء والباء.

(٩) نصبنا: أظهرنا لهم العدو ولم نسرّها في أنفسنا. والذرع: بفتح الحاء: ولد البقرة الوحشية.

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالباها
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم
كانهم في الوغى والموت مكتنع
خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا
فان في حربهم فاترك عداوتهم
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
أهدى لهم مدحتي قلب يوازره
فإنهم أفضل الأحياء كلهم

إذا الزعانف من أظفارها خشعوا^(١)
وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع^(٢)
أسد بحلية في أرساغها فدع^(٣)
ولا يكن همك الأمر الذي منعوا^(٤)
شراً يخاض عليه السمُّ والسلع^(٥)
إذا تفاوتت الأهواء والشيع
فيما أحبَّ لسان حائك صنع^(٦)
إن جدَّ بالناس جدُّ القول أو شمعوا^(٧)

فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم^(٨). وكان عمرو بن الأهتم قد خلفه القوم في إبلهم، وكان أصغرهم سناً، فقال قيس بن عاصم، وكان ييغض عمرو بن الأهتم: يا رسول الله، إنه قد كان رجل منا في رحالنا، وهو غلام حدث - وأزرى به - فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطى القوم، وفيهم نزل من القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾^(٩). وذلك لأنهم نادوا رسول الله بجفاء: يا محمد... يا محمد... اخرج إلينا.

٢ - وفد بني عامر:

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني عامر، فيهم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس بن

- (١) نسمو: ننهض. الزعانف: أطراف الناس وأتباعهم. وخشعوا: خضعوا وتذللوا.
- (٢) الخور: جمع أخور، وهو الضعيف. والهلع: جمع هلوع، وهو الجبان الخائف.
- (٣) مكتنع: دان قريب، تقول: اكتنع منه، إذا دنا. وحلية: اسم موضع تنسب إليه الأسود والأرساغ. جمع رسخ، وهو مرتبط القيد. وفدع: اعوجاج إلى ناحية.
- (٤) عفواً: أي من غير طلب ولا مشقة.
- (٥) السلع: نبات مسموم.
- (٦) صنع، بفتح الصاد والنون: صانع ماهر يتقن ما يصنعه ويحسن عمله.
- (٧) شمعوا: هزلوا، وأصل الشمع الطرب واللهو، ومنه قولهم: جارية شموع، وإذا كانت كثيرة الطرب.
- (٨) الجوائز: العطايا، واحدها جائزة.
- (٩) سورة الحجرات، الآية ٤.

جزء بن خالد بن جعفر، وجبار بن سلمى بن مالك بن جعفر، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم، وشياطينهم. فقدم عامر بن الطفيل عدو الله على رسول الله ﷺ، وهو يريد الغدربه، وقد قال له قومه: يا عامر، إن الناس قد أسلموا فأسلم. قال: والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش؟ ثم قال لأريد: إذا قدمنا على الرجل فإني سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف واضربه به. فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيل: يا محمد، خالني^(١) قال: «لا والله حتى تؤمن بالله وحده». قال: يا محمد، خالني. وجعل يكلمه وهو ينتظر من أريد ما كان أمره به، فجعل أريد لا يحير شيئاً^(٢)، فلما رأى عامر ما يصنع أريد قال: يا محمد خالني، قال: «لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له». فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً! فلما ولى قال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل». فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأريد: ويلك يا أريد!! أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي على نفسي منك، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً! قال: لا أبا لك، لا تعجل علي، والله ما هممت بالذي أمرتني به من أمره إلا دخلت بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟

وخرجوا راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه، فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يقول: يا بني عامر، أَعُدَّة كغدة البكر في بيت امرأة من بني سلول - أي كغدة الجمل -؟! ثم خرج أصحابه حين واروه حتى قدموا أرض بني عامر شاتين، فلما قدموا أتاهاهم قومهم فقالوا: ما وراءك يا أريد؟ قال: لا شيء، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله! فخرج بعد مقاتله بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جملة صاعقة فأحرقتهما.

٣ - وافد بني بكر بن سعد:

بعث بنو سعد بن بكر إلى رسول الله ﷺ رجلاً منهم يقال له ضمام بن ثعلبة، فقدم

(١) خالني: يروى بكسر اللام مخففة، ويتشديدها مكسورة. فالأول معناه تفرد لي خالياً حتى أحذئك على انفراد، والثاني معناه اتخذني خليلاً، من المخالة، وهي الصداقة.
(٢) أي لا يرد جواباً.

أصحابه ، فأقبل حتى وقف على رسول الله في أصحابه فقال : أيكم ابن عبد المطلب؟ قال : فقال رسول الله : «أنا ابن عبد المطلب» قال : أمحمد؟ قال : «نعم» ، قال : يا ابن عبد المطلب ، إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة ، فلا تجدن في نفسك ، قال : «لا أجد في نفسي ، فسل عما بدا لك» ، قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله بعثك إلينا رسولاً؟ قال : «اللهم نعم» ، قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك الله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده لا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال : «اللهم نعم» ، قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعد الله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال : «اللهم نعم» ، قال : ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة ، الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، يشده عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وسأؤدي هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص . ثم انصرف إلى بعيه راجعاً ، فقال رسول الله : إن صدق ذو العقيصتين - ضمام - دخل الجنة . فلما أتى قومه اجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال : بثست اللات والعزى ، قالوا : مه يا ضمام ! اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون ، قال : ويلكم ، إنهما والله لا يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولاً ، وأنزل عليه كتاباً أستفتدكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه ، قال : فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً .

٤ - وافد عبد القيس :

وقدم على رسول الله ﷺ الجارود بن عمرو بن حنش أخو عبد القيس وكان نصرانياً . فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه ورغبه فيه ، فقال : يا محمد ، إني قد كنت على دين ، وإني تارك ديني لدينك ، أفتضمن لي ديني؟ فقال رسول الله ﷺ : «نعم أنا ضامن لك أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه» . فأسلم ، وأسلم أصحابه ، ثم سأل رسول الله ﷺ الحِمْلَان ، فقال : «والله ما عندي ما أحملكم عليه» . قال : يا رسول الله ، فإن بيننا وبين بلادنا ضوال من الناس^(١) أفتبليغ عليها إلى بلادنا؟ قال : «لا ، إياك

(١) يعني الإبل الضالة .

وإياها فإنما تلك حرق النار^(١). فخرج من عنده الجارود راجعاً إلى قومه، وكان حسن الإسلام صُلباً على دينه حتى هلك. وقد أدرك الردة. فلما رجع من قومه من كان أسلم منهم إلى دينهم الأول مع الغرور بن المنذر بن النعمان بن المنذر، قام الجارود فتكلم فتشهد شهادة الحق، ودعا إلى الإسلام، فقال: أيها الناس إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله وأكفر من لم يشهد.

٥ - وفد بني حنيفة:

وقدم مكة وفد بني حنيفة، وفيهم مسيلمة بن حبيب الحنفي^(٢) - مسيلمة الكذاب - وقصد الوفد رسول الله ﷺ بعد أن خلفوا مسيلمة في رحالهم ولم يصحبوه معهم إلى رسول الله، فكلمهم رسول الله ﷺ فأسلموا، فأجازهم رسول الله ﷺ وحملهم الهدايا، فقالوا له: يا رسول الله إننا قد خلفنا في رحالنا رجالاً منا ليحفظها لنا في غيبتنا فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم، وقال: «أما إنه ليس بشركم مكاناً» أي لحفظه ضيعة أصحابه، ذلك الذي يريد رسول الله ﷺ. قال: ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وجاؤوه بما أعطاه، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتد عدو الله، وتبأ، وتكذب لهم، وقال: إني أشركت في الأمر معه. وقال لوفده الذين كانوا معه: ألم يقل لكم حين ذكروني له: «أما إنه ليس بشركم مكاناً»! ما ذاك إلا لما كان يعلم أنني قد أشركت في الأمر معه. ثم جعل يسجع لهم الأساجيع، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: «لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق^(٣) وحشاء». وأحل لهم الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ بأنه نبي، فاجتمع عليه بنو حنيفة وتابعوه، فكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً قال فيه: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإني قد أشركت في الأمر معك. وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون». وأرسله مع رسولين، فلما قرئ الكتاب على رسول الله ﷺ قال للرسولين: «فما تقولان أنتما؟» قالوا: نقول كما قال، فقال: «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما». ثم كتب إلى مسيلمة: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

(١) أي لهب النار: أي تؤدي إلى ذلك.

(٢) قال ابن هشام: «مسيلمة بن ثمامة، ويكنى أبا ثمامة».

(٣) الصفاق: ما رقى من البطن.

وقدم على رسول الله وفد طيء، فيهم زيد الخيل، وهو سيدهم، فلما انتهوا إليه كلموه، وعرض عليهم رسول الله الإسلام فأسلموا، فحسن إسلامهم، وقال رسول الله: «ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا «زيد الخيل» فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه». ثم سماه رسول الله «زيد الخير» وأقطع^(١) له فيئداً وأرضين معه، وكتب له بذلك كتاباً، فخرج من عند رسول الله راجعاً إلى قومه، فقال رسول الله ﷺ: «إن ينج زيد من حمى المدينة - وذكر لها اسماً غير الحمى -». فلما انتهى من بلد نجد إلى ماء من مياهه يقال له فردة، أصابته الحمى بها، فمات. فلما مات عمدت امرأته إلى ما كان معه من كتبه التي سجل له فيها الرسول ما أقطعه إياه من الأرض فحرقتها بالنار.

وأما عدي بن حاتم فكان يقول: ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني، وذلك أنني كنت امرأ شريفاً، وكنت نصرانياً، وكنت أسير في قومي بالمرباع^(٢)، فكنت في نفسي على دين، وكنت ملكاً في قومي لما كان يصنع بي، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته. فقلت لغلام كان لي عربي وكان راعياً لإبلي: لا أبا لك. أعدد لي من إبلي أجماً ذلاً سماناً فاحتبسها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فاذني، ففعل. ثم إنه أتاني ذات غداة فقال: يا عدي، ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات، فسألت عنها، فقالوا: هذه جيوش محمد. فقلت: فقرّب إلي أجمالي. فقربها، فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، فسلكت الجوشية^(٣) وخلفت بنتاً لحاتم في الحي. فلما قدمت الشام أقمت بها، وأغار خيل لرسول الله ﷺ فأصاب ابنه حاتم^(٤) فيمن أصابت، فقدم بها على رسول الله ﷺ في سبايا من طيء. وقد بلغ رسول الله ﷺ هربي إلى الشام، فجعل بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد، كانت السبايا يحبس فيها، فمر بها رسول الله ﷺ، فقامت إليه، وكانت امرأة حسنة الرأي. فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب

(١) أي وهب له.

(٢) أي أخذ الربع من الغنائم، وكان العرب يجعلون ذلك للرئيس.

(٣) الجوشية: جبل للضباب قرب ضرية من أرض نجد.

(٤) اسمها: سفانة فيما يرجع السهيلي.

الوافد^(١)، فامن علي من الله عليك! قال: «ومن وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم. قال: «الفار من الله ورسوله؟» قالت: ثم مضى رسول الله ﷺ وتركني، حتى إذا كان من الغد مر بي، فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس، حتى إذا كان بعد الغد مر بي، وقد يشئت منه، فأشار إلي رجل من خلفه: أن قومي فكلميه. فقممت إليه، فقلت: يا رسول الله، هلك الوالد وغاب الوافد. فامن علي من الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «قد فعلت»^(٢) فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم أذنيني». فسألت عن الرجل الذي أشار إلي أن أكلمه، فقل: علي بن أبي طالب رضوان الله عليه. وأقمت حتى قدم ركب من بلي أو قضاة، وإنما أريد أن آتي أخي بالشام فجئت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ. فكساني رسول الله ﷺ، وجمّلني، وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

ويمضي عدي فيقول: وفيما أنا قاعد في أهلي إذ نظرت إلى طعينة^(٣) تصوب إلي تؤمنا فقلت: ابنة حاتم. قال: فإذا هي هي، فلما وقفت علي أخذت تلومني وتوبخني وتقول: القاطع، الظالم، احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدك وعورتك! قلت: أي أخت لا تقولي إلا خيراً، فوالله ما لي من عذر، لقد صنعت ما ذكرت. ثم نزلت، فأقامت عندي، فقلت: لها - وكانت امرأة حازمة - ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تذلل في عز اليمن وأنت أنت! قلت: والله إن هذا الرأي. فخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: «من الرجل؟» فقلت: عدي بن حاتم. فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه^(٤) إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، قلت في نفسي: والله ما هذا بملك.

ثم مضى بي رسول الله ﷺ، حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً،

(١) الوافد: الكفيل.

(٢) وفي رواية أن رسول الله قال: «خلوا عنها فإن أبها كان يحب مكارم الأخلاق».

(٣) الطعينة: المرأة في هودجها، وقد يقال لها طعينة وإن لم تكن في الهودج. وتصوب إلي وتؤمنا: تقصدنا.

(٤) عمد إليه: قصد إليه.

فقدفها إلي، فقال: «اجلس على هذه». قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: «بل أنت». فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ على الأرض.

قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال: «إيه يا عدي بن حاتم، ألم تك ركوسياً؟»^(١) قلت: بلى. قال: «أولم تكن تسير في قومك بالمرباع؟» قلت: بلى. قال: «فإن ذلك لم يكن يحل في دينك». قلت: أجل والله. وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل.

ثم قال: «لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكنَّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة حتى تخرج من القادسية على بغيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف. ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم». قال: فأسلمت.

وكان عدي يقول: قد مضت اثنتان، وبقيت الثالثة، والله لتكونن؛ قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بغيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت. وأيم الله لتكونن الثالثة: ليفيضنَّ المال حتى لا يوجد من يأخذه. وقد حقق الله ذلك في عهد عمر بن الخطاب فمن بعده، فقد ذكر ابن قدامة في المغني إنه لما بعث معاذ بن جبل الصدقة من اليمن إلى عمر أنكر عليه ذلك عمر وقال: لم أبعثك جابياً ولا أخذاً جزيةً، ولكن بعثتك لتأخذ من أغنياء الناس فتد في فقرائهم، فقال معاذ: إني لم أبعث إليك بشيء وأنا أجد أحداً يأخذه مني، فلما كان العام الثاني بعث إليه بشرط الصدقة، فتراجعا بمثل ذلك، فلما كان العام الثالث بعث إليه بها كلها، فراجع عمر بمثل ما راجعه، فقال معاذ: ما وجدت أحداً يأخذ مني شيئاً^(٢) وقد ذكر المؤرخون أن الرجل كان يخرج بركة ماله في عهد عمر بن عبد العزيز فلا يجد من يأخذها منه.

٧ - قدوم فروة بن مسيك المرادي:

وقدم فروة بن مسيك المرادي على رسول الله ﷺ، مفارقاً لملوك كنده، ومباعداً لهم، إلى رسول الله ﷺ وقد كان قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقعة أصابت فيها همدان من

(١) الركوسية: قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين.

(٢) انظر كتابنا «موسوعة فقه عمر بن الخطاب» حرف الزاي، مادة «زكاة» الفقرة رقم / ٧.

مراد ما أرادوا، حتى أئخنوهم^(١). في يوم كان يقال له الردم. فلما انتهى فروة إلى رسول الله ﷺ قال له رسول الله ﷺ فيما بلغني: «يا فروة، هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم؟» قال: يا رسول الله، من ذا الذي يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم لا يسوءه ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ له: «أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً». واستعمله النبي ﷺ على مراد وزيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ.

٨ - قدوم عمرو بن معد يكرب في أناس من زبيد:

وقدم على رسول الله ﷺ عمرو بن معد يكرب في أناس من بني زبيد، فأسلم، وكان عمرو قد قال لقيس بن مكشوح المرادي - حين انتهى إليهم أمر رسول الله ﷺ -: يا قيس، إنك سيد قومك، وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له محمد، قد خرج بالحجاز يقول: إنه نبي، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبياً كما يقول فإنه لن يخفى عليك، وإذا لقيناه اتبعناه، وإن كان غير ذلك علمنا علمه، فأبى عليه قيس ذلك، وسقاه رأيه، فركب عمرو بن معد يكرب حتى قدم رسول الله ﷺ، فأسلم وصدقه، وآمن به، فلما بلغ ذلك قيس بن مكشوح هدد عمرواً واشتد عليه، وقال: خالفني وترك رأيي. فأقام عمرو بن معد يكرب في قومه من بني زبيد، وعليهم فروة بن مسيك، فلما توفي رسول الله ﷺ ارتد عمرو بن معد يكرب، ثم أسلم وحسن إسلامه، وشهد كثيراً من الفتوحات أيام أبي بكر وعمر، واستشهد في القادسية رضي الله عنه.

٩ - وفد كندة:

وقدم على رسول الله ﷺ الأشعث بن قيس في وفد كندة. في ثمانين راكباً من كندة، فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده وقد رجلوا جملهم. وتكحلوا، وعليهم جبب الحبرة، قد كففوها بالحرير، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال: «ألم تسلموا؟» قالوا: بلى، قال: «فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟» قال: فشقوه منها، فألقوه. ثم قال له الأشعث بن قيس: يا رسول الله، نحن بنو آكل المرار، وأنت ابن آكل المرار^(٢). قال: فتبسم رسول الله ﷺ،

(١) أئخنوهم: أكثروا فيهم القتل.

(٢) آكل المرار: هو الحارث بن عمرو بن حجير بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن =

وقال: «نأسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث - وكان العباس وربيعة رجلين تاجرين، وكانا إذا أبعدا في تجارتها في بعض العرب فسئلا مما هما قالا: نحن بنو آكل المرار! يتعززان بذلك، وذلك أن كندة كانوا ملوكاً - ثم قال لهم: لا، بل نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفوا أمنا^(١) ولا نتفي من أبينا، فقال الأشعث بن قيس: هل فرغتم يا معشر كندة؟ والله لا أسمع رجلاً يقولها إلا ضربته ثمانين.

١٠ - وفد الأزد:

وقدم على رسول الله ﷺ وسلم صرد بن عبد الله الأزدي، فأسلم وحسن إسلامه، في وفد من الأزد، فأمره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن. فخرج صرد بن عبد الله يسير بأمر رسول الله ﷺ حتى نزل بجُرَش، وهي يومئذ مدينة مغلقة وبها قبائل من قبائل اليمن، وقد لجأت إليهم خثعم فدخلوها معهم حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم، فحاصروهم فيها صرد قريباً من شهر، وامتنعوا فيها منه، ثم إنه رجع عنهم قافلاً، حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له شُكر ظن أهل جُرَش أنه إنما ولى عنهم منهزماً، فخرجوا في طلبه، حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً شديداً.

وقد كان أهل جُرَش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول الله ﷺ عشية بعد صلاة العصر إذ قال رسول الله ﷺ: «بأي بلاد الله شكر؟» فقام الجرشيان فقالا: يا رسول الله، ببلادنا جبل يقال له كُشْر - وكذلك يسميه أهل جرَش - فقال: «إنه ليس بكُشْر ولكنه شكر». قالا: فما شأنه يا رسول الله؟ قال: «إن من الله لتنحر عنده الآن». فجلس الرجلان إلى أبي بكر، أو إلى عثمان، فقال لهما: ويحكما!! إن رسول الله ﷺ الآن لينعي لكما قومكما، فقوموا إلى رسول الله ﷺ فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما، فقاما إليه فسألاه ذلك، فقال: «اللهم ارفع عنهم»، فخرجا من عند رسول الله ﷺ راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما قد أصيبوا يوم أصابهم صُرد بن عبد الله، في اليوم الذي قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر. وخرج وفد

ثور بن مرَقع بن معاوية بن كندي، وإنما قالوا لرسول الله وأنت ابن آكل المرار: لأن إحدى جداته من ذلك النسب.

(١) لا نقفوا أمنا: لا نتبعها في نسبها، لأن نسب الرجل إلى أبيه لا إلى أمه.

جرش حتى قدموا على رسول الله ﷺ، فأسلموا، وحمى لهم حمى حول قريتهم على أعلام معلومة للفرس، والراحلة وللمثيرة - بقرة الحرث - فمن رعاه من الناس فماله سحت.

١١ - قدوم رسول ملوك حمير بكتابهم:

وقدم على رسول الله ﷺ بعد مقدمه من تبوك كتاب ملوك حمير، ورسلمهم إليه بإسلامهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قيل^(١) ذي رعين ومعاfer وهمدان، وبعث إليه زرعة ذو وزن، مالك بن مرة الرهاوي بإسلامهم، ومفارقتهم الشرك وأهله، فكتب إليهم رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله النبي، إلى الحارث بن عبد كلال، وإلى نعيم بن عبد كلال، وإلى النعمان قيل ذي رعين ومعاfer وهمدان. أما بعد ذلكم فأني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا في أرض الروم فلقينا بالمدينة، فبلغ ما أرسلتم به. وخبرنا ما قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وإن الله قد هداكم بهداه أن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبي ﷺ وصفه^(٢) وما كتب على المؤمنين من الصدقة، من العقار^(٣) عشر ما سقت العين وسقت السماء، وعلى ما سقى الغرب^(٤) نصف العشر. وإن في الإبل الأربعين ابنة لبون، وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر، وفي كل خمس من الإبل شاة، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعة^(٥)، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة. وإنها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد خيراً فهو خير له، ومن أدى ذلك أشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين^(٦) على المشركين فإنه من المؤمنين: له ما لهم، وعليه ما عليهم، وله ذمة الله وذمة رسوله. وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنه من المؤمنين: له ما لهم، وعليه ما عليهم. ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها، وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أنثى، حر أو عبد، دينار واف من قيمة

(١) القيل، يقال: هو الملك، ويقال: بل هو الذي دون الملك الأعلى، وهذا هو الأكثر.

(٢) الصفي: ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة قبل أن تقسم الغنائم.

(٣) العقار: ههنا الأرض، وهو بفتح العين.

(٤) الغرب، بفتح وسكون: هي الدلو العظيمة.

(٥) التبيع: ما استكمل سنة من ولد البقر، فإذا استكمل سنتين فهو جذع.

(٦) ظاهر المؤمنين: عاونهم وقواهم وكان معهم على من سواهم.

المعافر^(١) أو عَوْضَه، ثياباً، فمن أدى ذلك إلى رسول الله ﷺ فإن له ذمة الله وذمة رسوله، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله.

أما بعد: فإن رسول الله محمدًا النبي أرسل إلى زُرعة ذي يزن: أن إذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيرًا: معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عباد، وعقبة بن نمر، ومالك بن مرة، وأصحابهم، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم^(٢)، وأبلغوها رسلي، وأن أميرهم معاذ بن جبل، فلا ينقلبنَّ إلا راضياً. أما بعد، فإن محمدًا يشهد أن لا إله إلا الله، وأنه عبده ورسوله. ثم إن مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أنك أسلمت من أول حمير، وقتلت المشركين، فأبشر بخير، وأمرك بحمير خيراً، ولا تخونوا ولا تخاذلوا، فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تحل لمحمد، ولا لأهل بيته، إنما هي زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل، وإن مالكا قد بَلَغَ الخبر وحفظ الغيب وأمركم به خيراً. وإني قد أرسلت إليكم من صالح أهلي وأولي دينهم وأولي علمهم، وأمركم بهم خيراً، فإنهم منظور إليهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته». ووفدت على رسول الله وفود أخرى نظوي ذكرها تجنباً للإطالة.

(١) المعافر: ثياب من ثياب اليمن.

(٢) مفردها مخلاف وهو الكورة أو الرستاق أو الطسوج.

الفصل الثالث

توجيه الأمراء والمعلمين إلى أنحاء الجزيرة العربية

بعد أن قدمت وفود القبائل إلى مقر الدولة الإسلامية معلنة إسلامها أصبح على رسول الله ﷺ مهمتان على غاية من الأهمية :

المهمة الأولى : تنظيم الإدارة في تلك المناطق التي أعلنت ولاءها للدولة الإسلامية وإيمانها بالدين الجديد .

المهمة الثانية : تثقيف أولئك الناس الذين دخلوا في الإسلام من جديد ، لأن العلم والوعي هما السند الأول الذي يشد عضد الدولة الإسلامية ، ولذلك كان لا بد من نشر الوعي الديني بين صفوف القواعد الشعبية في الدولة الإسلامية حتى لا يبقى مسلم فيها إلا وهو يعرف أهداف الإسلام ، وطرق النفوذ إلى هذه الأهداف ، وهو ما أقيمت الدولة الإسلامية من أجله .

أما تنظيم الإدارة فإنه أمر لا بد منه في كل دولة ، لأنه ما ساءت الإدارة في دولة من الدول إلا انتشر الظلم ، وما انتشر الظلم في أمة إلا شحنت النفوس حقداً على الحاكم ، وعمل الناس في الخفاء أو في الظاهر على إزالته . ولذلك اتسمت هذه السنة العاشرة بإرسال الكثير من الأمراء والمعلمين إلى أطراف الدولة الإسلامية . وكان من هؤلاء الذين أرسلهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

١ - معاذ بن جبل ، أرسله إلى اليمن ليسوس أهلها ويعلمهم الإسلام ، وزوده بوصية تعتبر درة لكل داعية ولكل أمير ، حيث قال له رسول الله ﷺ : « يا معاذ يسر ولا تعسر ، وبشر ولا تنفر ، وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة ؟ فقل : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

٢ - وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر ، أو جمادى الأولى ،

سنة عشر، إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم، ثلاثاً، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم.

فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام، ويقولون: أيها الناس أسلموا تسلموا. فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وبذلك كان أمره رسول الله ﷺ إن هم أسلموا، ولم يقاتلوا. ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد النبي رسول الله ﷺ. من خالد بن الوليد، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك، فإنك بعثتني إلى بني الحارث، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا أقمت فيهم وقبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم، وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ، وبعثت فيهم ركباناً قالوا: «يا بني الحارث، أسلموا تسلموا» فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم أمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم بما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي ﷺ حتى يكتب إلي رسول الله ﷺ. والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته».

فكتب إليه رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبي رسول الله، إلى خالد بن الوليد. سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن كتابك جاءني مع رسولك تخبر أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشرهم وأندرهم. وأقبل ولقبيل معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته». فأقبل خالد إلى رسول الله ﷺ وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب: منهم قيس بن الحصين ذي الغصّة، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المحجل، وعبد الله بن قراد الزيادي، وشداد بن عبد الله القناني، وعمرو بن عبد الله الضبابي، فلما قدموا على رسول الله ﷺ فرأهم قال: «من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟» قيل: يا رسول الله، هؤلاء رجال بني الحارث بن كعب، فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سلموا عليه، وقالوا: نشهد أنك رسول الله، وأنه لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: «أنتم الذين إذا زجروا استقدموا؟» فسكتوا، فلم يراجعهم منهم أحد، ثم أعادها الثانية فلم يراجعهم منهم أحد، ثم أعادها الثالثة

فلم يراجعهم أحد، ثم أعادها الرابعة، فقال يزيد بن عبد المدان: نعم يا رسول الله، نحن الذين إذا زجروا استقدموا، قالها أربع مرار، فقال رسول الله ﷺ: «لو أن خالداً لم يكتب إلي أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم». قال يزيد بن عبد المدان: أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً! قال: «فمن حمدتم؟» قالوا: حمدنا الله عز وجل الذي هدانا بك يا رسول الله. قال: «صدقتم». ثم قال رسول الله ﷺ: «بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟» قالوا: لم تكن تغلب أحداً. قال: «بلى، قد كنتم تغلبون من قاتلكم». قالوا: كنا تغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نفرق ولا نبداً أحداً بظلم. قال: «صدقتم». وأمر رسول الله ﷺ على بني الحارث بن كعب، قيس بن الحصين.

فرجع وفد بني الحارث إلى قومهم في بقية من شوال، أو في صدر ذي القعدة فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله ﷺ ورحم وبارك، ورضي وأنعم.

وقد كان رسول الله ﷺ قد بعث إليهم بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حزم ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب له كتاباً عهد إليه فيه عهده، وأمره فيه بأمره: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا بيان من الله ورسوله، ﴿يا أيُّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾^(١)، عهد من محمد النبي رسول الله لعمر بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله وأن يبشر الناس بالخير، ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن، ويفقههم فيه وينهى الناس فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم. ويلين للناس في الحق، ويشدد عليهم في الظلم، فإن الله كره الظلم ونهى عنه، فقال: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾^(٢) ويبشر الناس بالجنة ويعملها، وينذر الناس النار وعملها، ويستألف الناس حتى يفقهوا في الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته وما أمر الله به، والحج الأكبر الحج الأكبر والحج الأصغر هو العمرة. وينهى الناس أن يصلي أحد في ثوب واحد صغير إلا أن يكون ثوباً يثنى طرفيه على عاتقيه، وينهى الناس أن يحتبي^(٣) أحد

(١) سورة المائدة، الآية ١.

(٢) سورة هود، الآية ١٨.

(٣) يحتبي: أن يجمع ساقيه إلى صدره.

في ثوب واحد يفضي بفرجه إلى السماء، وينهى أن يعقص^(١) أحد شعر رأسه في قفاه، وينهى إذا كان بين الناس هيج، عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، وليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطعوا بالسيف حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين، ويمسحون برؤوسهم كما أمرهم الله. وأمر بالصلاة لوقتها، وإتمام الركوع والسجود والخشوع ويغسل بالصبح^(٢) ويهجر بالهاجرة^(٣) حين تميل الشمس، وصلاة العصر والشمس في الأرض مديرة، والمغرب حين يقبل الليل لا يؤخر حتى تبدو النجوم في السماء والعشاء أول الليل، وأمر بالسعي إلى الجمعة إذا نودي لها، والغسل عند الرواح إليها. وأمره أن يأخذ من المغنم خمس الله وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء، وعلى ما سقى الغرب نصف العشر. وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل عشرين أربع شياه وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة. فإنها فريضة الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد خيراً فهو خير له. وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم. ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها. وعلى كل حالم أو أنثى، حر أو عبد، دينار واف أو عوضه ثياباً، فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله وذمة رسوله، ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً. صلوات الله على محمد، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته.

٣- وقدم وفدهمذان على رسول الله وفيهم مالك بن نمط، وأبو ثور ومالك بن أيفع، وضمام بن مالك السلماني، وعميرة بن مالك المخارقي فلقوا رسول الله مرجعه من تبوك فقام مالك بن نمط بين يديه فقال: «يا رسول الله بقية من همدان من كل حاضر وباد، أتوك على قلص نواج، متصلة بحبائل الإسلام لا تأخذهم في الله لومة لائم من مخلاف خارف ويام شاكِر، أهل السود والقود أجابوا دعوة الرسول، وفارقوا الإلهات الأنصاب! عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع، وما جرى العفور بصلع». فكتب لهم رسول الله كتاباً فيه: «بسم الله

(١) يعقص: يضفر.

(٢) التغليس: أن يصليه في أول الفجر.

(٣) التهجير: الصلاة في أول وقت الظهر. والهاجر نصف النهار حين تزول الشمس.

الرحمن الرحيم، هذا كتاب من رسول الله محمد لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحقاف الرمل مع وافدها ذي المشاعر مالك بن نمط ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عافيا، لهم بذلك عهد الله وذمام رسوله، وشاهدتهم المهاجرون والأنصار». وأرسل معهم معلمين يعلمونهم الإسلام.

٤ - وبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء، فخرج عليه الأسود العنسي وهوبها.

٥ - وبعث زياد بن لبيد أنخا بني بياضة الأنصاري إلى حضرموت وعلى بني أسد.

٦ - وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة، وفرق بني سعد على رجلين منهم، فبعث الزبرقان بن بدر على ناحية منها، وقيس بن عاصم على ناحية.

٧ - وكان قد بعث العلاء بن الحضرمي على البحرين.

٨ - وبعث علي بن أبي طالب رضوان الله عليه إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم، ويقدم عليهم بجزياتهم. وبعث غيرهم وغيرهم.

وهكذا غطى رسول الله جميع أنحاء الجزيرة العربية بالأمراء والمعلمين.

إعلان أهداف ومبادئ الدولة الإسلامية

بعد أن دانت الجزيرة العربية لرسول الله ﷺ، كان لا بد له من أن يجمع أكبر عدد ممكن من المسلمين يأتونه من القبائل من كل فج عميق ليخطب فيهم خطبة النصر، وليعلن لهم فيها في مواد دستورية المبادئ التي شرعها الإسلام في تربية الفرد والجماعة، والتي يجب عليهم التمسك بها وتطبيقها كمسلمين ومواطنين في الدولة الإسلامية. ورأى عليه الصلاة والسلام أن أنسب مكان لهذا الاجتماع هو مكة المكرمة وأنسب زمان له هو موسم الحج. فأعلن للملأ أنه يريد الحج، ورغب إلى الناس بمرافقته، وأمرهم بالتجهز له. وسار رسول الله وسار معه ناس مد البصر، فحج رسول الله بهم حجاً ليس كالحج السابق، حجاً قد تعرى من كل شعيرة وثنية، وهناك وقف عليه الصلاة والسلام خطيباً في الجموع الهادرة يقول: «ليكن اللهم ليكن، ليكن لا شريك لك ليكن...». فخطب فيهم خطبة تاريخية، أعلن لهم فيها منهج الإسلام في إعداد الفرد المسلم، وبناء المجتمع، وقد جمع ذلك كله في خمسة مبادئ. اثنان منهما في إعداد وتربية الفرد، وثلاثة في بناء المجتمع. أما إعداد الفرد وتربيته فقد أقامه رسول الله على مبدئين أساسيين:

الأول: قطع كل صلة للفرد بالجاهلية، أوثانها، وثاراتها، ورباها، وغير ذلك، لأن الحياة الجديدة التي يحيها المسلم بعد إسلامه حياة لا صلة لها برجس الماضي وأدراجه.

الثاني: الابتعاد عن الخطايا، لأن الخطايا تفعل بالفرد ما لا يفعله العدو بعدوه، فهي سبب مصائبه في الدنيا ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير﴾^(١) فترديه في نار جهنم في الآخرة، وتفعل في المجتمعات ما لا يفعله السيف. وأعلن رسول الله أنه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام، لأن العقول التي تفتحت على التوحيد ترفض أن تعود إلى الشرك الظاهر، ولكن الشيطان لا ييأس من أن يجد طريقه إليها من ثغرات الخطايا فيرديها في الشرك الخفي من غير أن تشعر.

(١) سورة الشورى، الآية ٣٠.

أما بناء المجتمع فقد أقامه رسول الله ﷺ على ثلاثة مبادئ أساسية :

الأول: الأخوة الإسلامية، وهي الرابطة التي تربط المسلمين بعضهم ببعض، وهي الصلة التي عقدها الله في السماء لتكون الخيط الذي ينتظم فيه المسلمون جميعاً انتظام اللآلئ، لتشكل العقد الثمين، وبمقتضى هذه الأخوة يكون للمسلم حق الولاية على المسلم ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾^(١) ينصحه ويفك عسرته و... .

الثاني: الوقوف بجانب الضعيف حتى لا يكون هذا الضعف ثغرة في البناء الاجتماعي، فأوصى عليه الصلاة والسلام في خطبته بالمرأة والرقيق على أنهما نموذجان عن الضعفاء.

الثالث: التعاون مع الدولة الإسلامية على تطبيق أحكام الإسلام، التي تعمل على اقتلاع الشر، وزرع الخير في المجتمع، ولا يجوز أن يكون لون جلد الحاكم، أو أسرته أو قوميته حائلاً دون التعاون معه عندما يريد نشر الخير.

وجماع هذه المبادئ الخمسة هو: التمسك بالكتاب والسنة، ولذلك لم يُقْتِ رسول الله أن يدعو إلى التمسك بهما والتحاكم إليهما وحط الرحال عندهما. إن هذه الخطبة على قصرها حوت المبادئ التي يصلح بها الفرد والمجتمع، ولذلك أكد رسول الله وأشهد أنه قد بلغ. وإليك نص خطبته عليه السلام بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: «أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألکم عن أعمالکم، وقد بلغت. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل رباً موضوع^(٢)، ولكن لكم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائکم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب - وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل - فهو أول ما أبداً به من دماء الجاهلية.

أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يش من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه يُطْع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالکم، فاحذروه على دينکم. أيها الناس،

(١) سورة التوبة، الآية ٧١.

(٢) وضع عنه الدين والدم وجميع أنواع الجناية، يضعه وضعاً: أسقطه عنه.

إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية ورجب مضر^(١) الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نساءكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح^(٢) فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان^(٣) لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله. فاعقلوا أيها الناس قولي، فإنني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت؟». فردد الناس جميعاً: اللهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد».

(١) إنما أضاف رجباً إلى مضر لأنها كانت تعظمه، ولم يكن أحد من العرب يفعل ذلك سواها.

(٢) غير مبرح: أي غير شديد، تقول: برح به الأمر، إذ اشتد عليه وشق.

(٣) عوان: جمع عانية وهي الأسيرة.

الباب السابع

مرض رسول الله ﷺ ووفاته

١ - ابتداء المرض :

بينما كان الناس يتجهزون للسير مع أسامة بن زيد إلى جبهة القتال ضد الروم داهم رسول الله ﷺ المرض، وكان ذلك في أواخر شهر صفر، أو في أول شهر ربيع الأول، فكان أول ما ابتدء به من ذلك أنه ﷺ خرج إلى بقيع الغرقد^(١) في جوف الليل فاستغفر لأهلها، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح ابتدء بوجعه من يومه ذلك. ويروي لنا أبو مؤيبهة مولى رسول الله ﷺ كيف كان ذلك فيقول: بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل، فقال: «يا أبا مؤيبهة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي». فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى». ثم أقبل عليّ فقال: «يا أبا مؤيبهة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة». فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: «لا والله يا أبا مؤيبهة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة». ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه.

٢ - تمريضه في بيت عائشة :

رجع رسول الله من البقيع فوجد عائشة تصيح من وجع رأسها وتقول: وارأساه، وارأساه، فقال لها رسول الله: «بل أنا والله يا عائشة وارأساه»، ولكن ذلك لم يمنع رسول الله من أن يوفي كل زوجة من زوجاته حقها في المبيت عندها فكان عليه الصلاة والسلام في مرضه ينتقل بين بيوت نسائه على ما يقتضيه العدل بينهما حتى أثقله المرض وصعب عليه الانتقال وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة فأذن له. لأنه عليه الصلاة والسلام ما كان ليظلم إحدى نسائه حقها في المبيت حتى ولو كان في ذلك من العسر عليه ما فيه، إلا إذا تركت إحداهن حقها عن طيب خاطر، وفي ذلك ما فيه من المعنى الكبير الذي يلتزم به رسول الله ﷺ في أداء الحقوق. فخرج رسول الله ﷺ يمشي بين رجلين من أهله: أحدهما الفضل بن عباس والثاني علي بن أبي طالب، عاصباً رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة. ثم غمر رسول الله ﷺ واشتد به وجعه، فقال: «هريقوا عليّ

(١) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة، وهي داخل المدينة.

سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم» فأُقيِدَ في حوض لحفصة بنت عمر، ثم صب عليه الماء، حتى طفق يقول: «حسبكم حسبكم».

٣ - آخر وصاياہ السياسية :

ثم خرج عليه الصلاة والسلام إلى الناس عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم فأكثر الصلاة عليهم، ثم قال: «إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله». قال: ففهمها أبو بكر، وعرف أن نفسه يريد، فبكى، وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا! فقال: «على رسلك يا أبا بكر»، ثم قال: «هذه الأبواب اللافظة في المسجد فسدوها إلا بيت أبي بكر فإني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه . . . وإني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده». وصلى رسول الله بالناس، فاستغفر لأصحاب أحد وذكر من أمرهم ومآثرهم ما ذكر، ثم قال: «يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً، فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عييتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم». وكانت هذه إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى أن رئاسة الدولة هي من المهاجرين لا من الأنصار. ثم دخل رسول الله بيته، فاشتد به مرضه ولم يتكلم بشيء من أمر السياسة إلا قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يترك بجزيرة العرب دينان».

فكانت هذه هي آخر وصاياہ السياسية عليه الصلاة والسلام.

٤ - أمره بتسيير جيش أسامة :

كان جيش أسامة الذي جهزه رسول الله لقتال الروم - الذي تحدثنا عنه سابقاً - قد تم إعداده، ولكن القلق بدا واضحاً على وجوه كبار الصحابة، إذ كيف يخرجون ورسول الله في فراش المرض، ورأى جمهورهم التريث في الخروج، ولكن بعض مرضى القلوب اتخذوا ذلك ذريعة للطعن في إمارة أسامة وللتأخر في تجهيز أنفسهم للقتال شكاً في كفاءة أسامة، وأخذوا يشيعون هذه الشكوك بين الصفوف. وبلغ رسول الله ما يرجف به المرجفون، فخرج إليهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلت في إمارته لقد قلت في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقاً لها». فأسرع الناس في تجهيز أنفسهم للقتال عندما سمعوا ما سمعوه من رسول الله، واشتد

برسول الله ﷺ وجعه، فخرج أسامة، وخرج جيشه معه، حتى نزلوا الجرف - وهو مكان لا يبعد أكثر من فرسخين عن المدينة المنورة - فضرب به عسكره، فالتحق المتأخرون، إلى هناك، وثقل رسول الله ﷺ، فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاض في رسول الله ﷺ. ولما أثقل المرض رسول الله، رجع أسامة إلى المدينة المنورة، ورجع معه الناس، فدخل أسامة على رسول الله وقد أصمت الرسول حتى إنه لا يقوى على الكلام، فجعل عليه الصلاة والسلام يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة يدعو له.

٥ - أمره أن يصلي أبو بكر بالناس :

حان وقت الصلاة ورسول الله في فراشه لا يقوى على النهوض ليؤم الناس في صلاتهم، فتقدم منه بلال رضي الله عنه وقال: يا رسول الله الصلاة، فقال: «مروا من يصلي بالناس» فخرج بلال فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً، فقال بلال: قم يا عمر فصل بالناس. فقام، فلما كبر سمع رسول الله ﷺ صوته - وكان عمر رجلاً جهور الصوت فقال رسول الله ﷺ: «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون!». فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس.

وفي قول رسول الله: «يأبى الله ذلك والمسلمون» إشارة إلى أن الذي يلي أمر المسلمين وتجتمع عليه كلمتهم هو: أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وجعل أبو بكر يؤم الناس في صلواتهم منذ ذلك الحين. ولما كان يوم الإثنين الذي قبض الله فيه رسوله صلوات الله وسلامه عليه، صحا رسول الله من مرضه، فأحب أن يلتقي بأصحابه الذين فدوه بأرواحهم، فخرج إليهم وهم يصلون الصبح، فرفع الستر وفتح الباب، فقام على باب غرفة عائشة وأبو بكر يصلي بالناس، فاشتد فرح المسلمين وكادوا أن يقطعوا صلاتهم، ولكن رسول الله أشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم، وتبسم صلوات الله وسلامه عليه سروراً لما رأى من هيتهم في صلاتهم يقول أنس بن مالك: وما رأيت رسول الله أحسن هيئة من تلك الساعة. ورجع أبو بكر عن مصلاه ليفسح المكان لرسول الله كي يتقدم فيصلي بالناس فدفع رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق في ظهره. وقال: «صل بالناس». وجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه، فصلى قاعداً عن يمين أبي بكر، فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلّمهم رافعاً صوته، حتى خرج صوته من باب المسجد يقول: «أيها الناس، سمرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم! وإني والله ما تمسكون عليّ بشيء، إني لم أحل إلا ما أحل القرآن ولم أحرم إلا ما حرم القرآن». ثم دخل رسول الله حجرته ودخل معه علي بن أبي طالب فلم

يمكث إلا برهة يسيرة حتى خرج فاستقبله الناس الواقفون على باب رسول الله وقالوا: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً، فانصرف الناس بعد أن اطمأنوا على رسول الله وهم يرون أن رسول الله قد أبلّ من مرضه.

٦ - عدم النص على الخليفة من بعده:

وأخذ العباس بيد عليّ، ثم قال: يا علي، أنت والله عبد العصا بعد ثلاث، أحلف بالله لقد عرفت الموت في وجه رسول الله ﷺ كما كنت أعرفه في وجوه بني عبد المطلب، فانطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه، وإن كان في غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس. فقال له علي: إني والله لا أفعل، والله لئن منعناه لا يؤتينا أحد بعده! وقول عليّ هذا ليدل على أن رسول الله لم يعهد بالخلافة لأحد من بعده.

٧ - وفاة رسول الله:

تقص علينا السيدة عائشة رضي الله عنها حادثة وفاة رسول الله فتقول: رجع إليّ رسول الله ﷺ في ذلك اليوم حين دخل من المسجد فاضطجع في حجرتي، فدخل علي رجل من آل أبي بكر وفي يده سواك أخضر، فنظر رسول الله ﷺ إليه في يده نظراً عرفت أنه يريد، فقلت: يا رسول الله، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال: «نعم». فأخذته فمضغته حتى لينته، ثم أعطيته إياه، فاستن به^(١) كأشد ما أريته يستن بسواك قط، ثم وضعه. ووجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجرتي، فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى من الجنة». فقلت: خُيرت فاخترت والذي بعثك بالحق. ثم قبض رسول الله ﷺ حين اشتد الضحاء من يوم الإثنين في الثاني عشر من ربيع الآخر سنة إحدى عشرة للهجرة. وأغلق عليه أهله الباب حتى يبيت المسلمون في أمر الخلافة، ويعينوا من يخلفه في سياسة أمر المسلمين وقيادتهم.

اشتد الحزن بصحابة رسول الله لما بلغهم نبأ وفاته عليه الصلاة والسلام حتى فقد بعضهم الصواب، فعمر بن الخطاب لما بلغه نبأ الوفاة قام فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما

(١) أي استاك به.

ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات .
ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن
رسول الله ﷺ مات .

قال : وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد - حين بلغه الخبر - وعمر يكلم
الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة، ورسول الله
مُسَجَّى^(١) في ناحية بيت، عليه برد حبرة^(٢)، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ، ثم
أقبل عليه فقبَّله، ثم قال : بأبي أنت وأمي، أما المودة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن
تصيبك بعدها مودة أبداً، ثم ردَّ البرد على وجه رسول الله ﷺ، ثم خرج وعمر يكلم الناس،
فقال : على رسلك يا عمر أنصت، فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على
الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال :
«أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا
يموت . ثم تلا هذه الآية : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفلا ينمات أو قتل
انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾^(٣) .
قال : فوالله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، وأخذها
الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم . فقال أبو هريرة : قال عمر : فوالله ما هو إلا أن
سمعت أبا بكر تلاها فعُقرت^(٤) حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن
رسول الله ﷺ قد مات .

٨ - تولية خليفة رسول الله :

لما قبض رسول الله ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة وهم يطمحون أن يولوا
الخلافة زعيمهم سعد بن عباد، واعتزل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن
عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أسيد بن حضير
في بني عبد الأشهل، فأتى آت إلى أبي بكر وعمر فقال : إن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة

(١) مسجى : مغطى .

(٢) هو ضرب من ثياب اليمن .

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٤٤ .

(٤) عُقرت، بالبناء للمجهول : دهشت وتحيرت .

بني ساعدة وقد أجمعوا أمرهم على تولية الخلافة سعد بن عباد، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفارق أمرهم. فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار حتى تنظر ما هم عليه. ودخل عليهم أبو بكر وعمر في جماعة من المهاجرين، فلما جلسوا قام خطيب الأنصار فاثنى على الله بما هو له أهل، ثم قال: «أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة - قدمت جماعة - من قومكم وإذا هم يريدون أن يحتازون من أصلنا، ويغصبونا الأمر». وكأنه يريد أن يقول: إن الأنصار هم أهل المدينة، وعلى أرضهم قامت دولة الإسلام، وبسواعدهم حموها، والمهاجرون وافدون ومن البديهي أن يكون رئيس الدولة من السكان الأصليين لا من الوافدين.

فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فأجابه فقال: أما ما ذكرتكم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش: هم أوسط العرب نسباً وداراً. وقد رضيتم لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم. وأخذ بيد عمر بن الخطاب. وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بينهما. فقال قائل من الأنصار: أنا جدي لها المحكك وعذيقها المرجب^(١)، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش.

فكثر اللغط وارتفعت الأصوات، حتى خيف على الناس الاختلاف، وما أنقذ الموقف ودسّ أنف الشيطان في التراب إلا ارتفاع صوت عمر بن الخطاب، وهو يقول: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسطها أبو بكر، فبايعه عمر بن الخطاب، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار رضي الله عنهم جميعاً. وتعتبر هذه البيعة ترشيحاً رسمياً من أولي الحل والعقد في الدولة الإسلامية للخليفة الجديد، وبقي أن يتلقى هذا الخليفة البيعة المباشرة من القاعدة الشعبية في الدولة الإسلامية. ولذلك فإنه لما كان الغد صعد أبو بكر الصديق رضي الله عنه المنبر فجلس عليه، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أيها الناس، إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت، وما وجدت في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهده إلي رسول الله ﷺ ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبّر أمرنا - يقول: يكون آخرنا - وإن الله قد أبقي فيكم كتابه الذي به هُدى الله ورسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له. وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه».

(١) يعني: أنا صاحب الرأي الصائب.

إعلان المبادئ السياسية :

فبايع الناس أبا بكر البيعة العامة على الخلافة بعد بيعة أهل الحل والعقد في السقيفة ،
ثم قام أبو بكر فأعلن الأركان الخمسة لسياسته المستقبلية وهذه الأركان هي :

١ - الالتزام بشريعة الله وتحقيق سيادتها .

٢ - تكوين المعارضة البناءة .

٣ - الوقوف بجانب الضعيف حتى يقوى .

٤ - مواصلة الجهاد في سبيل الله .

٥ - محاربة الرذيلة .

وكان ذلك في خطبة قال فيها : «أما بعد أيها الناس فإني قد وُلِّيتُ عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى أريح^(١) عليه حقه إن شاء الله . والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحكم الله» .

٩ - جهاز رسول الله ﷺ ودفنه :

فلما بويع أبو بكر رضي الله عنه أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء . فغسل رسول الله في ثيابه دون تجريده منها ، وقد تولى تغسيله علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس وقثم بن العباس وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ . واشتد الشوق لرسول الله ببعض أصحابه ، فتقدم أحدهم وهو أوس بن خُوَلَّى أحد بني عوف من الخزرج فقال لعلي بن أبي طالب : أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله ﷺ - وكان أوس من أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بدر - فقال : ادخل . فدخل فجلس ، وحضر غسل رسول الله ﷺ ، فأسنده علي بن أبي طالب إلى صدره ، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه معه . وكان أسامة بن زيد وشقران مولاهما اللذان يصبان الماء وعليّ

(١) أراحه : أرجعه ورده .

يغسله، وقد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه يدلكه به من ورائه، ولا يفضي بيده إلى رسول الله ﷺ، وعلي يقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حياً وميتاً!! ولم يُرَ من رسول الله ﷺ شيء مما يرى من الميت.

كفنه:

فلما فرغ من غسل رسول الله ﷺ كفن في ثلاثة أثواب: ثوبين صحاريين^(١) وبرد حبرة أدرج فيه إدراجاً. ثم اختلف الصحابة في دفن رسول الله، فمنهم من قال: ندفنه في مسجده، ومنهم من قال: ندفنه مع أصحابه، فقطع الخلاف قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض» واتفق الجميع على دفنه في بيت عائشة حيث قبض، فرفع فراش رسول الله الذي توفي عليه وحفر قبره تحته، وكان الذي تولى حفر قبره أبو طلحة، وقد حفره لحداً. أي جعل بجانب القبر من أسفل شقاً فجعل فيه رسول الله ﷺ. ولما فرغ من تجهيز رسول الله يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته الذي توفي فيه وجعل المسلمون يدخلون يصلون عليه جماعات جماعات دون أن يؤمهم في صلاتهم هذه أحد فدخل الرجال أولاً فصلوا عليه، فلما فرغوا دخل النساء حتى فرغن، ثم دخل الصبيان. ولم يفرغوا من الصلاة عليه إلى الليل فدفن عليه الصلاة والسلام من وسط الليل ليلة الأربعاء.

وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وقثم بن عباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ. وقد قال أوس بن خولي لعلي بن أبي طالب: يا علي أشدك الله وحظنا من رسول الله ﷺ! فقال له: انزل. فنزل مع القوم.

وقد كان مولاه شقران - حين وضع رسول الله ﷺ في حفرته وبنى عليه. قد أخذ قطيفة^(٢) قد كان رسول الله ﷺ يلبسها ويفترشها، فدفنها في القبر وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً. قال: فدفنت مع رسول الله ﷺ.

فصلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) صحاريين: نسبة إلى صحار، وهي بلدة من بلاد اليمن. ويقال: هي عمان.
(٢) القطيفة: كساء له خمل، أي أهداب.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الباب الأول	
تهئية الجو لإنجاح قيام الدولة الإسلامية	
بقيادة محمد رسول الله ﷺ	
الفصل الأول	
العالم قبل الإسلام (سيادة الظلم والظلمات في العالم)	١١
الفصل الثاني	
تسليم القيادة وبدء العمل لتجميع القوى لإقامة دولة الإسلام	
الفصل الأول	
تسلم محمد القيادة	٣٥
المبحث الأول	
إعداد محمد لتسلم القيادة	٣٥
١ - رعية الغنم	٣٥
٢ - توسيع آفاقه بالسفر	٣٥
٣ - الرؤيا الصادقة	٣٦
٤ - تسليم الشجر والحجر عليه	٣٦
٥ - الخلوة بنفسه	٣٦
المبحث الثاني	
تسلم محمد القيادة	٣٧
فترة الرحي	٣٩
الفصل الثاني	
تجميع القوى وإعداد القواعد الشعبية	٤٠
١ - دعوة الرسول أهل بيته	٤٠
٢ - دعوة الرسول أصدقاءه	٤١
المقربين	٤١

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الباب الأول	
تهئية الجو لإنجاح قيام الدولة الإسلامية	
بقيادة محمد رسول الله ﷺ	
الفصل الأول	
العالم قبل الإسلام (سيادة الظلم والظلمات في العالم)	١١
الفصل الثاني	
تسليم الأضواء على شخص محمد ﷺ	١٤
١ - نسبه الشريف	١٤
٢ - ابن الذبيحين	١٦
٣ - تزويج عبد الله بآمنة	١٨
٤ - الحمل برسول الله	١٨
٥ - وفاة والده	١٨
٦ - ولادة الرسول بغير آلام	١٨
٧ - بركة رضاع رسول الله في بني سعد	١٩
٨ - شق صدره وإعادته إلى أهله	٢١
٩ - وفاة أمه وكفالة جدّه ثم عمّه	٢٢
١٠ - سيما العظمة في شخصه	٢٣
١١ - سفره مع عمّه إلى الشام، وقصة بحيرا	٢٣
١٢ - اتجاره بمال خديجة ونبوة	٢٥
نسطورا	٢٥
١٣ - نبوة ورقة بنوة محمد	٢٦
١٤ - زواج رسول الله محمد بخديجة	٢٦

٣ - دعوة رسول الله الناس جميعاً ... ٤٢

الفصل الثالث

العمل على إيقاف المد الإسلامي ... ٤٤

١ - المفاوضات غير المباشرة ... ٤٤

(أ) توسيط أبي طالب لإسكات

محمد ... ٤٤

(ب) تهديد أبي طالب ... ٤٤

(ج) بذل البديل لأبي طالب ... ٤٥

٢ - التعذيب البدني ... ٤٦

٣ - الحرب النفسية ... ٤٦

٤ - المفاوضات المباشرة ... ٤٨

(أ) مفاوضة عتبة ... ٤٨

(ب) مفاوضة زعماء قريش

مجتمعين ... ٥٠

(ج) نتائج هذه المفاوضات ... ٥٢

أولاً: شن الحرب النفسية .. ٥٢

طلبهم سعة العيش بلا كد

ولا عمل ... ٥٢

طلبهم نزول الملائكة .. ٥٢

طلبهم الإهلاك ... ٥٣

تهديد ووعيد ... ٥٣

ثانياً: قرار قتل محمد ﷺ .. ٥٤

ثالثاً: طرح بديل عن القرآن .. ٥٤

رابعاً: التعذيب الجسدي .. ٥٥

نتائج التعذيب الجسدي .. ٥٧

طلب قريش تسليم

المهاجرين ... ٥٨

جهود مهاجرة الحبشة في

الدعوة للإسلام ... ٦١

خامساً: مقاطعة الرسول

ومناصريه من قومه ... ٦٢

نتائج المقاطعة ... ٦٣

سادساً: العودة إلى المفاوضات

ونائجها ... ٦٤

سابعاً: إيذاء رسول الله ... ٦٥

أذى أبي لهب وزوجته .. ٦٥

أذى أمية بن خلف ... ٦٦

أذى أبي جهل ... ٦٦

أذى الأخنس بن شريق .. ٦٧

أذى الوليد بن المغيرة .. ٦٧

أذى عقبة بن أبي معيط .. ٦٧

أذى أبي بن خلف ... ٦٨

أذى الجيران ... ٦٨

الباب الثالث

البحث عن أرض لإقامة الدولة التي تحمي

العقيدة وتقيم الشريعة

الفصل الأول

الخروج إلى الطائف ... ٧١

١ - أسباب بشرية ... ٧١

٢ - أسباب اقتصادية ... ٧٢

٣ - أسباب استراتيجية ... ٧٢

إيمان جن نصيبين ... ٧٣

العودة إلى مكة المكرمة ... ٧٤

الفصل الثاني

الإسراء والمعراج ... ٧٥

الإسراء والمعراج معجزتان ... ٧٥

أنواع المعجزات ... ٧٦

أهداف المعجزة ... ٧٦

معجزة الإسراء ... ٧٧

معجزة المعراج ... ٧٧

الأبعاد الحقيقية للإسراء والمعراج .. ٧٩

١ - الأبعاد السياسية ... ٨٠

٢ - الأبعاد الاجتماعية ... ٨١

٣ - الأبعاد الروحية	٨٢
الامتحان	٨٢
ضرورة الإسراء والمعراج	٨٣
الفصل الثالث	
هجرة إلى المدينة المنورة	٨٤
١ - متابعة البحث عن أرض	
للدولة الإسلامية	٨٤
طي مطلب النصرة	٨٥
٢ - التركيز على المدينة المنورة ..	٨٥
٣ - وهناك أسباب عسكرية منها ..	٨٦
٤ - وهناك أسباب اقتصادية منها ..	٨٧
(أ) بيعة العقبة الأولى على	
التوحيد	٨٨
إرسال مصعب بن عمير إلى	
المدينة في مهمة سرية	٨٨
(ب) بيعة العقبة الثانية على	
النصرة	٨٩
٥ - انتقال العناصر والقيادة إلى	
المدينة المنورة (الهجرة)	٩٠
أولاً: انتقال العناصر، وتكوين	
جماعات الحماية	٩١
(أ) بيعة العقبة الثالثة، ورحيل	
جماعة الحماية الأولى	٩١
(ب) رحيل جماعة الحماية	
الثانية	٩٣
ثانياً: انتقال القيادة إلى المدينة	
المنورة	٩٤
(أ) إنجاح خروج رسول الله	
من مكة	٩٤
(ب) إنجاح اجتياز الطريق إلى	
المدينة المنورة بسلام	٩٧
حيلة وحذر	٩٧

الطريق الذي سلكه	
الرسول	٩٧
مساهمة العناية الإلهية	
في إنجاح اجتياز الطريق	
بسلام	٩٩
(ج) إنجاح دخوله إلى المدينة	
المنورة	١٠٠
بناء المسجد في	
المدينة	١٠٢
٦ - فرض الهجرة إلى المدينة	
على جميع المسلمين	١٠٢
الباب الرابع	
إعلان قيام الدولة الإسلامية	
الفصل الأول	
الإعداد لإعلان قيام الدولة الإسلامية ...	١٠٧
١ - إعداد المقر الرسمي للدولة ..	١٠٧
٢ - تسوية الأوضاع الداخلية	١٠٧
(أ) معالجة أمر الأنصار	١٠٧
(ب) معالجة أمر اليهود	١٠٩
(ج) معالجة أمر المهاجرين ..	١١١
٣ - استقدام جميع الكفاءات	
المخلصة	١١٢
الفصل الثاني	
إعلان قيام الدولة الإسلامية سياسياً	١١٣
الباب الخامس	
بدء الصراع وتصفية الكيانات السياسية	
المضادة	
الفصل الأول	
تقدير الموقف واتخاذ القرار	١١٧
اتخاذ القرار	١١٨

الموضوع	الصفحة
المسلمين	١٣٥
(ن) البشارة بالنصر	١٣٦
(س) معالجة أمر الأسرى ...	١٣٦
١٠ - تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية	١٣٨
(أ) قتل عصماء بنت مروان ..	١٣٨
(ب) قتل أبي عفيك	١٣٨
المبحث الثاني	
تصفية الكيان السياسي لبني قينقاع	١٤٠
١ - سبيها	١٤٠
٢ - نزولهم على حكم رسول الله	١٤٠
٣ - موقف حلفاء بني قينقاع ...	١٤١
الفصل الثالث	
تصفية الكيان السياسي لبني النضير	١٤٣
المبحث الأول	
التمهيد لتصفية الكيان السياسي لبني النضير	١٤٥
١ - غزوة السويق	١٤٥
٢ - غزوة سليم بالكدر	١٤٥
٣ - غزوة ذي أمّر	١٤٦
٤ - تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية	١٤٦
٥ - غزوة الفرع من بُحران	١٤٧
٦ - سرية زيد بن حارثة إلى القردة من مياه نجد	١٤٧
المبحث الثاني	
النكسة في غزوة أحد	١٤٨
١ - سبيها	١٤٨
٢ - خروج قريش لها	١٤٩
٣ - خروج المسلمين	١٤٩

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني	
تصفية الكيان السياسي لبني قينقاع	١٢٣
المبحث الأول	
التمهيد للتصفية السياسية لبني قينقاع (من اليهود)	١٢٣
١ - سرية حمزة إلى شاطئ البحر ..	١٢٣
٢ - سرية عبيد بن الحارث	١٢٣
٣ - سرية سعد بن أبي وقاص ..	١٢٤
٤ - غزوة ودّان	١٢٤
٥ - غزوة بواط	١٢٤
٦ - غزوة العُشيرة	١٢٥
٧ - غزوة سفوان (بدر الأولى) ..	١٢٥
٨ - سرية عبد الله بن جحش ...	١٢٥
أحد الأسيرين يدخل في الإسلام	١٢٧
٩ - غزوة بدر الكبرى	١٢٧
(أ) سبيها	١٢٧
(ب) غايتها	١٢٧
(ج) استنفار قريش	١٢٨
(د) خروج الرسول ﷺ	١٢٨
(هـ) تعرف الرسول على مدى استعداد الناس للتضحية	١٢٩
(و) استطلاع أخبار قريش ..	١٣٠
(ز) أبو سفیان ينصح قريشاً بالرجوع بعد نجاة التجارة ...	١٣١
(ح) فرض المسلمين أرض المعركة على قريش	١٣١
(ط) استطلاعات قريش	١٣٢
(ي) اختلاف رؤساء قريش ..	١٣٣
(ك) بدء القتال	١٣٤
(ل) دفن قتلى المشركين ...	١٣٥
(م) تقسيم الغنائم بين	

الموضوع	الصفحة
تصفية الكيان السياسي لبني المصطلق .. ١٩٣	
المبحث الأول	
التمهيد لتصفية الكيان السياسي ليهود بني المصطلق .. ١٩٣	
١ - سرية محمد بن مسلمة إلى الرقطاء .. ١٩٤	
٢ - غزوة بني لحيان .. ١٩٤	
٣ - سرية كرز بن زيد إلى العرنين .. ١٩٦	
٤ - غزوة ذي قرد .. ١٩٦	
٥ - سرية عكاشة إلى الغمر ١٩٨	
٦ - سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة .. ١٩٨	
٧ - سرية أبي عبيدة إلى ذي القصة .. ١٩٩	
٨ - سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم .. ١٩٩	
٩ - سرية زيد بن حارثة إلى العيص .. ١٩٩	
١٠ - سرية زيد بن حارثة إلى الطَّرف .. ١٩٩	
١١ - سرية زيد بن حارثة إلى حِسْمَى .. ١٩٩	
١٢ - سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى .. ٢٠٠	
المبحث الثاني	
تصفية الكيان السياسي لبني المصطلق .. ٢٠١	
١ - الغزوة .. ٢٠١	
٢ - حوادث هامة .. ٢٠١	
(أ) نار الفتنة .. ٢٠١	
(ب) سبي بني المصطلق ... ٢٠٣	
(ج) الإفك .. ٢٠٤	

الموضوع	الصفحة
الفصل السادس	
تصفية الكيان السياسي لخير وبقيّة اليهود .. ٢١٠	
المبحث الأول	
التمهيد لتصفية الكيان السياسي لخير .. ٢١٠	
١ - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل .. ٢١٠	
٢ - سرية زيد بن حارثة إلى مدين .. ٢١١	
٣ - سرية علي بن أبي طالب إلى فذك .. ٢١١	
٤ - تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية .. ٢١١	
(أ) تصفية أبي رافع .. ٢١١	
(ب) تصفية اليسير بن رزام .. ٢١٢	
(ج) تصفية أبي سفيان .. ٢١٢	
٥ - صلح الحديبية .. ٢١٣	
(أ) أسبابه .. ٢١٣	
(ب) الخروج للعمرة .. ٢١٤	
(ج) تبادل الرسل بين الفريقين .. ٢١٦	
(د) بيعة الرضوان .. ٢١٧	
(هـ) مفاوضات الصلح .. ٢١٨	
(و) نص المعاهدة .. ٢١٩	
(ز) وفاء رسول الله بالعقد، ورده أبا جندل .. ٢١٩	
(ح) العودة إلى المدينة .. ٢٢٠	
(ط) النتائج السياسية لصلح الحديبية .. ٢٢٠	
المبحث الثاني	
تصفية الكيان السياسي لخير .. ٢٢٣	
١ - صعوبة قتال خير وإعداد العدة له .. ٢٢٣	

الموضوع	الصفحة
٣ - سرية إلى بني مُرّة	
بفدك	٢٣١
٤ - سرية إلى المَيْفَعَة	٢٣١
٥ - سرية إلى يُمْن وجُبَار ...	٢٣١
٦ - عمرة القضاء	٢٣٢
٧ - غزوة مؤتة	٢٣٣
(أ) سببها	٢٣٣
(ب) الجيش الإسلامي ..	٢٣٣
(ج) الصدام المسلح	٢٣٥
(د) إخبار الرسول باستشهاد	
القادة	٢٣٦
(هـ) العودة إلى المدينة	
المنورة	٢٣٦
المبحث الثاني	
تصفية الكيان السياسي للمشرّكين	٢٣٧
الرحلة الأولى في مكة	٢٣٧
١ - مقدمة	٢٣٧
٢ - أسباب فتح مكة	٢٣٧
٣ - حرص قريش على	
السلام	٢٣٩
٤ - تجهز رسول الله للقتال ..	٢٤٠
٥ - المسير نحو مكة	٢٤٢
امتصاص الحقد	٢٤٥
أبو سفيان يحذر قريشاً من	
الحرب	٢٤٦
٦ - دخول مكة	٢٤٧
٧ - إزالة آثار الشرك	٢٤٧
٨ - العفو العام	٢٤٨
٩ - تصفية المحرضين على	
الدولة الإسلامية	٢٤٨
١٠ - بر ووفاء	٢٤٩
١١ - إعلان سيادة الدولة الإسلامية	

الموضوع	الصفحة
٢ - المسير إلى خيبر	٢٢٣
٣ - مكان نزول جيش المسلمين ..	٢٢٣
٤ - القتال	٢٢٤
٥ - الصلح	٢٢٤
٦ - التأمّر على حياة الرسول بعد	
الصلح	٢٢٥
المبحث الثالث	
تصفية بقية الكيانات السياسية لليهود ...	٢٢٥
١ - فدك	٢٢٥
٢ - وادي القرى	٢٢٦
٣ - تيماء	٢٢٦
- إلقاء النوم على المسلمين ودلالته	
السياسية	٢٢٦
الفصل السابع	
تصفية الكيان السياسي للمشرّكين	٢٢٨
المبحث الأول	
التمهيد لتصفية الكيان السياسي	
للمشرّكين	٢٢٨
البند الأول: العمل على زيادة قوة	
المسلمين البشرية	٢٢٩
١ - استقدام المسلمين المهاجرين	
إلى الحبشة	٢٢٩
٢ - التوسع في النشاط	
الدبلوماسي لكسب مؤيدين	
للدولة الإسلامية	٢٢٩
البند الثاني: رفع الكفاءة التقنية في	
صناعة الأسلحة	٢٣٠
البند الثالث: القيام بالعديد من	
الأعمال العسكرية	٢٣٠
١ - سرية إلى تربة	٢٣١
٢ - سرية إلى بني كلب	
بنجد	٢٣١

الموضوع	الصفحة
على مكة	٢٥٠
الجملة الثانية في حنين	٢٥١
١ - أسبابها والاستعداد لها ..	٢٥١
٢ - استعداد الرسول للمعركة ..	٢٥٢
٣ - القتال بين الفريقين	٢٥٣
٤ - آثار المعركة	٢٥٥
(أ) سرية أبي عامر	
الأشعري إلى أوطاس ...	٢٥٥
(ب) البت بالأسرى	٢٥٥
(ج) المكافات	٢٥٥
الجملة الثالثة في الطائف	٢٥٥
١ - أسبابها	٢٥٥
٢ - حصار الطائف	٢٥٦
٣ - فك الحصار عن	
الطائف	٢٥٦
الجملة الرابعة في الجِعرانة	٢٥٧
١ - فك الحصار	٢٥٧
٢ - إطلاق السبي	٢٥٧
٣ - إرضاء قائد جيش حنين	
وإسلامه	٢٥٨
٤ - المطالبة بتقسيم الغنائم ..	٢٥٨
٥ - إعطاء المؤلفة قلوبهم ...	٢٥٩
٦ - اعتراض الأنصار على	
التوزيع	٢٦٠
٧ - السياسة الحكيمة في هذا	
التوزيع	٢٦١
العودة إلى مكة المكرمة	٢٦٣
الجملة الخامسة تصفية جيوب	
المعارضة في الجزيرة العربية ...	٢٦٤
١ - سرية إلى بني تميم	٢٦٤
٢ - سرية إلى خثعم	٢٦٤
٣ - سرية إلى طيء	٢٦٤

الموضوع	الصفحة
٤ - سرية إلى جدة	٢٦٥
٥ - سرية إلى جباب ويلي ...	٢٦٥
الفصل الثامن	
فتح جبهة القتال مع الروم	٢٦٦
المبحث الأول	
غزوة تبوك	٢٦٦
١ - أسباب غزوة تبوك	٢٦٦
٢ - تجهيز الجيش الإسلامي ...	٢٦٧
٣ - المسير إلى تبوك	٢٦٩
المبحث الثاني	
بسط سلطان الدولة الإسلامية على نصارى	
الشمال المواليين للرومان	٢٧١
المبحث الثالث	
العودة لقتال الروم «بعث أسامة	
ابن زيد»	٢٧٢
الفصل التاسع: إسلام أهل الطائف	
«ثقيف»	٢٧٤
١ - سببه	٢٧٤
٢ - لا مساومة في أمر العقيدة ..	٢٧٥
٣ - رجوع الوفد وهدم اللات ...	٢٧٦
٤ - قضاء بعض الديون من مال	
اللات	٢٧٦
الباب السادس	
إعلان سيادة الدولة الإسلامية	
على جميع الجزيرة العربية وانضواء الناس	
تحت هذه السيادة	
الفصل الأول	
إعلان سيادة الدولة الإسلامية على جميع	
الجزيرة العربية	٢٨١
تكليف علي بإعلان النظام العام ...	٢٨٢

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني		الفصل الرابع	
انضواء الناس تحت سيادة الدولة الإسلامية	٢٨٤	إعلان أهداف ومبادئ الدولة الإسلامية	٣٠٣
١ - وفد بني تميم	٢٨٤		
٢ - وفد بني عامر	٢٨٧	الباب السابع	
٣ - وفد بني بكر بن سعد	٢٨٨	مرض رسول الله ﷺ ووفاته	
٤ - وفد عبد القيس	٢٨٩	١ - ابتداء المرض	٣٠٩
٥ - وفد بني حنيفة	٢٩٠	٢ - تمرضه في بيت عائشة	٣٠٩
٦ - وفد طيء	٢٩١	٣ - آخر وصاياه السياسية	٣١٠
٧ - قدوم فروة بن مسيك		٤ - أمره بتسيير جيش أسامة	٣١٠
المرادي	٢٩٣	٥ - أمره أن يصلي أبو بكر بالناس	٣١١
٨ - قدوم عمرو بن معد يكرب		٦ - عدم النص على الخليفة من بعده	٣١٢
في أناس من زبيد	٢٩٤	٧ - وفاة رسول الله	٣١٢
٩ - وفد كندة	٢٩٤	٨ - تولية خليفة رسول الله	٣١٣
١٠ - وفد الأزد	٢٩٥	إعلان المبادئ السياسية	٣١٥
١١ - قدوم رسول ملوك حمير		٩ - جهاز رسول الله ودفنه	٣١٥
بكتابهم	٢٩٦	كفنه	٣١٦
الفصل الثالث		فهرس الموضوعات	٣١٧
توجيه الأمراء والمعلمين إلى أنحاء الجزيرة العربية	٢٩٨		

فهرس خرائط

التحركات السياسية والعسكرية للرسول ﷺ

الموضوع	الصفحة
شجرة العائلة العربية	١٥
طريق هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة	٩٨
مواقع القبائل العربية في عهد رسول الله ﷺ	١١٦
الغزوات والسرايا منذ وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة وحتى غزوة بني قينقاع	١٢٢
مخطط غزوة بدر	١٣٩
التحركات العسكرية لرسول الله ﷺ بين إجلاء بني قينقاع وإجلاء بني النضير	١٤٤
مخطط غزوة أحد	١٤٨
التحرك العسكري لرسول الله ﷺ بين إجلاء بني النضير وغزوة بني قريظة	١٧١
غزوة الأحزاب	١٧٧
اليهود المحيطون بالمدينة	١٨٤
التحركات العسكرية الإسلامية بين غزوة بني قريظة وغزوة بني المصطلق	١٩٥
التحركات العسكرية الإسلامية بين فتح خيبر وفتح مكة	٢٢٢
دخول الجيش الإسلامي مكة المكرمة	٢٤٣
التحركات العسكرية الإسلامية بين فتح مكة إلى ما بعد غزوة تبوك	٢٥٠



من منشورات دار الفناش،

- أصول التفسير وقواعده، الشيخ عبد الرحمن العك.
- مختصر صحيح البخاري (المسمى التجريد المصريح لأحاديث الجامع الصحيح)، ت: إبراهيم بركة.
- قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، أحمد راتب عرموش.
- موطن الإمام مالك، (رواية يحيى بن يحيى الليثي)، تحقيق أحمد راتب عرموش.
- سنن الأوزاعي أحاديث وأثار وفتاوى، تصنيف الشيخ مروان الشعار.
- مسند عبد الله بن عمر، تخريج أبي أمية الطرسوسي، تحقيق أحمد راتب عرموش.
- دلائل النبوة (للأصبهاني)، تحقيق د. محمد رواس جني وعبد البر عباس.
- الفضل المين على عقد الجوهر الثمين، (في علوم الحديث) للقاسمي، تحقيق عاصم البيطار.
- دلائل التوحيد (للقاسمي)، تحقيق الشيخ خالد العك.
- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث (للقاسمي)، تحقيق محمد بهجة البيطار.
- موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين للغزالي (اختصار القاسمي)، تحقيق عاصم البيطار.
- الفوائد، ابن قيم الجوزية، تحقيق أحمد راتب عرموش.
- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف (للدهلوي)، تحقيق أحمد راتب عرموش.
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، للدكتور محمد حيد الله.
- التبيان في آداب حملة القرآن (للتنويري)، تحقيق الشيخ عبد العزيز السيروان.
- مختصر الإتيان في علوم القرآن (للسيوطي)، اختصار الشيخ صلاح الدين أرفه دان.
- مختصر سيرة ابن هشام، تحقيق عفيف الزعبي وعبد الحميد الأحذب.
- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، طاهر القاسمي.
- عبقرية الإسلام في أصول الحكم، الدكتور منير العجلاني.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية، لمحمد فريد، تحقيق د. حسان حقي.
- الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، د. محمد. ح. شندب.
- الفتنة ووقعة الجمل، رواية سيف بن عمر، إعداد أحمد راتب عرموش.
- معجم لغة الفقهاء، الدكتور محمد رواس قلعه جي والدكتور حامد صادق قنبيي.
- سلسلة موسوعات فقه السلف، الدكتور محمد رواس قلعه جي.
- سلسلة استراتيجية الفتوحات الإسلامية، أحمد عادل كمال.
- للذهب العسكري الإسلامي، بسام العلي.
- معجم أشعار معجم البلدان، الدكتور عمر الأسعد.
- قتلاء المجانين، لابن حبيب، تحقيق الدكتور عمر الأسعد.
- موسوعة عظماء حول الرسول، تصنيف الشيخ خالد العك.
- الأمثال العربية والمصر الجاهلي، محمد توفيق أبو علي.
- إجماع الأدب في معرفة كلام العرب (للأربلي)، تحقيق الدكتور إميل يعقوب.